

جامعة القاهرة
كلية الآداب
مركز الدراسات الأرمنية

تاريخ محمد علي باشا

المسمى المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية

تأليف

اسكندر بن يعقوب أغا أبكاريوس الأرمني

تحقيق

أ. أحمد عبد المنعم العدوي

مراجعة وتقديم

أ. د. رءوف عباس





جامعة القاهرة
كلية الآداب
مركز الدراسات الأرمنية

تَاريخ محمَّد عَلي بَاشا

المُسمَّى

المنَاقب المُصطَفويَّة
والمآثِر المُحمَّديَّة العلَويَّة

تأليف

اسكَندَر بن يَعقُوب أغَا أبكَاريُوس الأرمني

حقّقه وقدّم له وعلّق عليه ووضع حَواشيه وصَنع فَهارسه

أحمد عبد المنعم العدوي

راجَعهُ وقدّم له

د . رءوف عبّاس

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

الكتاب : تاريخ محمد علي باشا

(المسمى المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية)

المؤلف : اسكندر بن يعقوب أغا أبكاريوس الأرمني

المحقق : أ. أحمد عبد المنعم العدوي

مراجعة وتقديم : أ. د. رءوف عباس

الناشر : مركز الدراسات الأرمنية - كلية الآداب - جامعة القاهرة

رقم الإيداع : ١٦١١٨ / ٢٠٠٩

إهداء

إلى أستاذي الجَليل

رءُوف عَبّـــــاس

لعلّ الشاعر كان يعنيك حين قال:

كَمْ مِنْ طَوِيلِ العُمْرِ بَعْدَ وَفَاتِه   بِالذّكْرِ يَصْحَبُ حَاضِراً أَوْ بَادِي
فَاذْهَب كَمَا ذَهَبَ الرَّبيع وإِثْرُهُ   بَاقٍ بِكُــلِّ خَمَائِــلٍ وَنِجَــادِ

فإلى روحك الطاهرة أهدي هذا العمل

تصدير

ها نحنُ أولاء نسير - وبحمد الله - على الدَّرب الذي رسمناه لأنفسنا في مركز الدّراسات الأرمنية بكلية الآداب جامعة القاهرة؛ بنشر الأعمَال الأكاديمية الجادة والتي تتعلق بدوائر التماس ونقاط التلاقي بين كل من الحضارتين العربيَّة والأرمنيَّة، وقد بدأت تلك السياسة تؤتي بثمارها، ذلك أن المركز صار في الفترة الأخيرة قبلة الباحثين لنشر دراساتهم وأبحاثهم فيما يتعلق بهذا الصَّدد.

ليس هذا فحسب، بل إنَّ سياسة المَركز - في سياق هذا النَّهج - القائمة على تشجيع شباب البَاحثين لتقديم إنتاجهم العلمي الجاد والمتميز بدأت تثمر بدورها، ذلك أن محقق هذا العمل الذي ننشره اليوم هو باحث شاب واعد ما يزال بعد في مرحلة الدكتوراه.

والكتاب الذي نحن بصدده في هذه النشرة الجديدة من إصدارات المركز هو كتاب: "المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية"، والذي أطلق عليه مُحقِّقه على سبيل الاختصار اسم "تاريخ مُحمَّد علي بَاشا" وهو من تصنيف واحد من ألمع وأشهر الأُدباء الأرْمَن في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، ألاَ وهو اسكندر بن يعقوب أغا أبكاريُوس، وهو مثقف أرمني موسُوعي، يتميز بغزارة إنتاجه الأدبي والفكري، لكن مُعظم آثاره الآنِ بين مفقود ومخطوط لم ير النور بعد، أو في حكم النادر بسبب ضياع النِّسخ الأصلية، وبالتالي عدم إعادة طباعتها لاحقاً.

ومن هنا تأتي أهمية هذا العمل، ففضلاً عن قيمته التاريخية؛ فهو

أحد أعمال هذا المؤلف الموسوعي المخطوطة، ومن ثم فهي من الأهمية بمكان في سياق إعادة نشر وتحقيق أعمال هذا المؤرخ والأديب الأرمني الكبير.

والكتاب يتناول تاريخ محمد علي باشا، بدءاً من وصوله لحكم مصر في أعقاب جلاء الحملة الفرنسية عنها وحتى وفاته عام ١٨٤٨، ثم يتطرق إلى ولاية إبراهيم باشا القصيرة على مصر والتي لم تتعد العام الواحد، والذي سرعان ما لحق بوالده بعد عدة أشهر.

والكتاب مصدر هام جداً للباحثين المتخصصين في تاريخ مصر والشّام في عصر محمد علي باشا، ذلك أن مُصنّفه أظهر اهتماماً خاصاً بالوثائق، ونشر العديد منها في ثنايا كتابه، كما أنه تعرض لجوانب عديدة من مظاهر الحكم المصري للشام، وأوضاع الدولة العربية قصيرة الأجل التي نجح محمد علي باشا في إقامتها بحد سيفه، كذا فالكتاب من الأهمية بمكان للدّارسين والمهتمين بتاريخ الأدب العربي في العصر الحديث، حيث جمع المؤلف في ثنايا كتابه شتات عدد كبير من القصائد النادرة للفيف من الأدباء والشعراء الشّوام من معاصريه، ممَّن قصدوا بلاط إبراهيم باشا لعرض إبداعاتهم عليه.

لا أريد أن أخوض كثيراً في أهمية هذا العمل وقيمته التاريخية، سيَّما وقد قدم له بمقدمة ضافية العالم الجليل الراحل المغفور له الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد، والذي كانت مراجعته لهذا الكتاب والتقديم له آخر ما خطته يداه قبل أن توافيه المنية في السادس والعشرين من يونيو ٢٠٠٨، بعد صراع قصير مع المرض.

ومركز الدراسات الأرمنية بجامعة القاهرة يعد نشر هذا العمل في هذا التوقيت، ومع حلول الذكرى السنوية الأولى لرحيل ذلك العالم الجليل

بمثابة احتفاء بذكرى هذا الأستاذ والعالم الجليل وآخر جيل العمالقة الرواد من المتخصصين في تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

أما محقق هذا الكتاب، وهو الأستاذ احمد العدوي؛ فهو باحث شاب واعد، من أبنائنا بكلية الآداب، وهو ما يزال بعد طالباً بمرحلة الدكتوراه بقسم التاريخ، وفي اعتقادي – وأرجو أن تثبت الأيام صدق حدسي – ينتظره مستقبل مشرق على الصعيد الأكاديمي إذا ما واصل حياته العلمية بنفس الجدية والحماس، وقد قدم لعمله بمقدمة وافية، وذَيَّل عليه بستة أنواع من الفهارس الفنيَّة التفصيلية ليَسْهُل على الباحث الوصول إلى بُغيته، كما بذل في عمله جهداً علمياً متميزاً يستحق الإشادة والتقدير، ويَنُمُّ عن تمكُّنه في علم تحقيق المخطُوطات.

وأخيراً وليس آخراً؛ لا يفوتني في هذا المقام أن أشكر العالم الجليل الأستاذ الدكتور عُبَادة كُحيلة، الأستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، فهو الذي رشَّح هذا العمل المُتميِّز ليكون ضمن نَشَرات المَركز، وهو الذي تابع نشره خُطوةً بخُطْوة، وهو ما يعكس ثقة سيادته وتقديره للمركز ونشاطه العلمي.

والله تعالى ولي التوفيق

أ.د/ زينب أبو سِنَّة

مُدير مَركز الدراسات الأرمينية

كلية الآداب – جامعة القاهرة

تقـــــديم

بقلم المُؤرِّخ الكبير
د. رءوف عبَّاس حامد

لعلَّ المَصادر الأدبيَّة من أقـلّ المـصادر حظّـاً مـن اهتمـام المُؤرّخين، وخاصَّة في عالمنا العَربي؛ فقد نالـت نـصيباً وافـراً مـن الاهْتمام عند غيْرنا، فالأعمال الأدبيَّة التي يكتُبها من عاصرُوا الأحداث أو عايشُوا شهُودها؛ تُقدِّم للمُؤرّخ ما تعْجز عن تقديمه المَصادر الأُخرى الأثريَّة والوثائقيَّة وغيرها من الأصُول التي يتَّخذ منها المُـؤرِّخ حجـر الزَّاوية في إعادة تركيب الحَدث أو الظَّاهرة التي يتصدَّى لها بالدِّراسَـة، لأنَّها تنقل إليه؛ أو حتَّى تنقُله إلى الجوّ العام الذي دارت فيه الأحْـداث، وتجعله يقف على أحَاسيس صُنَّاعها ومشَاعرهم.

حقًّـاً يحرص أصْحاب الأعْمال الأدبيَّة على قدر ملحُـوظ مـن المُبالغة بقدر ما يتطلَّب الغرض الذي كُتب العمـل مـن أجلـه ذلـك، تضْخيماً للذَّات أو تَعْظيماً لطرف وتَقْزيماً لآخر، ولكنَّ اعتماد المُـؤرِّخ على العمل الأدبي يُتيح له اتِّقاء الوقُوع في أسْرِ مثل هذه المُبالغَات على ضوء ما بين يَديه من مَصادر أثريَّة ووثائقيَّة، فهو لا يبحث فـي تلـك الأعْمَال عن وقائع ما جَرى، ولكنَّه ينشُد استنشَاق عَبق الجوّ التَّـاريخي الذي دارت فيه الأحْداث، وإدراك أبْعـاد الحالـة المزاجيَّـة والنَّفْـسيَّة للمُشاركين فيها، حتى يَستطيع تجْسيد الحَـدث أو الظَّـاهرة موضُـوع

دراسته، هذا فضلاً عن الوقُوف على العَادات والتّقاليد والقِيَم الاجْتماعيَّة والخُلقيَّة التي نادراً ما نجد تَسجيلاً لها إلاَّ في كتابات من عاشُوا الحِقْبَة أو عاصَرُوها .

لذلك كان الكَشف عن أيِّ عملٍ أدَبي يُعنَى بتسجيل حِقْبَة تاريخيَّة ما؛ من الأهميَّة بمكان للبَاحثين في التَّاريخ، حتَّى لو توفُرت المَصادر الوثَائقيَّة الأصليَّة؛ من هُنا تأتي أهميَّة هذا العَمل : "المَناقب المُصطفويَّة والمآثر المُحمَّديَّة العَلويَّة" لاسكنْدر بن يعقُوب أغا أبْكَاريُوس؛ الذي حقَّقهُ الأُستاذ أحمد عبد المنعم العدوي، وجعلهُ يرى النُّور بعد ما يقرُب من القَرن ورُبع القرن من الزَّمان، فقد فرغ مُؤلِّفهُ من كتابته عام ١٨٧٣ .

ولعلَّ بقاء العَمل مخطُوطاً طوال هذه المُدَّة له ما يُبرِّره على ضوء أحْداث العام الذي فرغ فيه المُؤلِّف من كتَابته، فقد تناول هذا العمل مَناقب مُحمَّد علي بَاشا وولده إبراهيم باشا تملُّقاً لمُصْطَفى فاضِل باشا بن إبراهيم -وحفيد مُحمَّد عَلي- والشَّقيق الأصْغر للخديوي إسْماعيل - وكان يَصغُره بعامَيْن - والمُرشَّح الطبيعي لولاية العهد وفْق فَرمَان عام ١٨٤١ الذي جعل حُكم مصر للأرْشَد من أبْناء مُحمَّد علي باشا وذُريَّتهم، ولمَّا كان إسْماعيل قد نَجح في التَّخلُّص ممَّن كانُوا يكبرُونه سِنّاً من أمراء الأُسرة حتى يصل إلى أريكَة الحُكْم - سَواء كان ذلك التَّخلص من صُنع القدر أو من صُنعه هُو - فقد كان مُصْطفى فاضل يقف حَجر عَثْرة في طريق تغيير نظَام وراثة حُكْم مصر ليُصبح

من نصيب أكْبر أبْناء الخِديو إسْماعيل (مُحمَّد تَوْفيق باشا) وهُو ما تحقَّق فعْلاً في نفس العام الذي انْتَهى فيه اسكندر أبْكَاريُوس مِن كتابة هذا الكتاب ليُهديه إلى مُصْطفى فاضِل بَاشا، ويَنال منهُ ما قد يفيض به عليه من عَطاء، وهو العَام الذي قُطِعَت فيه صِلة مُصْطَفى فاضِل باشا بمصر، واختَار استَانبُول مَقرّاً له، مُحاولاً إعَاقة صُدُور ما سُمّي بالفَرمَان الشَّامل الذي وسَّع من صَلاحيَّات حاكِم مِصْر ليَرقى بوضْعها إلى "الحُكْم الذَّاتي الكَامل" الذي لا يُبقي من الصِّلات بين مصر والدَّولة العُثْمانيَّة سوى السِّيادة الإسْميَّة، ومظهرهَا سَداد الخَراج السَّنوي لاستَانبُول، وهو الخَراج الذي اقْتَرضت الدَّولة العُثمانيَّة بضمَانه من البنُوك الأُولى قَرضاً خصَّصت خَراج مصر لسَدادِه، ووافَق الخديو على ذلك، واستمرَّت مصر تُسدِّد الدَّيْن (الخَراج) حتَّى بعد زوال السِّيادة العُثْمانيَّة بما يزيد عَلى العقْديْن من الزَّمان .

وتضمَّن "الفَرمان الشَّامل" تغْيير نظام ولاية العَهد (وراثَة الحُكْم) من أرْشَد أبْناء أُسرة مُحمَّد علَي إلى أكْبَر أبْناء الخِديوي، وحتَّى يضْمَن الخديو إسْماعيل بقاء أخيه مُصْطفى فاضِل بعيداً عن مصر، فقد أرْغَمهُ – بعد مُفاوضات طَويلة – على أن يَتنازل لهُ عن جميع أمْلاكه في مصر لقَاء مبلغ مَالي كَبير .

في هذا الجَو المُلبَّد بغيُوم الصِّراع على الحُكْم والمُؤمَرات – الذي جرَت فيه أمْوال الرِّشى التي أنْفقَها الخديو إسْماعيل في استَانبُول

أنهاراً - فرغ الأديب الهُمام اسكندر أبكاريُوس من "المَناقب المُصطفويَّة والمآثر المُحمديَّة العَلويَّة" ولا أظنُّ أنَّه وجد الفُرصة المُتاحة لإهْداء هذا العَمل فعْلاً إلى مُصْطفى فاضل بَاشا، وإلاَّ كان الأخير قد دَفع بــه إلــى المَطْبعَة ليخْدُم قضيَّته في الصِّراع السِّياسي مع إسْماعيل، ولعلَّ اسْكندر أبْكاريُوس لم ينل جَائزته على هذا العَمل إلاَّ على يدِ مُحقِّقهُ أحمد عبــد المنعم العدوي الذي أخْرجهُ إلى النُّور، فمن الواضــح أنَّ المخطُوطــة بقيت بمصر حتَّى وجدت في مَكتبة الأزْهَر مُستقرّاً لها.

ولعلَّ اسْكندر أبْكَاريُوس استفاد من هذه المخطُوطة في الكتــاب الذي صنَّفه مُشاركةً مع مُحمَّد مِكَّاوي ونُشر عام ١٢٩٩هــ بالمطْبعــة الوهبيَّة بعنوان "المنَاقب الإبْراهيميَّة والمآثر الخِديويَّة " وما كَالــهُ مــن مديحٍ للخِديوي إسْماعيل وتَوْفيق فــي كتابــه "نُزْهــة النُّفُــوس وزينــة الطَّرُوس" فيما يُمكن أن نُسمِّيه "تَوْفيقاً للأوْضَاع"، كَفَّر فيه عــن ولائــه لمُصْطفى فاضل باشا في "المَناقب المُصْطفويَّة"، وخاصَّة أنَّه لقي إحْساناً من إسْماعيل عندما قَصد مصر عام ١٨٧٤، وتقلَّب في منَاصب الإدارة المصريَّة زُهَاء عَشْر سنَوات، قبل أن يَدْهمُه المَرض ويعُود إلى بــلاده حيث تُوفِّي بعد عام ١٨٨٧.

ورغم ما في الكتاب من مُبالغَات؛ إلاَّ أنَّه يُتيح لمن يَهْتم بدراسة الوجُود المصري في الشَّام على عهدِ مُحمَّد علي الوقُوف علــى المُنــاخ

الذي دارت فيه الأحداث وبعض ما اتّصل بعلاقات السلطة وأحوال النّاس، كما يُقدّم لدارسي تاريخ الأدب العربي في القرن التّاسع عشر مَعيناً من المادّة النّافعة .

وقد بذل المُحقّقُ جهداً مُتميّزا في ضبْط النّص والتّعليق عليه خدمةً للتّاريخ والثّقافة العربيّة، يَستحقّ التّقدير والثّناء .

رءوف عبّاس حامد

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب جامعة القاهرة

مقدمة المحقق

جدُّ نادرة هي المصادر الأدبيَّة التي أرَّخت لعصري مُحمَّد علي باشا الكبير (١٨٠٥/١٨٤٨) وإبراهيم باشا (١٨٤٨)، ولا أظُنني مُبالغاً إذا ما حَصرتها في كتابات الجَبرتي الذي وصل بتاريخه إلى عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م، وخليل بن أحمد الرُّجبي المُتوفى تقريباً في حدُود عام ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م في كتابه "تاريخ الوزير مُحمَّد علي باشا"[1]، أما بالنسبة لإبراهيم باشا فلا شيء يَسترعي الانتباه سوى عمل المؤلف الدِّمشقي المجهُول الذي رصَد أخبار حملته على الشام[2].

---

(١) نُشر مؤخَّراً باعتناء دانيال كريسليوس وحَمزة عبد العزيز بدر وحسام الدين اسماعيل ، القاهرة ١٩٩٧.

(٢) عثر عليه أولاً الخوري قسطنطين باشا في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت التي كانت قد حصلت على صورة منه عن نسخته الأصلية الفريدة المحفوظة بمكتبة برلين ثم نشره أواخر القرن التاسع عشر ، تحت اسم "مذكرات تاريخية بقلم أحد كتاب الحكُومة الدِّمشقيِّين" ثم أعاد نشره المُحامي أحمد غسان سبانو تحت اسم "مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية"، ولا يمكن أن نغفل أيضاً في هذا الصدد أهمية كتابات كلوت بك، وهناك أيضاً عملين هامين جداً لمؤرخ مُعاصر لمحمد علي وهو فليكس منجن Félix Mengin وهما:-

Histoire de l' Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly ou récit des événements politiques et militaires qui ont eu lien dipuis le départ des français jusqu' en 1823, paris 1823 ; Histoire sommaire de l' Egypte sous la gouvernement de Mohammed Aly , Paris 1839 .

ومن الملاحظ أن نُدرة الكتابات التاريخية المُعاصرة قد أضفت أهمية كبيرة على بعض الكتابات المتأخرة نسبيًا ككتابات علي باشا مبارك وأمين سامي بك والأمير عُمر طوسون وميخائيل شاروبيم وإلياس الأيوبي وهي من بعض الزوايا ترقى بالفعل إلى درجة المصادر الأصلية.

وبين يديك الآن أحد هذه المصادر الأدبيَّة النّادرة وهو كتاب "المناقب المُصطفويَّة والمآثر المُحمَّديَّة العلويَّة" لاسكَنْدر بن يعقُوب أغا أبْكاريُوس.

المُؤلّف

كتاب "المناقب المُصطفوية والمآثر المحمدية العلويَّة" من تصنيف اسْكندر بن يعقُوب أغا أبْكاريُوس الأرْمَني وهو كاتبٌ لبناني معرُوف، وعلى الرَّغم من كونْه أحد أشهر الكُتّاب البارزين من الشّوام في النِّصف الثاني من القرن التّاسع عشر، وبالرغم أيضاً من نشاطه العلمي الجَم فإن المعلُومات المُتوفّرة لنا عن حياته لا تتوازن مع ذلك الدَّور الذي لعبه في الحياة الثّقافية في عصره، كل ما نعرفهُ عنه أن جذُوره تَنْحَدر من أصول أرمنيَّة[1].

ومن غير المعرُوف على وجه التّحديد تلك الظروف التي حتّمت على عائلة أبكاريُوس النُزوح من أرمينيا إلى بيروت، إلا أنَّ جُرجي زيدان ينفرد من بين جميع من أرَّخُوا لأبكاريوس بهذه الرواية التي تلقي بعض الضوء على شخصية يعقُوب أبكاريوس وظرُوف هجرته إلى الشام، يقول جرجي[2]:-

> "في أواخِر القرن الثّامن عشر للميلاد وأوائل القرن التّاسع عشر حدث في أرمينيا حدثٌ بعث على مُهاجرة جماعيَّة من كبار الأكليرُوس الأرمني، نزحُوا من أرمينيا إلى برِّ الأناضُول، ووصل

---

[1] لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية ، بيروت (١٩٢٤) ٣ : ١٣٢.

[2] تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، بيروت، د.ت، ٢ : ٣١٣.

إلينا أسماء ثلاثة منهم: وهم أسقُفَان أحدهما ترابيب[١] ديونسيُوس والثاني يعقُوب أبكاريوس، والثالث برتبة ورتباد[٢].

ولا نعلم سبب تلك المُهاجرة، وقد يكون السبب اختلافاً في المذهب أو الرّأي، ويقال انّ الكنيسة الأرمنية ادّعت عليهم ألهم تصرفوا بأموال ديرٍ أو كنيسة هناك؛ فانضموا إلى الكنيسة الإنجيلية، ولجأوا الى سفير انكلترا في الأستانة اللورد سترالفورد *Stratford*، فلمّا تفحّص قضيتهم اعتقد ببراءقم فأخذ يُناصرهم، وتوسّط في إطلاق سراحهم وأشار عليهم بالذهاب إلى سُورية وأرفقهم بكتاب توصية إلى قُنصل الإنكليز في بيروت واسمه بطرس أبّوت *Peter Abbot*[٣].

شخص هؤلاء إلى سُورية والمرسلون الأمريكان لأوّل عهدهم فيها فرحّبوا بهم فأقاموا فيها وتزوّجوا فأقام يعقوب أبكاريوس في بيروت وعرف بيعقُوب أغا، واشترى منزلاً قرب القُشلاق عُرف باسمه ثم اشتراه الأرمَن وجعلوه ديراً لهم ، ولا يزال إلى الآن ، وعائلة أبكاريوس مَشْهُورة".

على أي حال فقد استقرّ يعقُوب أبكَاريُوس ببيروت، وصار أحد كبار أعيانها، ثم لم يلبث أنْ ربطت أواصر التقدير المُشترك بينه وبين إبراهيم باشا نجل مُحمَّد علي، وارتبط به ارتباطاً وثيقاً، وصار خصيصاً به لا سيما بعد استيلاء إبراهيم باشا على بيروت[٤].

---

(١) رتبة دينية كبيرة في الإكليروس الأرمني.
(٢) راجع حاشية ٢ أعلاه، مع ملاحظة أنها أقل شأناً من الرتبة الدينية المتقدمة.
(٣) سيشير اسكندر أبكاريوس إلى دوره في الأحداث التي سبقت حصار إبراهيم باشا لعكا، انظر ص ٧٥ من هذه النشرة.
(٤) شيخو: نفسه، نفس الجزء والصفحة.

ومن هُنا نشأت صلة كبيرة بين الأسرة العلويَّة في مصر وبين آل أبْكَاريُوس في الشّام، فبُعيد وفاة الأب في بيْروت عام ١٨٤٥م[١] هاجر ولداه اسكَندر ويُوحنًا إلى أوربا طلبا للعلم[٢]، ثم عادا إلى بيروت في وقت ما خلال النّصف الثاني من القرن التّاسع عَشر، ثم غادر اسكندر بيرُوت إلى القاهرة عام ١٨٧٤ قاصداً الاستقرار بها - وغالباً فإنَّ صلة عائلته القَديمة بالعائلة الخديويَّة في مصر كانت وراء إقدامه على تلك الخُطوة - فقد أحسَن الخديو إسمَاعيل وفادته، وأسند إليه عدة مناصب تقلّب فيها حتّى أصبح رئيس دائرة إسماعيل باشا صدِّيق[٣] الشّهير بالمُفتّش - وزير المالية وقتئذ - ثم غادر إلى بيروت للاستشفاء من مرض السّحج[٤]، ويُجمع من ترجمُوا لاسكندر أبكاريوس على أن مرضه كان قصيراً إذ لم يلبث أن توفي عام ١٨٨٥.

لكن هذا التاريخ الذي تحدده المصادر ليس صحيحاً على الإطلاق ، فالثابت لديّ أن اسكندر كان على قيد الحياة حتى مُنتصف عام ١٨٨٧ على الأقل ، فهُناك خطاب على شكل إهداء على غُلاف أحد

---

(١) ذكر شيخو أن يعقوب أبكاريوس قد توفي عام ١٨٤٥ واستدل على ذلك بأبيات للكاتب والأديب الشهير إبراهيم اليازجي أرّخها لليازجي بذات العام يرثى فيها يعقوب أبكاريوس بقوله:

مضى إلى الله من طابت سريرته ... بالله وهو بعفو الله مصحوبُ
فقُل لمن جاء بالتاريخ يطلبهُ ... قد صار في حضن إبراهيم يعقوبُ

شيخو: نفسه ، نفس الجزء والصفحة.

(٢) جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة (١٩٥٧) ، ٤ : ٢٨٨.

(٣) يوسف إليان سركيس: مُعجم المطبوعات العربية، مكتبة آية الله العظمى، النجف (د.ت) ١ : ٢٣.

(٤) مرض شديد يصيب الجلد ويؤدي إلى تقشره وانسلاخه، ربما كان أحد أنواع الجديري أو نوعاً من أنواع الجذام، انظر الخوارزمي: مفاتيح العلوم، نشرة جودت فخر الدين، بيروت (د.ت) ص ١٥٣.

مُؤلفاته بخط يده وهو كتاب "نوادر الزّمان في ملاحم عربستان" أهـــداه أبكاريوس لأحد الأعيان – ولم ينص على اسمه– مُؤرّخاً إيّاه بتــاريخ ٣ حزيران (يونيو) ١٨٨٧[١].

على الأرجح فإن اسكندر أبكاريوس قد انــزوى عـــن الحيـــاة العامة، واختار الإقامة بالأماكن النائية عن بيروت، وعلى الأرجح أيضاً أن ذلك كان بسبب الندب والبثور التي تركت آثارها على وجهه وجسده، بحيث صعب على متتبعي أخباره معرفة تاريخ وفاته على وجه الدقـــة، أو ربما حدث نوعٍ من اللبس والخلط عند مُعاصري الأخوين أبكاريوس في تحديد تواريخ وفاة كلا الشقيقين اسكَندر ويُوحنًا الذي تُجمع المصادر على وفاته بإحدى ضواحي بيروت عام ١٨٨٩[٢]، علـــى ذلـــك يكـــون يُوحنا هو الذي توفي عام ١٨٨٥، ثم تلاه شقيقه اســـكندر عـــام ١٨٨٩ وهذا أيضاً يشكل افتراضاً معقولاً.

وعلى أي حال فالخطاب المذكُور لا يثبت فقط بقاء اسكندر على قيد الحياة حتى ما بعد عام ١٨٨٥ وإنّما يلقي بعض الضوء على حيـــاة اسكندر في أُخريات أيّامه، وعلى حالته النفسية والمزاجية التي سيطرت عليه أواخر أيامه، يقول اسكندر موجّهاً الحديث إلى من أهدى له كتابـــه نوادر الزّمان:-

سيدي الأجل الأفخم أطال الله بقاه:

نُحبُّ سعُود أوقاتكم والسؤال عن عزيز خاطركم الكريم، اعرض

أنه إذ لم يمكنني لحد الآن الحصُول على خدمة مُناسبة من تدريس

---

(١) انظر ظهر غلاف الكتاب المذكُور بعاليه، مخطوط بالمكتبة الآصـــفية، حيـــدر آباد، الدكن برقم ٧٣٦ تاريخ.

(٢) شيخو: نفسه، ٣ : ١٣٣ .

أو خلافه في هذه المدينة؛ فقد صمّمت على الرجُوع إلى بيروت
في وقت قريب، وحيث من سُوء الحظ لم تسنح الفُرصة باجتماعي
مع حضرتكم في أثناء هذه المُدّة الطويلة؛ فأرجو من جنابكم قبول
هذا التأليف على سبيل التّذكار.

وأطال الله تعالى بقاكم

الداعي لجنابكم

اسكندر أبكاريوس

في ٣ حزيران سنة ١٨٨٧

ومن هذا الخطاب يتبيَّن أن خروج اسكندر من مصر لم يكن بهدف النّقاهة والاستشفاء، وإنّما كان نزُوحاً نهائياً عنها، فقد استقر ولمدة طويلة بإحدى المُدن التي لم يُفصح عن اسمها، وكان يبحث خلال تلك المُدة عن عمل يناسب قدراته ومُؤهلاته كتدريس أو خلافه على حد قوله، فلما أيس من ذلك قرَّر الرجوع إلى بيرُوت بشكل نهائي، وهو ما حدث بالفعل حتى توفي بها بعد عام ١٨٨٧.

مُؤلّفاته

ترك الأخوان أبكاريُوس العديد من المؤلّفات التي جعلت منهُما بحق اثنان من رواد النهضة الثقافية في مصر والشّرق في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبصفة خاصّة اسكندر الذين كان أغزر إنتاجاً من شقيقه[1]، ومن أشهر مُؤلفاته كتابه "نهاية الأرب في أخبار

---

[1] كان يوحنا أبكاريوس أقل إنتاجاً من شقيقه إلا أنه كان أكثر تجريدا وعمقاً في=

العرب" الذي طُبع أولاً بمرسيليا عام ١٨٥٢[١] ثم زاد عليه وجدَّد طباعته في بيروت ١٨٦٧ ونشره باسم "تزيين نهاية الأرب في أخبار العرب"[٢] وكتاب "روضة الأدب في طَبقات شُعراء العرب" والذي صدر ببيروت ١٨٥٨[٣] "ومُنية النُّفس في أشعار عنتر عبس" وطبع ببيرُوت عام ١٨٦٤[٤] وكتاب "نُزهة النُّفوس وزينة الطُّروس" وهو كتاب في المدائح والمَراثي والتَّهاني ، مدح فيه كل من الخديوي إسْماعيل وتَوْفيق ، وطُبع بمطبعة جريدة الزمان عام ١٨٨٣[٥] وديوان شعره الذي لا زال

= أسلوبه الأدبي من شقيقه اسكندر الذي أغرم بالسجع – الذي كان أسلوبا مفضلاً لكتاب ذلك العصر منْ المتمكنين من العربية – وقد صنف يوحنا كتابا قيما في التاريخ أسماه "قطف الزهور في تاريخ الدهور" واحتفظ في خزانتي الخاصة بنسخة نادرة منه طبعت ببيروت عام ١٨٧٣، وينسب شيخو له كتاب اسمه "نزهة الخواطر" لم أقف له على أثر، إلا أن شيخو يقول أن مؤلفه قد جمع به بعض الأخبار وبعض المقاطع الأدبية ، شيخو المصدر نفسه ٣ : ١٣٣، ومن أشهر آثاره قاموس انجليزي – عربي يعتبر معجماً قيماً عني بتنقيحه بعد وفاته نجله يوسف أبكاريوس، ثم أعاد تنقيحه ونشره البروفسيور فرانكلين وهي ذات الطبعة التي بين أيدينا اليوم.

(١) شيخو: نفسه، ٣ : ١٣٣.

(٢) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين بأسماء الكتب والمصنفين، بيروت ١٩٨٢ ، ١ : ٢٠٦؛ قارن أيضا إيضاح المكنُون في الذيل على كشف الظُّنون للمؤلف نفسه، بيروت (د.ت) ١ : ٥٩٢.

(٣) البغدادي: هدية العارفين، نفس الجزء والصفحة.

(٤) إدوارد فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، بيروت ١٩٨٧، ص ٤٢٩.

(٥) نفسه، نفس الصفحة؛ سركيس: معجم المطبوعات ١ : ٢٤.

مخطوطاً لم يُنشر بعد، وعدّة كُتب في التّاريخ أبرزها "ديوان الدّواوين في أجْوَاد المُتقدمين والمُتأخّرين"[1] .

وله ترجمة مُفردة لإبراهيم باشا دعَاها "المناقب الإبْراهيميَّة والمآثر الخديويَّة" صنَّفه مُشاركة مع مُحمَّد مكّاوي[2] وطبع بمصر بالمطبعة الوهبيَّة ١٢٩٩هـ ودوَّن في آخره ثبتاً بمؤلفاته - وهذه الطَّبعة غدت اليوم جدُّ نادرة إذ لا علم لي بطبعات منها بعد طبعة المكتبة الوهبيَّة - ومن الجليِّ أن كتاب المناقب المُصطفويَّة كان النَّواة الأولى لهذا الكتاب .

هذا بالإضافة إلى كتابه قصَّة شَهْريار، وله كتاب لقي حظه من النّشر مؤخّراً وهو كتاب "نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان"[3]، كما يُنسب إليه كتاب "خرابات سُوريَّة" وهو عبارة عن رسالة في آثار سُوريَّة القديمة، ولكن هناك شكٌّ كبير أن تكُون هذه الرّسالة من تصنيف ميخائيل زكريا الخُوري صاحب جريدة "حديقة الأخبار"[4].

وثمَّ كتاب ذكر المُؤلِّف أنَّه من تآليفه، ولم أجد له ذكراً فيما بين يدي من المَراجع التي ترجَمت لأبْكاريُوس وهو كتاب "البَدر السَّافر في أعيان القرن الحَاضر"[5] وغالباً فإنَّ أبكاريوس لم يتمكَّن من طباعته لسببٍ ما.

(1) شيخو: نفسه ٣ : ١٣٣.
(2) شيخو: نفسه، نفس الجزء والصفحة.
(3) نشر باعتناء إبراهيم السمك، لندن ١٩٨٧.
(4) سركيس: معجم المطبوعات، ١ : ٢٥.
(5) انظر ص ٦٧.

موضوع الكتاب

يتناول الكتاب تاريخ مُحمَّد علي باشا وإبراهيم باشا مع التَّركيز بشكل واضح على إبراهيم باشا وفتُوحاته لا سيّما في الشّام والأناضول، ومن الواضح تماماً أن المؤلف لم يرد كتابة التّاريخ للتاريخ في حدّ ذاته، بل قصد كما ذكر في مُقدّمته أن يُجامل الأمير مُصطفى فاضل بن إبراهيم باشا -وشقيق الخديوي إسماعيل- الذي أحسَن وفادته وأجزل له العطاء عندما زاره المؤلّف بالأستانة عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م وقدّم له نُسختين من كتابيه "روضة الأدب في طبقات شُعراء العَرب" ونوادر الزمان في وقائع جبل لبنان" ثم عاد إلى بيروت وصنّف هذا الكتاب في ذات العَام، كما يُفهم من مُقدّمة المؤلف بجلاء:-

" .... فجاء - بحوله تعالى - كتاباً نفيساً جليلاً ، وتاريخاً مُفيداً جميلاً يلتذُّ بمُطالعته القارئ والسّامع، ويأخذ بمجامع القلوب والمسامع، وكان ترتيبي له في مدينة بيرُوت المحميّة، سنة ألف ومائتين وتسعين هجريّة، المُوافقة لسنة ألف وثمانماية وثلاث وسبعين مسيحيّة .... قُلت:- وكان السَّببُ في وضع هذا الكتاب وتقديمه إلى حَضْرة الوزير المُشار إليه - من جعل الله مقاليد السيادة والسعادة طوع يديه - هو أنني لما كنت بالأستانة العليّة، في أواسط [عام] ١٢٩٠هجرية تشرّفت بلثم أعتاب دولته، وتطفّلت على عالي حضرته بتقديم نُسخة من كتابي "روضة الأدب في طبقات شعراء العَرب"، مع نُسخة من كتاب "نوادر الزّمان في وقائع جبل لبْنان"، فوقعتا عنده في حيِّز القبُول وانعم عليّ باحسنِ مأمول، ولمّا رجعت إلى الأوطان، وتذكرت ما

أولاني به من جزيل الإحسان - الذي يعجز عن وصفه اللسان - بادرت حالاً بهذا التاليف، وسرت بنفسي لأقدّمه إلى جنابه الشريف، مُلتمساً من حضرته أن يَشملني - وإيّاه - بالنظر السّامي المنيف لأنّي من جُملة عبيده وخُدّامه، المُنتمين إلى سُدّة مقامه "[1].

ويبدو ممّا ذكره المؤلّف أن مُصطفى فاضل باشا لم يُكلّفه مُباشرة بتأليف هذا الكتاب عن مآثر أبيه وجدّه، وأن المُؤلّف قد بَادر من تلقاء نفسه إلى تأليف هذا الكتاب كردٍ للجَميل أو التماسٍ للعطاء، وأنّه فرغ منه على حدّ قوله ببيْروت عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م وسمّاه المناقب المُصطفويّة مُجاملة للمُهْدى إليه مُصْطفى فاضل.

ومن اللاّفت للنّظر أن المُؤلف لم يتناول تاريخ مُحمَّد علي باشا منذ بداية حُكمه وحتى وفاته وكذا إبراهيم باشا على نحو تقليدي مُرتّباً حولياً أو حتى موضُوعيّاً، وإنّما جاءت مُعالجته لموضُوعاته على نحو انتقائيٍّ تماماً، فالمُؤلف لا يكاد يحفل إلا بأخبار إبراهيم باشا وأخبار حملاته المُظفرة في الشّام والأناضُول، وإدارة إبراهيم باشا للشّام وثورات الدُّروز في عهده، والإجراءات التي اتخذها إبراهيم باشا لإخمَاد تلك الثورات، ثم خلافته لوالده وأخيراً وفاته.

ومن الواضح أن المُؤلف يُكنُّ إعجاباً خاصّاً بإبراهيم باشا، فالمُؤلف شأنه شأن الشّوام من سُكان مُدن وحواضر الشّام قد تفتّح وعيه على دولة عربيّة مُترامية الأطراف تمتد من جبال طُوروس وحتى وادي

[1] انظر مقدمة المؤلف، ص ص ٣٧ ، ٣٨.

النيل – كان إبراهيم باشا قد نجح في إنشائها بحد سيفه – ومن ثم نظر كغيره إلى إبراهيم باشا نظرة المُخلِّص من نير الحُكم العُثماني الذي لم يكن يُعني إلا باستنزاف مواردهم أولاً فأول، وكأحد الشوام أيضاً من الذين أكملوا تعليمهم في أوربا وبالتالي كانوا أقرب من غيرهم في تفهُم تجربة إبراهيم باشا في الشام والتي حاول فيها تطبيق نفس نمط التحديث مُقتدياً بتجربة أبيه في مصر .

أضف إلى ذلك تلك الثقافة والرُوح العربيَّة الخالصة التي كان إبراهيم باشا – على العكس تماماً من والده – يتميَّز بها ، والتي كان بثّ الرُوح القومية العربيَّة من أهم الدَّعائم التي اعتمد عليها إبراهيم باشا في توطيد حُكمه بالشّام، ومن ثم شهدت تلك الدولة العربية – قصيرة الأجل – حركة إحياء ونهضَة حقيقية وملحُوظة للثقافة العربيَّة الكلاسيكية، وربما لهذا السبب ظلّ إبراهيم باشا يتمتّع بتقدير وإعجَاب الأدباء والمُثقفين الشّوام.

كذلك لا يجب أن نُغفل انتماء المُؤلف إلى طائفة نصارى الشّام والذين عانُوا كثيراً إبَّان الحُكم العثماني، ومن ثم لم يكُن من المُستغرب أن يكونُوا أكثر من غيرهم ترحيباً بالحُكم المصري الأكثر تسامُحاً –إن لم يكن تعاطُفاً– مع أهل الذِّمة مُقارنة بالحكم العُثماني ، وفي المُقابل كان هؤلاء النُصارى أيضاً الأكثر تضررُاً من غيرهم من عودة الشّام إلى السيادة العُثمانية مرة أُخرى، لذا كان لإبراهيم باشا مكانة كبيرة في نفُوسهم، هذا أخذاً في الاعتبار أن والد المُؤلف نفسه كان واحداً من هؤلاء المُقربين من إبراهيم باشا.

ومن المعقُول كذلك أن المؤلِّفَ -ذو الأصل الأرْمنيّ- كان كغيره من أرْمَن المَهْجَر الذين يكنُون مشاعر البُغض والكراهية للدولة العُثمانية- تأثُراً بادعاءات بني جلدتهم في الوطن بانتهاج الأتراك لسياسة تطهير عرقي مُنظّمة ضدهم- لم يكترث إلا بتسجيل هزائم وانكسارات الدولة العُثمانية، ولم يحفل إلا بأخبار تلك المَعارك التي لم يكن نصيب تلك الإمبراطورية العظمى إلا الهزيمة والإذْلال المرَّة تلو الأُخرى على يد إبراهيم باشا.

كذلك كان لاسكندر أبكاريوس أيضاً دافعاً خاصاً وهي العلاقة الحميمة التي ربطت والده يعقوب أبكاريوس وإبراهيم باشا، وإعلاء إبراهيم باشا من قدر والده، وقد أفصح اسكندر نفسه على أن هذا السبب كان من أسباب سعيه إلى جمع مناقب إبراهيم باشا، يقول اسكندر أبكاريوس:-

"وكان إبراهيم باشا مُحبّاً لسيِّدي المرحُوم الوالد، والأب العزيز الماجد، وهو يعقُوب أغا المشهُور، صاحب الفضل والصِّيت المشكُور، الذي كان من أكابر زمانه، وأجود أهل عصره وأوانه، وكان يزوره في أكثر الأحيان، ويُعامله باللُّطف والإحسان، ويخلع عليه الخلع الحسان، كما هو معلُوم للخاص والعام، من أهل بيروت وبر الشّام، وبهذه الوسيلة ارتفع أبي بفضله جاهاً وقدراً، واكتسب بصفاء أنظاره شرفاً وفخراً، وكان مسمُوع الكلام، مرفوع المقام، عند الولاة والحُكّام، مقصد الحل للمعَاقد والمشاكل، وكهفاً تلتجئ إليه الأيْتام والأرامل.

وكان من جملة مساعيه الخيريّة، وأفعاله الحميدة المرضيّة؛ أنه أطلق عشرة أنفار من أهل بيرُوت من الخدمة العسكريّة، ممن كانوا فُقراء الحال، وأصْحَاب عيال، منهم أحمد مرزا البيرُوتي، وعبد الرحمن المغربل، وأحمد العالُوتي، وأحمد طقطق الدلال، وغيرهم من الرِّجال، وهذا حظٌّ عظيم، والتفات جسيم، لم ينله غير والدي من مكارم جناب إبراهيم، وهذه المعاملة الجميلة هي التي حملتني إلى جمع مآثره الجليلة، وتدوينها في هذا الكتاب، ليبقى ذكراً لحضرته على مدى الأحقاب"[1].

كل هذه العوامل مُجتمعة جعلت المؤلف لا يكترث إلا للتّأريخ لتلك الدولة العربيَّة الوليدة التي كانت انتصارات وأمْجاد إبراهيم باشا وحُروبه ومَعاركهُ الظّافرة في الشّام والأناضُول هي ما مهَّد السَّبيل لميلادها.

مصَادر المُؤلّف

لا يُفصح المُؤلف عن مصادر معلُوماته في أغلب الأحْيَان، ومع ذلك فالظّاهر أنّه استَقى أكثرها من الرّوايات الشّفهية من أعْيَان الشّام والضُبّاط الشّوام الذين رافقُوا إبراهيم باشا في حملاته سواء في الشام أو الأنَاضُول؛ من ثم فالمعلُومات التي أوْرَدها المُؤلّف عن معارك إبراهيم

[1] اسكندر أبكاريوس: المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، القاهرة ١٢٩٩هـ، ص ١١٩.

باشا وفتُوحاته في الشّام والأناضُول تستمد أهميّتهـــا مـــن أن المُؤلـــف استمدها من أفواه شهود عيان، فالمُؤلف ينصُ على ذلك بقوله:-

"وكانت لإبراهيم باشا في حصار عكّا مواقف غريبـــة، ومشاهد مُدهشة عجيبة، تدلُ على شدة بأســه وشـــجاعته، وحسن تدرُّبه في أبواب الحَرب وبراعته، فمن ذلك ما حـــدثني به بعض الأعيان من أهالي عربستان ممـــن كـــان في خدمتـــه، ومُقدما بين رجَال دوْلته، قـــال ...." [1].

إلى جانب ذلك فمن الواضح أنّ المُؤلف كان واسع الاطّلاع على الوثائق الرسميَّة، خاصة تلك التي تتعلق بالبلاغـــات الحربيَّـــة وموقـــف إبراهيم باشا الحربي ونشرات الجيش المصري، إلى جانب تلك الوثـــائق المُتعلقة بمُراسلات مُحمَّد علي باشا مع دول أوربَّا بخصوص مُفاوضاته مع الباب العالي بعد نجاحه في فتح عكّا وضم الشّام إلى مصر، ويبـــدو أن المُؤلف قد استفاد من كونه أحد كبار موظفي الحكُومة المصرية فـــي عهد الخديوي إسماعيل وفي الوقت ذاته واحداً من المُقرَّبين من الأُســـرة الخديويَّة، وأن تلك القُربى قد لعبت دورها في إتاحة الفُرصـــة للمُؤلّـــف للاطّلاع الواسع على المحفُوظات والـــسّجلات الوثـــائق والمُراســـلات الرّسمية المُعاصرة والتي حرص المؤلف على الاستشهاد بجُملـــة منهـــا إضافة إلى نشره بعضها حرفيّاً في ثنايا كتابه.

بعبارة أخرى فقد مزج المُؤلّف بين الروايات الشّفهية التي حصل عليها من أفواه الضُباط والأعيان الشّوام المُقرَّبين مـــن إبـــراهيم باشـــا

[1] انظر ص ٨٣ .

والذين رافقوه في حملاته سواء في الشّام أو الأناضُول وبين تلك المعلُومات التي استخلصها من الوثائق.

وعلى الرّغم من أنّ المؤلف قد صنّف كتابه هذا خصّيصاً -بل وأهداه أيضاً- إلى أحد أحفاد مُحمّد علي على سبيل التزلُّف والمُجاملة؛ أي أنّه لا يخلُو من شُبهة التملُّق فإنّه بالمُقابل لا يخلُو من معلّومات قيّمة، خاصة تلك التي تتعلّق بإبراهيم باشا وفتُوحاته الظّافرة في الشّام والأناضُول، وكذا أخبار تمرُّد وثورة درُوز لبنان وسُكّان الجبل إبّان حُكم إبراهيم للشّام في عهد والده مُحمّد علي باشا.

كما يعدُّ أيضاً من الأهميّة بمكان للدّارسين المُهتمّين بتطوُّر الجيش المصريّ في عصر مُحمّد علي، وكذا تطور التكتيكات العسكريّة في الشّرق الأوسط خلال القرن التّاسع عشر، بالإضافة إلى أنّه يُلقي ضوءً لا بأس به على أوضاع الشّام خلال عصر مُحمّد علي، وخصُوصاً تلك المُتعلّقة بالحياة الثّقافية.

وصْف المخطُوط

اعتمدت في نشرتي لهذا الكتاب على نُسخة خطيّة فريدة بخط المُؤلف ذاته وممهُورة بختمه، محفُوظة بخزانة مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة تحمل أرقام ٥٣١ خاص، ٨٣١٤ عمُومي/تاريخ، فرغ منها مُؤلّفها عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، واعتزم إهدائها إلى مُصطفى فاضل بن إبراهيم باشا كما تقدّم القول، ومن غير المعرُوف على وجه الدّقة ما إذا كان المُؤلّف قد أهداها بالفعل إلى مُصطفى فاضل أم لا، وغالباً فالمؤلف لم يفعل لسببٍ ما، فالمخطُوطة ليس عليها ما يُفيد اقتناء مُصطفى فاضل

لها، كذلك فإن الربط بين استقرارها في خزانة الجامع الأزهر بمصر، وعدم عودة مصطفى فاضل إلى مصر بعد استقراره في الأستانة يدل أن تلك النُسخة ظلّت بحوزة المؤلّف بعد أن عاد من بيروت إلى القاهرة إلى أن آلت بطريقة ما إلى خزانة الجامع الأزهر.

وعلى أي الأحوال فتلك المخطُوطة بحالة مُمتازة كُتبت بعناية وبتأنّقٍ واضح بالمِداد الأسْود بخط نسخ مُعتاد، وأبعادها ٢٠×١٢سم وتشغل المساحة المكتُوبة منها مساحة ١٦,٥×١٠,٥سم وعدد أوراقها ١٢٩ ورقة، وعدد مُسطراتها ١٢ سطراً في الصفحة الواحدة، جاء على غلافها :-

"كتاب المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية تأليف الفقير إليه تعالى اسكندر بن يعقوب ابكاريوس عُفي عنه"

وفي آخرها :-

" قد تم نسخ هذا الكتاب بقلم مؤلفه الفقير إليه اسكندر بن يعقوب ابكاريوس عُفي عنه" .

ويشغل وجه الورقة السّادسة من المخطُوط بورتريه لمُحمَّد علي باشا، ومن الواضح أن المُؤلف قد أعاد النّظر في كتابه فهناك مواضع شطبٍ واستدراك متعدّدة في الكتاب، وأخطاء المُؤلف قليلة بشكل عَام، ولا شيء يسترعي الانتِباه سوى بعض الاختِلافات الطّفيفة في طُرق رسْم بعض الكلمات التي درج كُتّاب القرن التّاسع عشر على رسمها بشكل يُخالف ما اعتدناه الآن، كما أنّ المُؤلف وإنْ كان قد اهتم بضبط

الكلمات بالشّكل إلا أنّه لم يُظهر تلك العناية نفسها فيما يتعلّق بالهمزات، وإن كان إغفاله بعضها حرصاً منه على انتظام السّجع في عباراته.

طَريقتي في إخْرَاج النَّص

نظراً لأنّ النُّسخَة التي اعتَمدت عليها في نشري لهذا الكتاب هي نسخة وحيدة كُتبت بخطّ المُؤلف نفسه فقد آثرت عدم التّدخُل في النّص إلا في أضيَق الحدُود؛ ولأغراضٍ تتعلّق بانتظام السّياق فحسب، وعليه فقد تركتُ النّصّ على حَاله ليكون شَاهداً على ثقافة المُؤلّف من جهة، وليقف الباحثُون بجلاء على طُرق وأسَاليب كُتّاب القرن التّاسع عشر في الكتابة، لذا فقد اقتَصر عملي في هذا الصّدد على التّنويه بمواضع الأخْطاء وتصويبها في الحَواشي كُلّ في موْضعه.

كما عرّفت بالأعْلام والمواضع والاصْطِلاحات الواردة بالنّص، وقابلت الحَوادث التّاريخية الواردة به على المَصادر المُعاصرة، كما صَنَعت له ستة فهارس خصّصت الأول منها لقوافي الأشْعار الواردة بالنّص، أما الثّاني فقد جعلته لأسْماء الكُتب التي سمّاها المُؤلف في كتابه، أما الثّالث فقد خصّصتهُ للأعْلام، والرّابع للأُمَم والقبائل والجَماعات والطّوائف، أمّا الخامس فللأمَاكن والبِقاع، وجعلت السّادس للاصْطلاحات الفنيّة وألفاظ الحَضارة.

*** *** ***

وفي الختام لا يسعني سوى التقدّم بأسنى آيات الشُكر والعرفان والتّقدير لهؤلاء الذين كان لهم فضل في إنْجاز هذا العمل، أخصُ بالذّكر

منهم زوجتي الحبيبة التي بذلت معي جُهداً كبيــراً وأنفقــت الــسَّاعات الطُّوال في مقابلة النَّص الذي قمت بانتساخه على الأصل.

ولا أعرف حقّاً كيف أشكُر أُستاذي الجليل الدكتور عُبَادة كُحيلــة الذي تابع هذا العمل خطوة بخطوة، وتحمَّس لعرضه فور انتهائي منــه على الراحل الكبير الأستاذ الدكتور رءوف عباس، كما لم يبخــل علــيَّ بالنُّصح والإرشاد، ولولاه ربما لم يكن قد قدر لهذا العمل أن يرى النور، فجزاه الله عنِّي خير الجزاء.

كما أدين بالشكر لوالدي وأُستاذي وصَــديقي الأســتاذ الــدكتور محمُود عَرفة مَحمُود والذي فتح لي أبْواب مكتبتهُ الخَاصَّة أنْهَــل منهــا حيث شِئت، فضلاً عن ذلك التَّشجيع والدَّعم المعْنوي الذي لقيتهُ منه ومن أُستاذتي الفاضلة الدكتورة مُنى حسن محمُود أثْنَاء إنْجَازي لهذه النَّشرة.

ويظلُّ الدكتور أيْمَن فُؤاد سيِّد -بمدرسته المُتميِّزة في فنّ تحقيق التُّراث العَربي ونشْره- أُستَاذي وقُــدْوَتي ومَثلــي الأعْلــى فــي هــذا المِضْمار، وعلى طَريقته المُتميِّزة في إخراج النُّصُوص تحسَّــست أثــر خُطاه، وبذلتُ وسْعي في السَّير على مِنْهاجه في إخْراجي لهــذا الــنَّص، كما أفدتُ كثيراً بمُلاحظاته في تلافي العَديد من الأخْطَاء والهنَّات.

الشكر كل الشكر أيضاً للأستاذ الدكتور أحمد زايد عميــد كليــة الآداب بجامعة القاهرة وكذلك للأستاذة الدكتورة زَيْنَب أبو سِــنَّة مــدير

مركز الدّراسات الأرْمِينيَّة، على هذه الحَفاوة التي تلقوا بها هذا العمـــل، وعلى هذا الإخراج الفني الرّائع للكتاب.

أمَّا أُستَاذي المغفُور له العَالم الجليل، والمُؤرّخ الكَبير الـــدُّكتور رءُوف عبَّاس فقد طوّق عُنقي بجميله أوّلاً في قبول مُراجعة هذه النَّشرة، وشرّفني ثانياً بإجازته للعَمل وإطْرَائه وثنائه على الجهد الذي بذلته فيـــه، وليس يُخفِّف عندي من مَرارَةِ فقده إلا عزائي بتلك السُّطور التي كتبهـــا لي كمقدمة لهذا العمل، والتي رُبَّما كانت آخر ما خطّــه قلمـــه قبـــل أن يدهمه المرض اللعين.

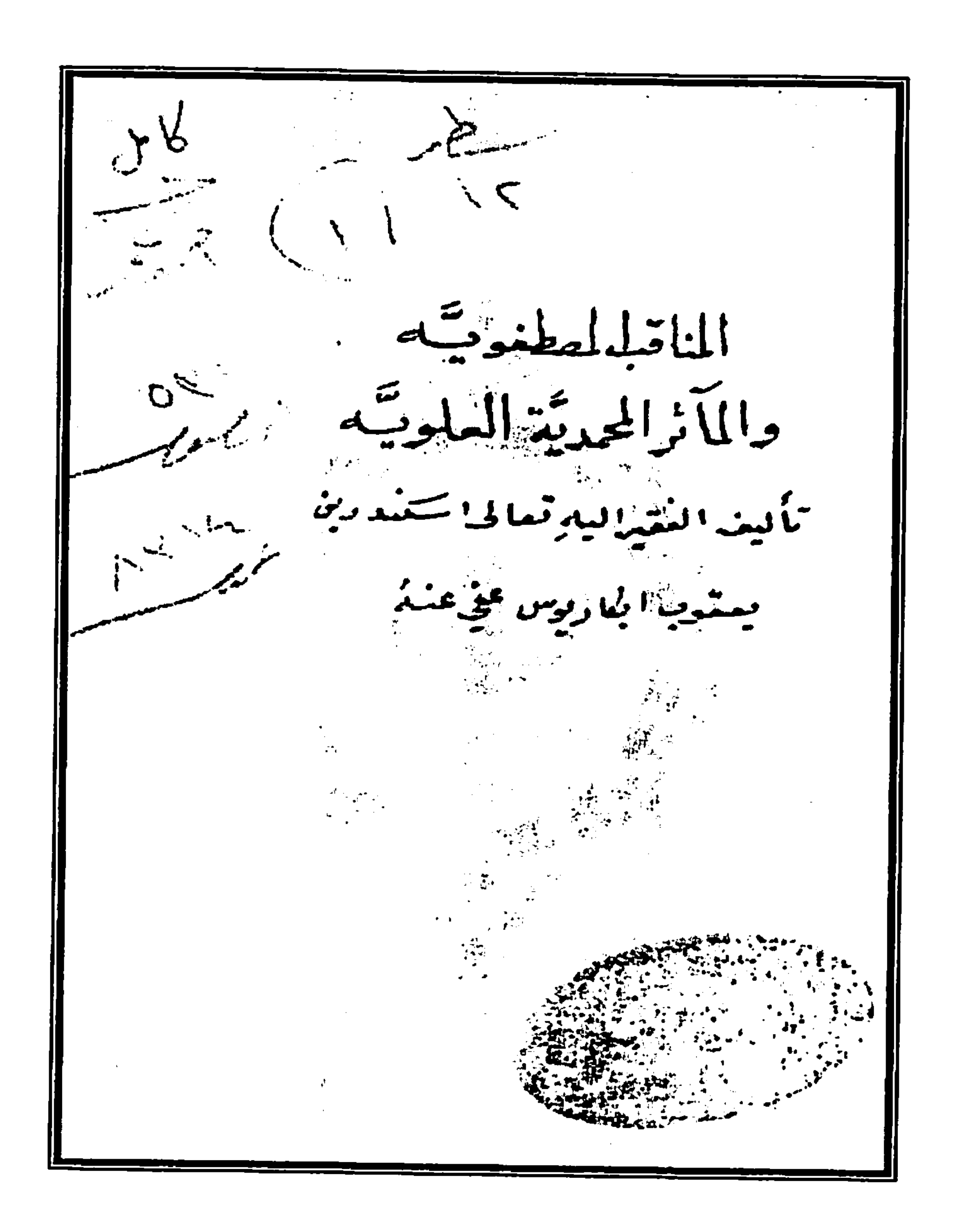
وإذا كان ذلك العالم الجليل قد رأى أن اسْكَنْدر أبْكـــاريُوس قـــد نَال جائزته على يدي بنشري لهذا العَمل بعد أكْثر من قرن وربع القرن، فقد نلت جائزتي على جَهْدي في هذا العَمل على يديه، وكفَاني إطْـــراؤه لي وثناؤه عليّ شرفاً.

احمد العدوي

المَحرم في ٢٠ من رجَب الفرد ١٤٣٠ هجرية

الموافق ١٣ من يوليو ٢٠٠٩ ميلادية

اللوحات



اللوحة الأولى

غلاف المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الذي احيى ذكر الاولين
بتتمة المؤرخين، بجعل حوادثهم تذكاراً للمتأخرين
على مدى الايام والسنين، اما بعد فيقول العبد
الفقير، الى عفو ربه القدير، اسكندر بن
يعقوب ابكاريوس المعروف بالعجز والتقصير انني
[illegible] هذا الكتاب في حوادث العرب المتعلقة
بالدولة [illegible] [illegible]، ذات المآثر السنية
والصفات العاطرة الزكية، وجمعت فيه محاسن
اخبارها، ولطائف نوادر آثارها، مما [illegible]
[illegible]، وغفلت عنه بطون الصحف والاوراق
واضفت اليه وقائع المرحوم المبرور، صاحب الحسب
الزاهر

المشهور والفضل المأثور، الشهم الهمام والبطل
الباسل المقدام، ابراهيم باشا [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
والحلم وعدالة الاحكام، [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] القارئ والسامع، ويأخذ بمجامع القلوب
والمسامع، [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] سنة الف ومايتين [illegible] هجرية
الموافقة لسنة الف [illegible] [illegible] مسيحية

اللوحة الثانية

ظهر الورقة الأولى ووجه الثانية من المخطوط



اللوحة الثالثة

ظهر الورقة الخامسة ووجه السادسة من المخطوط

- ١٢٧ -

معدن الجود ومصدر الفضائل . ومخزن الفواضل والفوائد . والله المسؤول في حفظ دولته الزاهرة . وسطوته القاهرة . بيده القادسة . ورعايته على توالي الليالي والأيام . بعينه التي لا تغفل ولا تنام

قد تم نسخ هذا الكتاب بقلم مؤلفه الفقير اليه تعالى اسكندر بن يعقوب ابكاريوس عفي عنه

اللوحة الرابعة

الورقة الأخيرة من المخطوط

المَناقب المُصْطَفويَّة

والمآثِر المُحمَّديَّة العَلويَّة

تأليف

الفقير إليه تعالى

اسكندر بن يعقوب أبكاريوس

عُفي عنه

/١ظ بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين، الذي أحيَى[1] ذكر الأولين بقلم المؤرِّخين، وجعل حوادثهم تذكاراً للمُتأخرين، على مدى الأيَّام والسِّنين.

أمَّا بعد فيقُول العبد الفقير إلى عفو ربه القدير اسكَندر بن يعقُوب أبكاريُوس - المُعترف بالعجز والتُّقصير - إنَّني قد وضعت هذا الكتاب في الحوادث المِصرية المُتعلِّقة بالدولة المُحمديَّة العلوية - ذات المآثر السُّنية، والصفات العاطرة الزكيّة - وجمعتُ فيه من محاسن أخبارها، ولطائفها ونوادر آثارها، كل ما طاب وراق، وتحلَّت بمحاسنه بطُون الصُّحف والأوراق، وأضفت إليه وقائع المرحوم المبرُور، صاحب الصيت /٢و المشهُور، والفضل المأثُور، الشَّهم الهُمام، والليث الباسل الضرغام، إبراهيم باشا فارس الصدام، وغُرَّة الليالي والأيام، وسائر فتُوحاته في بر التُّرك وقُطر الشام، وما رأت الناس منه من البطش والإقدام، والحلم وعدالة الأحكام، والحكمة والسياسة، والنباهة والفراسة، إلى غير ذلك مما يستحق الاعتبار، وتتزيَّن به صدُور الأسفار.

فجاء -بحوله تعالى- كتاباً نفيساً جليلاً، وتاريخاً مُفيداً جميلاً يلتذ بمُطالعته القَارئ والسَّامع، ويأخذ بمجامع القلُوب والمسامع، وكان ترتيبي له في مدينة بيرُوت المحميَّة، سنة ألف ومائتين وتسعين هجريَّة، المُوافقة لسنة ألف وثمانماية وثلاث[2] وسبعين مسيحيّة.

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) كلمة ثلاث جاءت استدراكاً من المُؤلِّف أعلى السطر.

/٢ظ وبعد أن تمَّ جمعهُ وانتظم، وصار يليقُ أن يُهدى لكبار الملوك وعظماء الأمم، سميته المناقب المُصطفويّة، والمآثر المُحمدية العلويّة، وقدمته خدمة إلى أعتاب فخر الوزراء الكرام، وعُمدة الكُبراء الفخام، صاحبُ الفضائل والمكارم، والهمّة التي هي أمضى من الصّارم، الوارث رُتب المجد كابراً عن كابر، والنّاهض برفيع نسبه لأعلى ذُرى النُجوم الزواهر، حضرة أفندينا المُعظّم مُصْطَفى فاضل باشا المُفخم.

شعر :-

هو الهُمام الذي باهى الأنام ومـ	ـن فاق الكِرام فلم يلحقهُ مُشتركُ
يُدعى وزيراً لجهلٍ بالصّوابِ فمـ	ـن أصاب قال -لعُمري- أنّهُ ملكُ

كيف لا وهو نادرة الزمان، وكعبةُ المجد والإحسان /٣و المحمُود بكل شَفةٍ ولسان، والجوهرة الثمينة في هذا الأوان، الذي اتّصف بجميل الصّفات، وشاعت مكارمهُ في جميع الجهات، وأشرقت شمُوس معَاليه، وابتهجت الأقطار بنور تجلّيه فكان كما قُلت فيه:-

يا مُصطفى المِفْضَال يا من جُوده	عـمَّ المَلا وبذا الخلايق تشهدُ
أنت الذي منهُ الفضائل تُجتنى	والفخر والشّرف العَلي والسُودد[1]
فُقت الوَرى هِمَماً ومَجْداً باذخاً	لا بِدع إذ أنت الهُمام المُفرد
إن قُلت كِسرى كُنت أعلى هِمّة	أو قُلت حاتمٌ أنت منه أجْود!

---

(١) كذا بالأصل : ولعله أراد "السؤدد".

فيك المَحامد واللطائف والتُّقى — والحِلمُ والعزم الذي لا يُجحد

لم تجتمع فيك المَحاسن إنّما — أنت المَحاسن وهي فيك تُعدَّد

يتلو عليك الحَمد في صَلواته — من قال بسم الله ثم يردِّد

صدق المُخبر عن صفاتك قَومه — حتى أطال فقال إنّك أوحد

/٣٣ظ شهدت لك الأنام أنك ربُّها — والله يشهد أنها لك أعبدُ

ما أكثر الجُهلا! لكن شرَّهم من — كان عن أبواب فضلك يشردُ

وقلت أيضاً في حضرته عند تَقدمة الكتاب إلى أعتاب دولته :-

مولاي يا من به الأسفَار قد لَهجت — وغرَّدت ألسُن الأقلام تغريدا

إليك سِفراً لقد أودعته شَرفاً — لذكر آثارك الغرَّاء تخليدا

زيَّنتهُ باسمك العالي السَّني فأتى — يَتيهُ حُسناً كَدُرٍّ جاء منضُودا

هَبْهُ القبُول ودُم بالعز مُفتَخِراً — على الدوام عَظيم الفَضل مقصُوداً

قلت :- وكان السَّببُ في وضع هذا الكتاب وتقديمه إلى حضرة الوزير المُشار إليه، من جعل الله مقاليد السيادة والسعادة طوع يديه، هو أنني لما كنت بالأستانة العليّة، في أواسط [عام][1] ١٢٩٠هجرية /٣٤و تشرَّفت بلثم أعتابِ دولته، وتطفَّلت على عالي حضرته بتقديم نُسخة من كتابي "روضة الأدب في طبقات شُعراء العرب"، مع نسخة من كتاب "نوادر الزَّمان في وقائِع جبل لبنان" فوقعتا عنده في حيِّز القبُول وأنعم

5

[1] زيادة اقتضاها السياق.

عليّ بأحسنِ مأمول، ولمّا رجعت إلى الأوطان، وتذكرت ما أولاني به من جزيل الإحسان - الذي يعجز عن وصفه اللسان - بادرت حالاً بهذا التأليف، وسرت بنفسي لأُقدّمه إلى جنابه الشريف، مُلتمساً من حضرته أن يَشملني - وإيّاه - بالنظر السّامي المنيف لأنّني من جُملة عبيده وخُدّامه، المُنتمين إلى سُدّة مقامه، لعمري إنّه بحر الفضائل، وكعبة العوارف والفواضل، وفخر الأواخر والأوائل. ٥

/ ٤٤ شعر :-

هذا الهُمام الذي شَاعت مكارمهُ | فلُذ به فهُو ربُّ المجد والكرم
هذا الذي جرت الأقْدار حين جَرت | أقلامُه في فصُول الحُكْمِ والحِكَمِ
هذا ابن من صيتهُ قد طار مُنتشراً في | الشّرق والغَرب بين العَرب والعَجم
يَداه ما خُلقت إلا لبذل ندا | للسّائلين، وفخر السّيفُ والقلم
زهت بدولته الأيّام وابتهجَت | به المنازل فاستغنت عن الدّيم
تاجُ الزّمان فريد العصر أفضل | من أمّت حماه مَطايا العَزم من أُمم

وبالجُملة فإنّه فريد العصر، وتاج رأس هذا الدهر، أعماله محمُودة، ومآثره ظاهرة مشهُودة، لا يُنكرها إنسان، ولا يقوم بحق شُكرها لسان، ولا تحتاج إلى دليل ولا برهان، وهو مع هذه الأوصاف ١٠ الحميدة، والمناقب الجليلة الفريدة، في غاية /٤٤ ب الرّقة واللُطف، جامعاً بين البأس والظُرف ممدوحاً محمُوداً، جميل الخلق مسعوداً، ذا حزم وفراسة، ومعرفة بأحوال السياسة.

وفضلاً عن بصيرته في الأمور السياسية، له بصيرة عظيمة في علم العربيّة، واللُغات الإفرنجية، سالكاً سيرة الخُلفاء الفاضلين، مُتَمسكا بتقوى الله رب العالمين، يحب العُلماء والشُعراء، ويُكرم الأُدباء والفُضلاء، ويَمُدُّهم بهباته الوافرة، وصلاته الجَزيلة المُتكاثرة، لا يَحْرِم من قصده، واستغاثَ به واعتمده. ٥

هذا وإنني مُعترفٌ بالقصُور عن تقدمة الثُّناء على أخلاقه الكريمة، واستيفاء الشُكر على مكارمه العَميمة، والله المسؤول أن /٥ظ يُديم لنا دولته تاجاً على مَفْرِق الزّمان، ويحفظ ذاته العليَّة مصدراً للخير والإحسَان، ومورداً للشُكر والثنا على توالي الأيَّام، ما أشرقت الشمس وناح الحمام، والدعاء ختام. ١٠



محمد علي باشا خديوي مصر

/٧ظ ذكر ولاية مُحمَّد علي باشا العظيم الشان، تغمَّده الله بالرَّحمة والرِّضوان وسَقى ثرى رمسه غيث النِّعم[١] من أعلَى غرف الجنان

وكانت الدِّيار المِصرية في زمن المماليك البَحريَّة -وهي الحكومة الكُولمَانيَّة- عديمة الانْتظام من جَوْرِ الولاة والحكَّام، الذين استولوا على البلاد وأضرُّوا بالعباد، فاندثرت معارف عُلومها، واندَرسَت معالم رسُومها من كثرة المظالم والضرَّائب والمغَارم التي لا يستوفيها قلم كاتب ولا يُحصيها رقم حاسب. ٥

ومازالت في انْحِطاط واختلال إلى أن خرجت من تلك /٧ظ الحال، وبلغت إلى أعلى درجةٍ من التمدُّن والكمال في أيام حضرة الخديوي الأعْظَم والداوري الأكْرَم الأفْخَم، أنمُوذَج الفخر والجَاه المرحُوم مُحمَّد علي باشا طاب ثراه الذي لم يوجد [في][٢] الزمان مثله، ولم يُحاك أحد فضله في الحِلم والحزم، وشدَّة البأس والعَزم. ١٠

شعر :-

عزيزٌ سَمَا في مجده وصِفاته	له فوقَ هام الفَرقدين منازلُ
به تفخر الأيَّام والمَجد والعُلى	وكل مديحٍ لم يكُن فيه باطلُ

---

[١] قوله: "غيث النعم" استدراك أثبته المؤلف أعلى السطر.

[٢] زيادة اقتضاها السياق.

وكان مولد هذا البطل الهُمام، والليث الباسل الضرغام، بمدينة قَوالة[1] من بلاد الأرنَاؤُط[2] – وهي مدينة شهيرة في تلك الحُدود والخطُوط – سنة ألف ومائة وثلاث وثَمانين هجريَّة، المُوافِقة /٨ لسنة ألف وسبعمائة وتسع وستِّين مسيحية. ومات أبُوه[3] وهو صغير فتوكَّل به

---

(١) قوالة "Kavalla" (أو قولة كما ترسم في بعض الأحيان) مدينة شاطئية كبيرة تقع على الشاطئ الشمالي لبحر إيجة قبالة مدية سالونيك Salonica اليونانية.

(٢) الأرناؤط : سكان إيالة أرناؤطلق، وتضم بعض مناطق غربي اليونان وألبانيا الآن، وهي الولاية التي كانت تمتد على الشاطئ الشرقي للبحر الادرياتي بين خطي عرض ٣٩ و٤٣ شمالا، والأرناؤط أو الألبان شعب من أصول آرية، اعتنق الإسلام إبان خضوع ألبانيا للعثمانيين، وأصل لفظة أرناؤط Arnaut يرجع إلى بلاد آربري التي تمد على الشاطئ من كورفو الى آولونيه وسُكانها الذين عرفوا باسم الأربن Arben وتحرفت عند الترك إلى الارناؤط، انظر :- ك. سوسهايم، دائرة المعارف الاسلامية، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، القاهرة ١٩٦٩، ٣ : ١٣٢، مادة أرناؤط.

(٣) لم يُحقق بعد أصل ونسب محمد علي باشا في بحث مستقل، كذلك فإن الفترة التي قضاها من عُمره في مسقط رأسه بقوالة قبل قدومه إلى مصر صُحبة جيش الصدر الأعظم لإجلاء الفرنسيين عنها غامضة وقليلة التفاصيل، وغالباً فإن المعلومات الضئيلة التي توفرت لنا عن أصله وحياته ما قبل قدومه إلى مصر مصدرها هو مرويات مُحمد علي باشا نفسه كلما سُئل عن نفسه أو عَنَّ له الحديث عن صباه وشبابه أمام أولاده وحاشيته ورجال بلاطه، فالباشا أكد على أنه ولد عام ١٧٦٩ بقوالة، وأن والده "إبراهيم أغا" – الذي كان يشغل منصب رئيس خفر الطرق في قوالة – ما لبث أن توفي قبيل ولادته ثم تلته والدته بعد ذلك وكفله عمه "طوسون أغا" الذي ما لبث أن توفي أيضاً فلم يبق له أحد من ذويه ليكفله حتى قبل شوربجي "قولة" – أي حاكمها – إسماعيل أغا كفالته والإنفاق عليه، والذي ما لبث أن اكتشف ما حبته الطبيعة لهذا الشاب من همة وذكاء فطري فأوكل إليه عدة مهام في بلاطه، وظل يرتقي في المناصب حتى وصل إلى أمير آلاي فرقة من الجند، فاشترك في تطهير بحر مرمرة وجزر الأرخبيل من نشاط القراصنة، وما لبث شوربجي قوالة أن زوجه من إحدى قريباته من ذوات الثروة وكان اسمها أمينة هانم التي كانت إما مطلقة-

أحد الذّوات المَشاهير، وكان بينه وبين أبيه محبّة، ومودّة قديمة وصُحبة، فاعتنى به وربّاه، وأحسن إليه ودَاراه، وكان عندهُ كالولد

=أو أرملة وهو الغالب، وليس هناك ما يدعو للقطع بشأن كونها مطلقة كما ذهب باول كالة، انظر :-
دائرة المعارف الاسلامية، مادة إبراهيم باشا، ١ : ١٥٧.
وغالباً فإن هذا الزواج قد تم عام ١٨٨٧، ثم انضم محمد علي على كره وتمنّع شديد وبأمر صارم من الشوربجي إلى ابنه في قيادة الثلاثمائة رجل الذين كان على شوربجي المدينة جمعهم وتجنيدهم لينضموا إلى جيش الصدر الأعظم السائر إلى مصر لقتال الفرنسيين، انظر :- إلياس الأيوبي : محمد علي سيرته وأعماله، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩٢٣، ص ص ٥ - ١٧.
وهذه المعلومات التي قدمها الباشا عن نفسه هي في الأغلب الأعم صحيحة، فهي ترتبط بأسماء أشخاص حقيقيين كان لهم الفضل على محمد علي وأثروا فيه في فترة شبابه الأولى حتى أن محمد علي حاول استقدامهم فيما بعد إلى مصر ليعيشوا في كنفه كشخصية المسيو ليون وهو ديبلوماسي فرنسي كان يعيش في قوالة وتولى تعليم الشاب محمد علي وتثقيفه واعتمد عليه اعتماداً كاملاً في مشروعاته التجارية - وغالباً كان تأثر الباشا بمسيو ليون هو سبب ميله الواضح وثقته بالفرنسيين واعتماده عليهم أكثر من غيرهم في مشروعه الإصلاحي - لكنه توفي غداة سعي الباشا لاستقدامه إلى مصر فأرسل محمد علي خطاب تعزية مؤثر مصحوباً بعطاء لا بأس به إلى شقيقته التي كانت تقيم بمرسيليا.
لكن القصة التي قدمها محمد علي عن نفسه (أو قُدّمت عنه) لا تخلو بالمقابل من طابع مسرحي واضح، من ذلك قصة الحلم الذي رأته والدته غداة ولادته بأنها شاهدته يشرب من ماء النيل فلا يرتوي والذي فُسِّر لها بأنه يملك مصر ولا يكتفي بها، كذلك فالتاريخ الذي حدده الباشا لميلاده غالباً مُفتعل ليتطابق مع تواريخ ميلاد كل من الإمبراطور نابليون والسير ولنجتون ولفيف أيضاً من أبرز الشخصيات التاريخية التي ولدت في هذا العام تحديداً، كذا فإن قصة نشأته الأولى قد صيغت بمهارة بحيث تبدو قريبة الشبه إلى حد بعيد بقصة ميلاد ونشأة النبي محمد ﷺ، إضافة إلى أن تمنعه أمام شوربجي قولة عن المسير مع الصدر الأعظم إلى مصر يذكر بموقف صلاح الدين حين أُجبر على مرافقة عمه في السير إلى مصر.

المحبُوب، وأعزّ من يُوسف عند يعقُوب، فنشأ شاباً نجيباً حازماً أديباً، شُجاعاً مهيباً، لا يُقدّر العواقب ولا يخشى حلُول النوائب، وكان يُصاحب الأبطال، ويُلقي [بـ][1] نفسه في الأخطار والأهوال، أملاً بالارتقاء وبلوغ الآمال، ولقد أجاد من قال :-

٥

بقدر الكدّ تُكتسب المَعالي ومن طلبَ العُلا سَهِرَ الليالي[2]

/٨ وما زال على تلك الحال، ونَجمهُ في سعُود وإقبال ؛ حتى تغلّبت الفرنساوية على الديار المصرية سنة ١٧٩٨ مسيحية في زمن حضرة ساكن الجنان السُّلطان سَليم خَان[3]، فلما ملكُوا زمامها واستقلُّوا بتدبير أحكامها ؛ أرسل السُّلطان سليم الأوامر والمراسيم إلى وُلاة الأقاليم يحثُّهم بالنُّهوض والقيام، والمبادرة لقتال الأخْصام،

١٠

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

[2] البيت يُنسب للإمام الشافعي.

[3] السلطان سليم الثالث (١٢٠٣ : ١٢١٣هـ / ١٧٨٩ : ١٧٩٨م) وهو ابن السلطان مصطفى الثالث تولى السلطنة عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م وكان عمره حينئذ يناهز الثامنة والعشرين، قام بسلسلة كبرى من الإصلاحات لا سيما على الصعيد العسكري لكن انقلاب الإنكشارية عليه أجبره على التنازل عن السلطنة لخلفه مصطفى الرابع، ثم ما لبث أن توفي في سجنه عام ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م، انظر :-

يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دمشق ١٩٨٥، ص ص ١٣٩ – ١٤١.

ولمزيد من التفاصيل عن إصلاحاته انظر الدراسة الواسعة التي قام بها ستانفورد شو Stanford Jay Shaw بعنوان :-

Btween old and new, The Ottoman empire under Sultan Selim III, Harvard university press, 1971. ; Erik J. Zürcher: Turkey, A modern history, third edition, London 2004, PP 21 – 29.

ونُودي بالنفير العام في بلاد الإسلام ؛ فهاجت الشُّبان في كل جهة ومكان، واجتمع في بلاد الشام لهذا القصد والمَرام عالم لا يُحصى ولا يُرام، غيرة لنصرة الدين وطرد عَساكر الفرنساويين، وقصدوا مصر القاهرة امتثالا للأوامر الصادرة.

٥ /٩و وكانت الدولة الإنكليزية قد اتحدت مع الدولة العُثمانية لمحاربة الجيوش الفرنساوية، وإخراجهم من الديار المصرية بالقوَّة الجبرية، وأرسلت عمارة بحرية إلى بُوغاز الإسكندرية مشحُونةً بالعساكر والمُهمَّات الحربيّة، فكتب حضرة السُّلطان إلى ولاة أساكل عربستان يُعلمهم بذلك الاتحاد، ويحرضهم على الحَرب والجهاد، وأنَّه ١٠ مهما مر عليهم من قباطين الإنكليز الرَّاسين بالمراكب على الثُّغور والبَواغيز يقدّمون لهم الإكرام، ومزيد الوقار والاحترام، وهذه صورة اكتتابه[1] حرفاً بحرف، مُؤرَّخة في ٩ جمادى الآخرة سنة ٢١٣ بعد الألف :-

" إنَّهُ لا يَخفَى عليكم أن الجيُوش الفرنساويّة قد هجمُوا /٩ظ ١٥ على الديار المِصرية، وافتتحوا مصر القاهرة وما يليها، واستولوا على يَافا وغزَّة والرَّملة ونواحيها، ومُرادهم أن يُبيدوا أمَّة الإسلام ويتغلبوا على المَملكة بالتمام، والآن حضرة المُحب الصادق، والخِلُّ الوفي المُوافق، جلالة أخينا المُعظَّم سلطان الإنكليز المُفخم، المُتَّحد معنا بإخلاص الطَّوية ٢٠ على قتال الطائفة الفرنساوية - لعزيز مكارمه، ووفُور

(1) كذا بالأصل، ولعله أراد "كتابه".

مراحِمه – قد أنعم وجاد، وقضى حقّ الوداد، وسَيَّر من لدُن سدته المُلوكية عمارة إنكليزية مع العمارة العُثمانية، تحت لواء افتخار الأمراء الكرام في الطائفة المسيحية، وعظيم الكبراء الفخام في الأمّة العيسوية، جناب محبنا المحترم السّار[1] /١٠و وليم سدني سميث الأكرم، بالتفويض الخاقاني، والإمداد السلطاني ليُدبِّر أمور تلك الديار بحُسن السياسة والاختبار.

فليعلم كل منكُم تفويض محبته من لدُنَّا في سائر الأقطار، ومهما مرّ عليكم من مراكبه وأتباعه فقدِّمُوا لهم مزيد الاعْتِبار، والإكْرَام والوقار، وليكن معلوم الخاص والعام إخلاص صَداقته مع الإسْلام والإعانة لهم منه على حرب الفرنساويّة الأخصَام، اعلمُوا ذلك واعتمدوه غاية الاعْتِماد والسّلام".

وكان مُحمد علي – صاحب الجأشِ القوي – قد نهض نهضة الأسد، واتحد مع شُجعان ذلك البلد، وانضمُّوا مع ذلك الجيشِ العَرَمْرَم، وساروا /١٠ظ إلى مصر بمعيَّة الصدر الأعظم[2]، فحارب

---

[1] السّار وترسم أيضا "سَر" وتعني الرأس أو القائد في التركية، أثير الدين الاندلسي: الإدراك للسان الأتراك، نشرة جعفر أوغلي أغا، استانبول ١٩٣٠، ص ٥٧.

[2] أوكل السلطان سليم للصدر الأعظم يوسف باشا ضيا مهمة قيادة الجيوش العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر، انظر :-
الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨، ٣: ١٤٠.

في تلك الوقائع، واشتهر بالشّجاعة في هاتيك المَعامع وامتـاز علـى الأقران، وانتظم في سلك الفُرسان، وفي مُدَّة قصيرة وأيـام يـسيرة انتشر ذكره وشاع أمره، وصار ذا كلمة نافذة عند الأعيان والجَهابذة، وأكابر الأشراف والأساتذة، واستمرت الحـروب بـين الفرنـساوية
٥ والدولة الإنكليزية والعثمانية مُدة مديدة وجرى[1] بينهم وقائع عديـدة إلى أن آل الأمر إلى خرُوج الفرنساويين من مصر تحـت شـروطٍ معلُومة وروابط مفهُومة.

وكان جنابُ الصّدر الأعظم قبل رحيله من مصر قـد جـاد وأنعم على محمد باشا أبي مَرق[2] – وكان /١١و من الشُطّار الحُـذق
١٠ – بولاية الديار المصريَّة وأمره أن يرفق بالرعية، ويجعـل مركـزه في القلعة السُّلطانية، حسب الأيام السَّالفة بدون مناقضة ولا مُخالفة.

وما زال مُحمَّد علي يتقدَّم في المراتب، ويرتقي في الوظائف والمناصب، حتى صار في رتبةٍ عليَّة، ومنزلةٍ رفيعة سنيّة، وكان قد صمَّم العزم، وأخذ بالسداد والحزم على أن يمد باعه للقـبض علـى
١٥ زمام المُلك، وينظم الأحكَام على أحسَن سلك، فأخذ ينفق الأموال على الفُرسان والأبطال، ويستجلب خواطر النَّاس أهل الـشّوكة والبَـاس، ويستميلهم إليه باللطف والإيناس، حتى اسـتعبدهم بطيـب الخُلـق، وحسن السَّريرة واللين والرفق، فكـانوا يحبونـه /١١ظ ويكرمونـه،

---

[1] كذا بالأصل، والصواب "وجرت".

[2] محمد باشا الشهير بأبي مرق والي غزة والقدس والذي ولاه الـسلطان علـى مصر في أعقاب جلاء الفرنسيين عن مصر، ثم سرعان ما عزله وولى محمد باشا خسرو بدلا منه، عجائب الآثار ٣ : ١١٤.

ويميلون إليه ويحترمونـــه، ويتمنـــون لـــه النجـــاح وبلـــوغ الأرب، والارتقاء إلى أعلى الرتب.

وكانت شوكة مماليك الغُز قد انكسرت بعـد ذلـك الاقتـدار والعز ؛ لأنّهم كانوا في سالف العصر قبل دخـول الفرنـساويّة إلـى مصر أصحاب النهي والأمـر، وبأيـديهم مقاليـد الأمُـور ونظـام الجمهُور، ومحافظة الحدُود والثغور.

وكانت الناس تهابهم مهابةً عظيمة، نظرا لـشوكتهم القويـة وسطوتهم الجسيمة، لا سيما في زمن أميرهم الشهير المدعو علي بك الكبير[1] ؛ فإنه كان قد أظهر العـصيان، وخلـع طاعـة الـسُّلطان وضرب باسمه السِّكة، ونفى وزير الدولة إلى مكّـة، وتـسلم زمـام

[1] علي بك الكبير (١٧٢٨ : ١٧٧٠) أحد المماليك الجلبان مـن ذوي الأصـل الأبخازي، جلب إلى مصر وهو صبي وفي عام ١٧٤٣ التحق بخدمة الأميـر إبراهيم كتخدا، ثم ظل يرتقي بالمناصب حتى أصبح كبير المماليك بمـصر، وفي عام ١٧٦٠ طرد الوالي العثماني وتلقب بشيخ البلد واستطاع الاسـتقلال بمصر لبعض الوقت، وعزز موقفه بتحالفه مع الظاهر عمر بالشام مـستفيداً في الوقت نفسه من الدعم الروسي.

Arther Goldschmidt : Biographical dictionary of modern Egypt, Pennsylvania, 2000, P 18.

ثم ما لبث أن أجهضت حركته بواسطة زوج شقيقته وربيبه محمد بـك أبـو الدهب الذي نجح السلطان في استمالته، إسماعيل الخشاب : خلاصة ما يُـراد من أخبار الأمير مراد، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر، دانيـال كريـسليوس، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٨، وانتهى الأمر بوفاته متأثراً بجراحه عقب معركـة عنيفة مع محمد بك أبو الدهب قرب الصالحية، الجبرتي : عجائب الآثار، ١: ٥٩٠ - ٥٩١.

القلعة، /١٢و وألبس الوجَاقات السبْعة[1]، واستبد بتدبير الأحكام وأطاعه الخاصُ والعام، وصفا له الوقت وراق، وانتشر صيته في الآفاق، وحدثتهُ نفسه أن يسطُو على الشّام والعراق، ويعيد إلى مصر دار السلطنة كما كانت في سالف الأزمنة، وكان له مزيد الفخر والاعتبار في تلك الديار حتى كان يُخطب له يوم الجُمعة على المنابر، ولم يكن للدولة من حُكم مصر في أيامه إلا مُجرد الاسم الظّاهر.

ولما صفت للدولة العليّة أحكام الديار المصريّة بعد رحيل الفرنساوية، صدر أمرها العالي إلى مُحمّد باشا [خِسرُو][2] الوالي أن

---

[1] الوجاق كلمة تركية تعني الفرقة من العسكر والوجاقات السبعة هم إجمالي الحامية التركية في مصر، وقد انقسمت إلى المستحفظان والعزبان وأوجاق المتفرقة وأنيطت به مهمة حراسة الوالي، وأوجاق الجاووشان وأنيطت به مهمات المراسلات والبريد والجونولليان وكان يتكون من المتطوعين بالحامية العثمانية والتفنجيان وهم حملة البنادق واخيراً أوجاق الجراكسة، انظر :-
احمد الدمرداش كتخدا عزبان : الدرة المصانة في أخبار الكنانة، نشرة دانيال كريسليوس وعبد الوهاب بكر، القاهرة ١٩٩٢، ص ٣٠.

[2] زيادة لازمة، ومحمد خسرو باشا كان يشغل منصب كتخدا حسين باشا القبودان، وصدر فرمان تعيينه والياً على مصر في جمادى الأول ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وحاول تنفيذ ما أوكل إليه من القضاء على المماليك بشكل نهائي وعدم قبول الصلح معهم، إلا ان هزائمه المتكررة أمامهم حالت دون تنفيذه لأهدافه وسقط أسيراً في يد عثمان بك البرديسي ومحمد علي فسجن في القلعة لبعض الوقت، ثم أطلق سراحه واستعاد منصبه ليومين فقط وانتهى الأمر بطرده من مصر وترحيله إلى استانبول بعد اعتراض كبار أمراء المماليك على إعادة تنصيبه من جديد كوال على مصر، انظر :-
الرجبي : تاريخ الوزير محمد علي، ص ص ٧٧ – ٧٨.

يُبادر في الحال بالجنود والأبطال إلى قتال المماليك المذكورين والفجرة /١٢ظ المُعتدين، ويضع السيف فيهم ويلاشيهم عن بكرة أبيهم، حتى تنطفي أخبارهم وتتمحي آثارهم.

وكان بينهم قائدان وهما من أكابر الأعيان قد اتصفا بالشجاعة وقوة الجنان أحدهما يدعى عُثمان بك البرديسي[(١)]، والآخر مُحمد بك الألفي[(٢)]، فلما اتصل بهما هذا الخبر وكان قد شاع واشتهر، أخذا في الاستعداد للمُدافعة والجلاد، فجمعا الأخلاف والأحزاب، وانحاز إليهما الأعوّان والأصحاب حتى صارا في [جَمعٍ][(٣)] جَمٌّ غفير وعدد كثير، ونهضا لمُقاومة الوزير.

وكان الباشا قد جهّز لقتالهما جيشاً عَرَمْرَماً، وقدم عليه قائداً جليلاً مُعظّماً[(٤)]، فاستظهرا عليه وكسراه، وهزما جيشه وفرّقاه، /١٣و

---

(١) عثمان بك البرديسي أحد كبار مماليك مراد بك، لقب بالبرديسي لتوليه منصب كاشف نواحي برديس بالوجه القبلي، تحالف معه محمد علي ضد خسرو باشا ثم أن انقلب عليه وانتهى الأمر بهربه ووفاته بنواحي منفلوط بأسيوط، انظر، عجائب الآثار ٤ : ٧٠ -٧١.

(٢) محمد بك الألفي أحد أكبر مماليك مراد بك، قاتل مع استاذه مراد بك ضد الفرنسيين في أعقاب دخولهم مصر ثم لم يلبث أن انقلب على أستاذه عقب صلحه مع الفرنسيين ثم لجأ إلى انجلترا زمناً وعاد إلى مصر ولم يلبث أن توفي بها بعد نزاع قصير مع محمد علي، عجائب الاثار ٤ : ٤٦ – ٧٠؛
Arther Goldschmidt : op.cit, PP 17, 18.

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

(٤) الإيماءة إلى يوسف بك الذي أرسله خسرو باشا لقتال المماليك وعضده بمحمد علي فتسرع يوسف بك دون التنسيق مع محمد علي واشتبك مع قوات البرديسي قرب دمنهور فكانت النتيجة هزيمة مُنكرة لقوات يوسف بك الذي كانت قواته أضعاف أعداد المماليك لدرجة أن الإنجليز نصحوا المماليك ألا يخاطروا بمهاجمة العثمانيين، عجائب الآثار، ٣ : ٣٦٧.

وكان مُحمَّد علي - الأسد الغَضَنفَر - من جُملة ضباط العسكر تحت رياسة القائد الأكبر، فاستشاط القائد حنقاً وغَضباً، واتَّهم محمد علي بأنه كان لتلك الكَسْرةِ سبباً، ثم وقعت بينهما المُنافرة وأدّت إلى الخصام والمُشاجرة.

٥ وكان ذلك القائد يُعهد منه الطمع في الاستيلاء على تخت القاهرة، فاجتمع بالوالي في بعض الليالي، وعند إمكان الفرصة قصَّ عليه تلك القصة قائلاً أن فُلاناً قد اتخذ له أحزاباً وأعواناً من العُلماء المشهورين، والذوات المُعتبرين، وهو كل يوم في همَّة وحركة، وقصده استخلاص المَملَكة، ومازال يقدح في حقه بزناد شتمه، ١٠ ويمزق ستر حُرمته بمخالب /[١٣ظ] ذمِّه، حتى أوْغر صدره عليه، واستدعاه ليلاً إليه، وكان قد صمَّم النِّية على أن يُلقيه في أشْراك المنيَّة، وبلغ مُحمَّد علي الخبر فأخذ لنفسه الحَذر، وحَاول[(١)] تلك الليلة ولم يحضُر.

وفي اليوم الثاني لم يمكنه التَّواني، فنهض بالعجل خوفا من ١٥ حلُول الأجل، وانحاز إليه كل شُجاع وبطل، وانضم إلى جماعة المماليك البَحريَّة، واتحد مع عُثمان بك وعُصبته القويَّة، وجاهر الوالي بالعصيَان، واستعان بمن تعصَّب معه من الشُّجعان، فبادر الباشا لقتاله بجنُوده ورجاله، فالتقاه مُحمَّد علي بأبطاله وأسُوده وأشْباله، فأعانه الله ونصره وكسر جيشه وعسكره، وقبض عليه /[١٤و] ٢٠ وأسره، وكانت هذه الكَسرة والنُّصرة في سنة ألف ومائتين وثماني عشرة من سني الهجرة[(٢)].

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) انظر هذه الأحداث في عجائب الآثار ٣ : ٤٤٨.

ولما بلغت هذه الحوادث مسامع السلطان سليم الثالث عظُم عليه ذلك الأمر، وأرسل علي باشا الجزايرلي[1] إلى مِصر ليجلس مكان محمد خسرُو باشا، ويقبض على العُصاة ويتصرَّف بقصاصهم كيفما شاء، وعند وصوله إلى هناك أخذ يحتال على المماليك والأرناوُط ليُلقيهم في شرك الهلاك، فخلعوا طاعته وخذلوه ثم حاربوه وقتلوه، وبعد ذلك بأيام وقع النزاع والخصام بين مُحمَّد بك الألفي وعُثمَان بك البَرديسي رغبة في السياسة وطمعاً بنوال الرياسة، فنادى[2] بعضهما /١٤ظ بعضاً وازدادا حسدا وبغضاً.

وكان لعسكر الأرناوُط مالٌ مكسُورٌ عند عُثمان بك المذكُور منذ ثمانية شهُور، فلما رأوا ضعف حاله وقلة أنصاره ورجاله،

---

(1) لُقب علي باشا الجزايرلي بهذا الاسم لكون كان فيما سبق كان مملوكاً لباي الجزائر، ثم تورط في نهب طرابلس الغرب، وفر من وجه حمودة باشا والي تونس ولجأ إلى مصر واستجار بمراد بك، وصدر أمر الباب العالي بنفيه إلى النوبة لكن مراد بك عوضا عن أن يقوم بنفيه كما أمر السلطان أرسله للقيام بفريضة الحج، وكاد يموت في مكة لاتهامه باقتراف عمل غير أخلاقي مع أحد الغلمان بالقرب من الحرم إلا أن توسط بعض أُمراء المصريين حال دون تنفيذ الحكم فيه، ومن غير المعروف على وجه الدقة تلك الظروف التي قربته مرة أخرى من الصدر الأعظم يوسف باشا والذي وافق على انضمامه لجيشه الذي جهزه لحرب الفرنسيين وإجلائهم عن مصر، ولعل تطوعه للاشتراك في هذه الوقائع قد غفر له ما سلف منه في حق الدولة، فعفا عنه يوسف بك الصدر الأعظم ولم يلبث أن تعطف عليه بعقد ايالة مصر له فنزل الأسكندرية وحاول الاستيلاء عليها عنوة وانتهى الأمر بمقتله بإيعاز من محمد علي والبرديسي، انظر عجائب الآثار ٣ : ٤٣٤ ، وتجد سيرة مفصلة لهذا الوالي في إلياس الايوبي : سيرة محمد علي، ص ص ٣٣ – ٤٠.

(2) كذا بالأصل، ولعله أراد "فعادى".

طالبوه بالرواتب والجَوامك[1] وشدَّدوا عليه في ذلك باتفاق مُحمَّد علي ليث المعارك، وإذ لم يكُن له قدرة على مُقاومتهم ولا طاقة في دفع مُصادمتهم اضطَرَّهُ الحال أن يوزِّع المال على أكابر البلاد ليُرضى العَساكر والقوَّاد فلم يُجيبوه إلى طلبه، ولم يكتَرِث أحد به.

٥ ولمَّا خابَ أمله وضاقت حيله انحَصر في داره في جماعة من أنفاره، فوفدت عليه العساكر والأغوات وأحاطوا بقصره /١٥و من جميع الجهات في طلب الرواتب والنفقات، وكذلك فعلُوا بغيره من البكاوات وأكابر المَماليك أرباب الولايات، وبقي عُثمان بك في منزله على[2] بضعة أيام وهم يتردَّدون إليه بالتهديد وطلب الانتقام، إلى أن ١٠ ساعدته الفُرص ففر من بين أيديهم كما يفر العُصفور من القَفص، وقصد بلاد الصعيد وانكَسر عزمه الشَّديد.

وإذ كان مُحمَّد علي قد حصل على صداقة العُلماء ومحبَّة الأهالي ؛ ارتقى بهذه الواسطة إلى أن يكون هو الوالي، وفي أثناء ذلك اجتمعت الأكابر والعُمد وأقاموا مُحمَّد علي قائم مقام على البلد، ١٥ وأرسلوا مُحمَّد خِسرُو باشا إلى القُسطنطنية وولُّوا مكانه رشيد باشا مُحافظ الإسكَندرية /١٥ظ ولقَّبُوه نائب الحضرة السُّلطانية على الديار المِصريَّة.

---

[1] الجوامك جمع "جامكية" ما يماثل الراتب انظر :-

محمد قنديل البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، القاهرة ١٩٨٣، ص ٨٢.

[2] كذا بالأصل.

ولم يمض إلا زمنٌ يسير بعد هذه الحركة حتى توفِّي عُثمان بك ومُحمَّد بك، وصفت لمُحمَّد علي ولاية المملكة، ولما بلغ مسامع حضرة السلطان ما جرى وكان من الشِّقاق والخلاف في تلك النَّواحي والأطْراف ؛ أخذه القلق والضَّجر، وزاد به الغمُّ والكَدر، وأمر مُصطفى باشا باش قُبُطان أن يسير إلى مصر من غير توان، ٥ باستعداد تام، وجيش لهُمام[1]، ويدَّارك بحسن التَّدبير والاهتِمام ما اختلَّ هناك من النِّظام، واصحبهُ بفرمان إلى مُحمَّد علي باشا – عليُّ الشَّان – يامره بالتوجُّه إلى ولاية سَالونيك[2]، وأن يصير تسليم مصر إلى جماعة /١٦د المَماليك، بشرط أن يدفعُوا في كل سنة خمسة آلاف كيس إلى خزينة السُّلطنة. ١٠

فأجاب وامتَثل، وسار على عجل بجنُودٍ كافية، وسُفن حربيّة وافية، وعند وصُوله إلى مصر شرع في ذلك الأمر، فلم تقبل بذلك أهالي البلاد ورُؤساء العَساكر والأجنَاد، وتوجَّه منهم العُلماء والأعْيان، وأكابر العُمد والأركان، وقصدوا ذلك الوزير الأكرم، والمُشار إليه الأفخَم، ودخلُوا عليه وتمثَّلوا بين يديه، فالتقاهم بالبشَاشة ١٥ والتِّرحاب، وآنسهُم بالخِطَاب، وجاراهم بالسُّؤال والجَواب، فقالوا له عن فرد لسان:–

---

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "هُمام".

(٢) سالونيك مدينة كبيرة وقصبة لإيالة عرفت بالاسم نفسه، تقع على الشاطئ الشمالي لبحر ايجة.

"إننا عبيد الله والسلطان، ومن جملة الرعايا والأعوان، ومهما برزت به /١٦ظ الأوامر الشريفة، والمراسيم السامية المنيفة نتلقاه بالقبول والامتثال، ونسلك بموجبه في الحال، إلا في هذا الأمر الفظيع، فإنا لا نسمع ولا نطيع، لأنه كما لا يخفى على معاليك أن جماعة المماليك هم موادُّ الظلم والفساد في هذه البلاد، وقد أهلكوا بجورهم العباد، فلا يوجد بينهم من يصلح للرياسة، ولا من يعتمد عليه في الأحكام والسياسة"، ثم أخذوا يثنون على محمد علي ويطنبون، ويصفونه بحسن الشمائل ويسهبون، وأنهم لا يقبلون والياً غيره على الإطلاق، نظراً لما فيه من اللياقة والاستحقاق، ومحاسن الشيم ومكارم الأخلاق.

فلما رأى شدة ميلهم /١٧و إليه، واعتمادهم دون غيره عليه أجابهم إلى مطلوبهم، ولبى دعوتهم كمرغوبهم، وأنهى فيه إلى الباب العالي، حسب التماس الأهالي، فصدرت الأوامر السنية، والإرادة الملوكية الشاهانية، من ديوان القسطنطينية ؛ بتقريره على ولاية المملكة المصرية، وذلك في سنة ألف ومائتين وتسع عشرة هجرية.

ولما تمكنت دولته، وامتدت صولته، واستقرت له الولاية، وبلغ القصد والغاية، بدد دولة المماليك لراحة العباد، وسعى في إصلاح البلاد بعد ذلك الفساد، فمهد ثغورها وأمصارها، وأمن سبلها وأقطارها، وأبطل ما كان فيها من المظالم، وقمع شوكة كل باغ /١٧ظ وظالم، وأصلح الأحكام والقضايا، وجعل التسوية بين الرعايا، ورتب فيها التعليمات العسكرية، وبنى الترسخانات البحرية، والسفن الحربية، وأسس فيها المدارس والمطابع، وجدد ما كان مندرساً من

الفنون والصنائع، وصيرها وطن الآداب والمعارف، وكعبة تُجتنى منها نفائس التُحف واللطائف، فابتهجت بطلعته أقطار البلاد، وقرّت به أعيُن العِباد.

فقرّت به عينُ الأنام مَسرةً | وكلٌ غدا يُبدي الثنا له جَهْرًا
فذا رافعٌ كفاً وذا بَاسِطٌ يَداً | وذا ناشرٌ حَمْداً وذا سَاجدٌ شُكْرًا

وبالحقيقة أن هذا العزيز يستحق أن يُقام له تمثالٌ من الذهب الإبريز، لتخليد ذِكره /١٨و في تلك الديار على مَمر[1] الدهور والأعصار، حسبما جرت به عادة الملوك الكبار، أصحاب الشوكة والاقتدار، الذين طار صيتهم في الأقطار، وفتحوا المدن والأمصار، لأنه لم يكن دون الاسكندر، ولا رمسيس الأكبر في الشرف والفخار، ورفعة المقام والاعتبار، ولا في الفضائل وكثرة الآثار، لأن هذين الملكين، والسلطانين العظيمين تقلدا زمام السلطنة، وحصلا على مزيد الفخر في تلك الأزمنة بدون أدنى تَعب ولا مَشقّة ولا نَصب، وإنما كان ذلك الشرف يتناوله الخلفُ عن السلف، وأما حضرة ساكن الجنان مُحمَّد علي باشا – عليّ الشان – فإنه تبوّأ سدة /١٨ظ هذا المقام بما كان عنده من الحزم والإقدام، وصدق النظر في سياسة الأحكام.

وقد ظهر مما تقدّم فضل هذا الأسد الغشمشم الذى عاد به للدولة المصريّة شبابها، بعد أن كانت قد هرمت وهوت قِبَابُها،

---

(1) كذا بالأصل، ولعله أراد "مر".

وأخرجها من ذلك الظلام، ومتّعها بالأمن والسّلام، ورتب أحكامها على أحسن هيئة وأكمل نظام، وجعلها من أشهر ممالك الدُّول، كما كانت في زمن الفراعنة الأُول.

شعر :-

هكذا هكذا وإلا فلا لا — من[1] تسامى بمجده واستطالا

ملكٌ جلَّ في الفَخار فأمسَى — للسّلاطين قُدوة ومثالا

آصفيٌّ علا على كل عال — بفعال تستغرق الأقْوالا

قد دعُوه العَليّ فخراً فقُلنا — صدقُوا إن شَأنه قد تعالى

/ ودعوه مُحمَّداً وعليه آل — حمدٌ من كل أُمّة قد توالى

عرفت مصر فضله فهي تُثني — كل يوم عليه ما الدَّهر طالا

ه وكان مُحبًّا للعُلماء والنبلاء، يُعز الأدباء والفضلاء، يصغي إلى كلامهم، ويبالغ في احترامهم، مُغرماً بمُطالعة أخبار الأوّلين وسير الملوك والسّلاطين، وكان قويَّ الذكر والمُخيلة، إذا عُرضت له دعوى أو مسئلة[2] لا ينساها أبداً ولو طال عليها المدى، فتح اليمن وبلاد السُّودان، واستولى على عرب استان، وحارب عبد الله باشا

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "لمن".

[2] كذا بالأصل، والصواب "مسألة".

والي عكّا وكَسره، وقبض عليه وأسره عن[1] يـد الأسـد الكـرّار، والبطل المغوار، الذي افتتح المدن والأمصار، وخضع له كل صنديد وجبّار، صاحب الهمّة العلية، والصّولة الحَيْدَرِيَّة /١٩ظ حضرة نجلـهُ الكريم، سميُّ الخليل إبراهيم كما سيأتي بيان ذلك في مكانه.

٥ وكان مع عظمته وعلو شأنه لطيف الذّات، ظريف الصّفات، مُتَّصِفاً بمكارم الأخلاق، وعُلو الهمَّة، ومُعاملَـة الكبيـر والـصَّغير بالمكارم والرُّحمة، لا يُميِّز بين الغني والصُّعلوك، ولا يُحـابي مـع المالك على المَمْلُوك.

ومن أخباره اللطيفة ونوادره الظُّريفة أنه مـرَّ فـي بعـض ١٠ الأحْيَان بصبيان يلعبُون في بُستان، فلمَّا رآهم وقـف ينظـرُ إلـيهم، ويتفرَّج عليهم، فبينما هم يلعبُون بعضهم مع بعض إذ وقع طِرْبُـوش أحدهم على الأرض، وكان الطربُوش رثيثا حقيراً؛ لأن الولـد كـان مِسكيناً فقيراً، فاقتحم الصبيُّ ليتناولـه /٢٠و فالتقطـه مُحمَّـد علـي بمِحْجَن[2] كان فى يده وتناوله، وقابل الأوْلاد بوجهٍ بشُوش، وقال من ١٥ يشترى هذا الطرِبُوش ؟، فأقبل الغُلمان إليه وجعلوا يتزايدُون عليـه، فقال الغُلام لا أبيعهُ إلا بمائة دينار، ولا أنقصُ شيئاً عن هذا المِقْدَار، فالتفت إلى الولد وقال يا للعَجب !!، ما هذا الطّلب؟!، فقال يا صاحب المنّة الجَسيمة، والمنزلة الرفيعة العظيمة، إن الطّربُوش الذى يكـون دلاَّله مُحمَّد علي باشا لا يكون بأقل من هذه القيمة، فعجب من خطابه

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "على يد".

[2] المحجن : الصولجان.

وسرعة بديهته في جوابه، وقال لقد قُلت حقاً ونطقت صدقاً، وأمر له بمائة دينار، وقال استعن بها على ما تختار.

ومما قيل من هذا القبيل /٢٠ظ أن رجُلاً من أهل البصرة يُقال له الدرويش أمينى[1] وقف أمامهُ مرَّة فأمر له بـــألفٍ مـــن الفـــضَّة يستعين بها على شأنه، فأخذها ومضى وهو مُستخفٌ بإحسانه، ثم عاد في اليوم الثاني إليه ووقف بين يديه، فأمر له بمثل ذلك القَدر، فأخـــذهُ وشكر، ثم عاد في اليوم الثالث فضجر منه، وأعرض وجهـــه عنـــه، فقال الدَّرويش :- "أطال الله بقاك، ورفع مَجدك وسَناك، إنَّني رجـــلٌ فقير ضعيف الحال حقير، قد قصدت جَنابك ويمَّمـــت بابـــك طمعـــاً بإحْسَانك ونوالك، وجزيل كرمك وأفضالك لعلمي بأنَّك كهفُ الفُقـــراء وملاذ الغُرباء، ومحطُّ الرِّحال وغيثُ النَّوال، وكعبةُ الآمال، وقد /٢١و ضجرت منِّى وانتهرتني، وأعرضت وجهك عنى واحتقرتَني، لأنـــك أعطيتني خمسين غرشاً في تِردادي عليك نوبْتين، فـــاجعلني مكانـــك وتردَّد عليّ في السَّاعة مرتين وأنا أعطيك كل مرة ألف غرش يتبعها بعض أمتِعة من نفائس اللبس والفَرش، فتبسَّم ضاحكاً من هذا الكلام، وأمر له بثلاثة آلاف غرش على التَّمام، فتوجَّه مُنشرح البال، مُنبسط الآمال وهو يدعو له بطولِ العُمر والبقاء، ودوام العز والارتقاء.

وبالجملة والتَّفصيل فإنه كان من أفراد هذا الجيل لـــيس لـــه شبيه ولا مثيل، أقام معامل كبيرة، وأبنية كثيرة منها المسجد الـــشهير والجامع الكبير، الذى بناهُ داخل قلعة المدينة، /٢١ظ وحـــلاَّه بـــأعظم

[1] كذا بالأصل.

أنواع الزِّينة من نفائس الأقمشة والذخائر الثمينة التي تُـذهل عيُـون الناظرين، وتُدهش أذهان المُتفرجين، لا سيما جنينة شُبرا، وغيرهـا من المُتنزهات الأخرى، كالقصور الزهية المُبهجة، والمَباني الجميلـة المُدبَّجة المُزخرفة بأنواع التَّحسين من لطائف النُّقوش والتزيين، التي تُضاهي بارتفاعها الأبلَق[١]، وتُباهي غمـدان[٢] والخَورنَـق[٣] فـي النُّزاهة وحُسن الرَّونَق.

وكانت أيَّامه كالطِّراز المُذهب، تُعدُّ من أيام الهَنا والطَّـرب، كثُرة[٤] فيها التجارة والغنى، وبلغ النَّاس بها غاية المُنى، واتَّـسعت دائرة المُعاملات بين مصر وبقية الجهات، وازدحمت عليها الخلايـق من المَغارب والمشارق، وازداد /٢٢و أهلها وسُكانها، وارتفع قـدرها ومكانها، وانتشر صيتها وشأنها، وعاد إليها شبابها القديم في أيام هذا الخديوي العَظيم، بعد أن كانت عجوزاً عقيم.

---

[١] القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس غربي دمشق، راجع بشانه ابن كثيـر : البداية والنهاية، بيروت ١٩٩٦، ١٤ : ٢٧٥.

[٢] قصر غمدان، قصر أسطوري بصنعاء، يقال أن من بناه هو يعرُب بن قحطان وأن المُكمِّل لبنائه بعده وائل بن حمير بن سبأ، بالغ القدماء في وصفه وكـان قصراً مربعاً مبنيَّة أركانه بالرخام الملون وله سقوف طباق ما بين السقف إلى السقف خمسون ذراعا وطوله في الهواء نحو ثلثمائة ذراع وفي كل ركن من أركانه تمثال أسد مجوف مفتوح الفم والمؤخر والهواء يـدخل مـن مـؤخره ويخرج من فمه فيسمع له اذا هب الهواء زئير مثل زئير الاسد، شيخ الربوة : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت ١٩٩٨، ص ٤٧.

[٣] الخورنق : قصر أسطوري بالحيرة بأرض العراق ينسب بناؤه إلى النعمان بن المنذر، راجع بشأنه الطبري : تاريخ الرسل والملوك، نشرة محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٦٩، ٢ : ٦٥.

[٤] كذا بالأصل، والصواب "كَثُرَت".

ومن آثاره الفخيمة، ومشرُوعاته العظيمة ذات المنافع الجَسيمة حفر ترعة المحمُودية التي كانت تدعى بالأشْرفية، نسبة إلى الملك الأشْرف المنعُوت بالفضل والشّرف، وكانت فيما سبق من الزمن المُتتابع خليجاً صغيراً قليل الفوائد والمنافع، ثم تعطل على تمادى الوقت واندرم[1]، وصار وجُوده كالعدم، فأعاده على أحسن طريقة، وجعله ترعة واسعة وعميقة، بحيث تسلُك فيها السفن البُخارية حاملة الركاب والبضائع /٢٢ظ التِّجارية، وبذلك اتصلت القاهرة بالإسكندرية على أقرب وأسْهل سبيل، بعد تلك المسافة الشاقة والمدى الطويل، وقد اجتمع عليها من الفعلة والخدمة أكثر من ثلاثماية ألف نسمة، وكان مدة حفرها نحو سنة وشَهر، واكتسب بهذا المشروع الحميد مزيد المدح والشُكر، ومن مساعيه الخيرية سدُّه الترعة الفرعَونيَّة التي كانت عديمة النَّفع، ومُضرة بأراضي الزرع، وكان تَتْميم هذا العمل بعيداً عن الأمل لالتزامه تحويل جانبٍ عظيم من النِّيل عن مجراه العَريض الطَّويل، وبعد بذل الجهد، ومقاساة التعب والكد انسدت على أحْسن أسْلوب وحصل المطلُوب /٢٣و طبق المرغُوب، جزاه الله خيراً على هذا الإحسان وجعل اسمه مُخلَّداً على مَمر[2] الزَّمان.

---

[1] كذا بالأصل.

[2] كذا بالأصل، ولعله أراد "مر".

خبر ظهور عبد الله بن سعود وهجومه على مكة بالفرسان والجنود

وكان قد ظهر في قبائل الأعراب رجل يُدعى عبد الله بن سعُود الوهَّاب، وكان من الطُغاة المُلحدين، لا يعتقد بالأنبياء والمُرسلين، إلا أنه كان أسداً هصُوراً، وشجاعاً جسُوراً، وبطلاً في الحروب منصُوراً، وكان دأبه مُبارزة الفُرسان، والغزو على قبائل العُربان، وفي مُدة يسيرة وبرهة قصيرة تبعه جموع كثيرة، فدوَّخ بلاد الحجاز، وانتصر على أهلها وفاز.

فلما كانت /٢٣ظ سنة ١٢٢٢ هجرية الموافقة لسنة ١٨٠٧ مسيحية زحف بعسكر جرَّار إلى نواحي مكَّة وتلك الديار، واعترض الحُجَّاج والزُّوار، ونهب المُسافرين والتُّجار، وعاث في الأماكن الشَّريفة، وبدل أمْن الحَرمين بالخيفة، وتعدَّى حدود الدِّين، وفعل ما لا يليق بالمُسلمين[١]، فلما عمَّ النَّاس شرُّه وضرره، وبلغ مُحمَّد علي باشا خبره جهز ولده طُوسُون باشا لقتاله، وتفريق جمُوعه وأبطَالِه، فسار بالعساكر المصريَّة إلى الديار الحجازية، وقاتل العرب الوهَّابية، وجرى بينه وبينهم حروبٌ عديدة، ووقائع هائلة شديدة.

---

(١) واقع الأمر أن عبد الله بن سعود الوهاب لم يمنع الحاج من أداء الفريضة وإنما طلب من أمير الحاج عبد الله باشا ألا يأتي إلى مكة ومعه المحمل وما يصحبه من طبل وزمر وغيره مما يخالف الشرع، لكن عبد الله باشا لم يستجب لتلك الشروط وعاد أدراجه بالحجيج دون تأدية الفريضة، انظر: عجائب الآثار ٤ : ٨٣.

ولما طال القتال، واشتد الحال التزم مُحمَّد علي باشا – ليث الطِّراد – أن يركب /٢٤و بنفسه إلى تلك البلاد، فشمَّر عن ساعد الجد والاجتهاد ليغتنم ثواب هذا الجهاد، وتدرَّع بدرع الله العزيز الجبَّار، وسار إلى تلك الدِّيار بهمةٍ عليَّة، وعزمة قوية، لو صدم بها جَبلاً لتزعزَع وانصدع، أو صرف الزمان لاعتَراه الجزع.

وسار بهمةٍ يطوي الفَيافي	ليردع كل جَبَّارٍ عنيد
وأرسل رُسله قبل التلاقي	فما انتصحوا لإنزار[1] الوعيد
فبادر منزل الأعداء صُبحاً	بفُرسان أشد من الأسُود
بفرسان يرون القتل مجدا	كأنَّ قلوبهم صَلد الحَديد

فحارب طوائف العرب وقهرها، ومزق جمُوعها وكَسرها، وقبض على عبد الله بن سعُود، وأرسله إلى الأستانة بالأغلال والقيُود، ثم رجع إلى مصر بالعز /٢٤ظ والنَّصر بعدما نشر راية العدل والإنصاف في تلك النواحي والأطرَاف، بعد ذلك الجور والاعتِساف.

في وصف نَجله الكَريم، سَميُّ الخليل إبراهيم

ومن تمام سَعده، وإقبال عزِّه ومَجده أن الله رزقه أولاداً كراماً لم ترمُق الألحاظ أشخَاصاً تُضاهيهم رفعةً ومقاماً، وشجاعةً

---

[1] كذا بالأصل، والصواب "لإنذار".

وإقداماً، وآداباً وكمالاً، وسعادةً وإقبالاً، وحُسناً وجمالاً، وسَماحةً وإفضالاً، وحزماً وعزماً، وفهماً وحلماً، ولطافةً ووداعة، وفصاحةً وبراعة، منهم إبراهيم- وهو أكبرهم - وطُوسُون وسعيد وإسْمَاعيل وحُسين وحليم ومُحمد علي وهو أصغَرهم[1].

٥ وكان إبراهيم أعظمهم، /٢٥و وأشْهَرهُم وأشْجَعهُم وأقْدَرهم، ولد في مدينة قُوالة بعد زواج أبيه بسنتين[2]، وكان مُتوسط القوام

---

(١) كان إبراهيم باشا ابن محمد علي الأكبر وإلى جانب إبراهيم أنجب الباشا من زوجته الأولى أمينة هانم ولده طوسون باشا وإسماعيل كامل باشا والأميرة توحيدة هانم التي تزوجت من محرم بك قائد اسطوله، والأميرة نازلي هانم التي تزوجت من احمد بك الدفتردار، أما جواريه فقد استولد إحداهن وتدعى أم نعمان بولد وحيد منها هو نعمان بك، وجاريته عين الحياة قادين هانم ولده محمد سعيد - هو نفسه سعيد باشا الذي تولى الخديوية فيما بعد - وجاريته ممتاز قادين ولده الأمير حسين بك، وجاريته ماهوش قادين ولده الأمير علي صديق بك، وجاريته نام شاز قادين ولده الأمير محمد عبد الحليم بك، وجاريته زينة خديجة قادين وأنجب منها ولده محمد علي باشا الملقب بالصغير وجاريته شمس صفا قادين هانم وأنجب منها ابنتاه الأميرة فاطمة والأميرة رقية، وجاريته شمع نور قادين وأنجب منها ابنته الأميرة زينب؛ وكان له عدة جواري أخر لم ينجبن له كنايلة قادين هانم، جلفدان قادين وقمر قادين هانم، إلياس الايوبي : محمد علي، ص ١٦.

(٢) هناك رواية مفادها أن إبراهيم لم يكن ابناً حقيقياً لمحمد علي بل كان ابن زوجته الأولى وربيبه وولده بالتبني، انظر :- مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا " نشرة أحمد غسان سبانو، دمشق (د.ت) ص ١٢، والأصل في هذه الشائعات هو أن محمد علي كان ينوي جعل طوسون ولده الأصغر الرجل الثاني بعده، فعينه حاكماً للقلعة منذ اليوم الأول لوصوله إلى مصر، متجاهلاً بذلك الأحقية المنطقية لولده الأكبر إبراهيم في ذلك المنصب، وهو ما جعل ذهن البعض ينصرف إلى أن إبراهيم لم يكن ابنا حقيقياً لمحمد علي.

مُمتلئ البدن أشْهل العينين مُستطيل الوجْه والأنْف، يُعد في الرجـــال بألف، أجشُ الصَّوت لا يهاب الموت، وقد ذكرت ترجمته في كتـــابي "البَدر السَّافر في أعيَان القرن الحاضر فقُلت فيه :-

"هو صدر الوُزراء الأماجد، وجرثُومة الفَضائل والمحامــد، صاحب الرُّتبه العلياء، وأحد أفراد الدُّنيا، عزيز مــصر ووزيرهـــا، وقائد جنُودها، ومُشيرها، الوارث المَجد عن آبائه الكرام، الذين زهت بذكرهم الليالي والأيَّام، من يقول لسان الحال في شـــأنه /[٢٥ظ] وعُلـــو قدره ورفعة مكانه:-

أسدُ الهيجاء ضــرْغَامُ الــوغَى   فرعُ أصلٍ قد تسامى في العُلـــى
قاصم الأعداء مَن قــاصٍ ودان   عزُّه يكسوُ العِدا ثــوبَ الهــوان

لو رآه الإسكندر لاقتَفى أثره في وضع التَّنظيمات السِّياسية، أو رمسيس الأكبر لفضَّلهُ على نفسه بالشُّجاعة والفُروسية، كيـــف لا وهُو فخرُ الموالى، وتاج هام المَعالي، الذى اعتَدل به الزَّمن، وسكَنَت بأيَّام دولته الفتن، وافتَتَح المُدن والبُلدان، ونثر بصليل حُسامه كتائب الفُرسان.

كان رجلاً مهيباً، وسيِّداً حازماً نجيباً، أشـــدُّ النَّـــاس باســـاً، وأصعبهم مِراساً، وأثبتهم فُؤاداً، وأعظمهم إقْدَاماً واجتهاداً، /[٢٦و] عالي الهمَّة، مشهُوراً بالفراسة والحكْمَة، مُؤيَّداً فـــي حرُوبـــه ومغازيـــه، منصُوراً في وقائعه ومراميه، شديد الصَّلابة على الأسْفَار، لا يُبـــالي بالمَشقَّات والأخْطار، وكان مُحباً لعسْكَره، لا يُميِّزُ ذاته عنهم، جاعلاً نفسه في الأسْفَار والحرُوب كواحدٍ منهُم، فكانوا يخضعُون له تعظيماً لمقامه واعتباراً، ويبذلون أنفسهم قُدَّامه طوعاً واختياراً.

وكان أبوه يُحبُّه ويميل إليه، ويُعوّل في أمْرِه عليـــه، ويُقلِّـــده أعظَم المُهمَّات، ومُباشرة الحروب والغَارات، لعلمه بحزمـــه، وشـــدة بأسه وعزمه، فما سار في أمر إلا انتّصر، ولا قصد حرب قـــوم إلا ظَفر، وغنم وأسَر وبلغ القصد والوطَر.

/[٢٦ظ] **في مسير إبراهيم باشا بالعَساكر المصريّة لافتتاح الدِّيار الشاميّة** ٥

وكان قد حدث في تلك الأيّام بين مُحمَّد علي باشا وبين عبـــد الله باشا والي عكّا نفورٌ وخِصَام، وكان عبـــد الله باشـــا المـــذكُور لا يُركن إليه في أمرٍ من الأمُور، شديد الطَّمع، عـــديم الوفـــاء، ذمـــيم الأخلاق ، مُتقلّبُ الآراء، لا يحفظُ وُدّاً، ولا يَرعى عهداً، ولا يثبـــت على حال، ولا يصدُق إذا قال، عاكفاً على المَلاهي واللذات، مشغُوفاً ١٠ بسمَاع الأغاني والأصوات.

وكان أبُوه من مماليك أحمد باشا الجزّار[1]، يُقال له علي أغا الخزندار، فساعدته يد العناية حتى تمكّن من الولاية، /[٢٧و] وطابت له الأيّام، وبلغ القَصد والمَرام، وكان دأبه الاهتِمـــام، بإقامـــة العمـــار،

---

[1] أحمد باشا الجزار (ت ١٢١٩هـ/١٨٠٤م) أحد اشهر من تولى باشوية عكّـــا في العصر العثماني بل ربما أشهرهم على الاطلاق، أصله من بلاد البـــشناق وكان مملوكاً لعلي باشا حكيم أوغلي ثم سافر إلى مصر وخدم عبـــد الله بـــك تابع علي بك بلوط قبان، ثم تقلد كشوفية البحيـــرة، ثـــم قلـــده حـــسن باشـــا الجزايرلي باشوية عكا فعمر أسوارها وأخذ في تحصينها وأسرف في شـــراء المماليك حتى قويت شوكته، وذاع صيته وازدادت مكانته بعد ثباته أمام جيش نابليون الذي حاصر عكا قرابة الشهرين ولم يظفر منها بطائل فظهر بمظهـــر البطل حتى قال فيه الجبرتي "ولو لم يكن له من المناقب إلا استظهاره علـــى الفرنساوية وثباته في محاربتهم له أكثر من شهرين لم يغفل فيها لحظة لكفاه" عجائب الاثار ٣ : ٤٧.

وتحصين عكّا بالأبراج والأسوار، وجمع الأموال من جميع الأقطار، وكان قد استولى عليه الطّيش، واستخفّهُ البَطرُ وطيب العيش، حتى حاد عن الطّريق المَحمُود، وتجاوز في الأحكَام الحُدود، وأشهر العِصيَان على الدّولة ذات الشّوكة والصّولة ؛ أملاً بالاستقلال، وطمعاً في الأموَال. ٥

ولما بلغ مسامع حضرة ساكن الجِنَان السّلطان مَحمُود خان ما هو عليه من الهذيان والتّمرُد والعِصيَان وارتكاب الظُّلم والعُدوان ؛ غضب من سُوء فعاله، وأرسل عسكراً لقتاله، تحت راية البطل الهمام، والصارم الصِمصَام درويش /٢٧ظ باشا والي دمشق الشّام، فحاصره زمناً طويلاً، وأذاقه عذاباً وبيلاً، ولما اشتَد عليه القتال، ١٠ وأحاطت به الأهوال، وانقطع عنه الإمدَاد من سائر البلاد، صحا من غفلته، واستفاق من سَكرته، وداخله الخوف والفزع، واضطَرب فؤاده من الهَلع، وأيقن أنه إذا طالت عليه تلك الحالة ؛ يؤخذ أسيراً لامحالة، فابتدر بالعجل لاستدعاء الأمير بشير[1] حاكِمُ الجبل، وكان

---

[1] الأمير بشير شهاب الثاني، أحد أمراء آل شهاب الذين تولوا حكم جبل لبنان والبقاع في العصر العثماني، منحه إبراهيم باشا الحكم على الجبل بُعيد استيلاءه عليه، وفكر محمد علي في إسناد حكم الشام بأكملها له بعد أن شكا إبراهيم باشا لوالده ثقل العبئ الملقى على كاهله جراء جمعه بين القيادة العسكرية للجيش وبين الإدارة المدنية للبلاد إلا أن الأمير اعتذر وقنع بحكم الجبل فحسب فأناط تلك المهمة بمحمد شريف باشا وأعطى لسليمان باشا الفرنساوي ومحمود نامي بك الجركسي الأصل إيالة طرابلس الشام ومن ثم تقلص نفوذ آل بشير كثيراً في عهد محمد علي، عن الشهابية في لبنان خلال العصر العثماني انظر :-
A. Rustum; F. Boustani: Libnan al'epoque des emirs Chihab, Bairoth 1933.

من أفراد الرّجال، موصُوفاً بالفضل والكمال، وحُسن التّدبير وجميل الخِصال، ولقد أجاد من وصفه فقال :-

إنّما أنت واحدٌ غير أنّي لستُ أعطيك مَنزلَ الآحاد

فيما ذا يُسالفون وهُم لا يَلتفون الإنصاف بعد الجهاد ؟!

/[٢٨أ] لك خوفٌ لو صادف العَين في الحُلم لصارت تخاف طيب الرّقاد

تفخر النّاس بالجدُود ولكن أنت فَخرُ الآباءِ والأجدادِ

وأرسله إلى الدّيار المصرية؛ ليستميل له خاطر الحَضرة الخديوية لإصلاح أمْره مع الدّولة العليّة، وكان مُحمَّد علي باشا له وجاهة كبيرة، ومنزلة عند الدّولة رفيعة خطيرة، فلبّى دعوته، وأجاب طُلبته، وكتب في شأنه إلى القُسطنْطينيّة، واستَرضى الدّولة عنه بموجب إرادة سَنيّة، ورفع عنه تلك الشّدة بعدما أقام في الحِصَار مُدّة، وصار له عليه حق الجميل والإحسان على مدى السّنين والأزمان.

غير أن عبد الله باشا - لشدة جُوره وقلة معرُوفه وخيره - كبُرت نفسه بعد ذلك عليه، وجحد فضل مُحمَّد علي باشا /[٢٨ب] وإحسانه إليه، وحصول العفو له على يديه، فأصدر أمراً إلى من تحت يده من الحُكّام والولاة أن لا يذكره أحدٌ من رعاياه[1]، فلما بلغ

(1) الحقيقة أن محمد علي بعد أن لمس رفض الباب العالي القاطع لمطلبه بضم الشام إلى مصر الذي اعتبره حقاً مشروعاً بعد ما تكبده في خدمة الدولة في حرب المورة لجأ بخبث إلى إذكاء جذوة صراع جانبي مع عبد الله باشا والي عكا وأداره بمهارة شديدة واتخذ منه التكأة لادعائه أن حملته على الشام لم يقصد منها إلا تأديب عبد الله باشا فحسب لعدة أسباب اتخذ منها ذريعة لحملته على الشام كان منها: امتناع عبد الله باشا عن رد الفلاحين المصريين-

مُحمَّد علي باشا هذا الخبر استشاط غيظاً وتكدَّر، وكتب إلى حضرة السُّلطان يُعلمه بهذا الشأن، ويلتمس من جلالته خلع عبد الله باشا عن ولايته، فلم يكترث بخطابه، ولا أجاب على كِتَابه، مع أنَّهُ كان من الواجب أن يُجيبه إلى طَلَبه ويعزل عبد الله باشا عن مَنْصبه ؛ بالنسبه إلى خداماته[1] الصَّادقة، وإمداداته السَّابقة؛ حيث أعانه على حرب ٥ المورة[2]، وبذل الأمْوَال الكثيرة في تلك الحرُوب المشهُورة، عندما

=الهاربين من التجنيد الإجباري الذي فرضه محمد علي على المصريين، وامتناعه أيضاً عن سداد المبلغ الذي تحمله محمد علي عنه وتعهد بإنفاذه إلى السلطان نظير بقاء عبد الله باشا في ولايته وقدره محمد علي بـ ١١ مليون قرش، وكذلك منعه (أي عبد الله باشا) تصدير دودة القز إلى مصر مما أضر كثيراً بصناعة الحرير في مصر، وأخيراً لأن عبد الله باشا لم يتخذ أي إجراء للقضاء ظاهرة تهريب البضائع إلى مصر برغم تكرر إلحاح الباشا على عبد الله باشا بشأن العمل على الحد منها، انظر :-

Asad Rustum : the royal archives of Egypt and the origins of the Egyption Expedition to Syria (1830-1841), Beirut 1936, P 30.

السيد فرج: حروب محمد علي، القاهرة ١٩٤٢، ص ص ١٢٢، ١٢٣؛ عبد الرحمن زكي: حملة الشام الأولى والثانية، بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري لابراهيم باشا بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته، القاهرة ١٩٤٨، ص ص ٢٩٢ – ٣٠٤ ؛ خالد فهمي: كل رجال الباشا، ترجمة شريف يونس، القاهرة ٢٠٠١، ص ص ٦٩ – ٧٠.

(١) كذا بالأصل، والصواب "لخدماته".

(٢) بلاد المورة تشمل الحدود السياسية لليونان الحالية بشكل تقريبي وكانت قد شبت الثورة بها عام ١٨٢٢ بعد نجاح إحدى الجمعيات الشوفونية السرية وتدعى جمعية فليكي هيتريا **Philki Heteria** في الدعوة إلى الثورة ضد الوجود العثماني في بلاد اليونان وسرعان ما وجد العثمانيون انفسهم في موقف حرج لا سيما بعد فشلهم في القضاء على الثورة، فاصدر السلطان فرمانا بإسناد ولاية المورة إلى محمد علي بإيعاز من سفير النمسا، ولم يقدر محمد علي الهوة التي دفعه السلطان إليها حق التقدير ودفعه حبه لتوسيع رقعة دولته إلى الانغماس في تلك الحرب حتى النخاع والتي انتهت بتدمير أسطوله بالاضافة إلى أسطول الدولة العثمانية في مواجهة مهينة في نافرين انظر :- محمد صبري : مصر من محمد علي إلى اليوم، القاهرة ١٩٢٧، ص ٦١.

أرسل ولده – أسدُ الآسَاد، وسـيف الجهـاد – إبـراهيم باشـا /٢٩و بالعساكر والأجناد إلى تلك البلاد ؛ فخاض في معَامِعها، وقاتـل فـي وقائعها.

فاستَعظَم من الدَّولة ذلك الأمر بعد أن كـان موعُـوداً منهـا

٥ بإضافة ولاية سُوريَّة إلى أحكَام مصر، فلم يعد يُمكنهُ الاصطبار على ذلك الذُّل والعَار، فجهَّز ولده – بطل الأبْطَال، وليـث الـوغى فـي النِّزال – إبراهيم باشا أن يسير في الحال لفتح الدِّيار الشَّامية، وأردفهُ بالعِمَارة الحربيَّة انتِقَاماً من عبد الله باشا، ورغمـاً لأنفـه لتـستريح النَّاس من ظُلمه وعَسَفِه، وأصحبه بثلاثين ألفاً من شُـجعان العَـسكر

١٠ الذين لا يُبالون بالخَطر، بل يهجمُون على المـوت الأحمَـر بقلـوبٍ أقوى من الحجر.

شعر :-

/٢٩ظ جيشٌ يسير النَّصرُ فوق لوائـه   فتهابـهُ الأعـدَاء قبـل لقائـه

جيشٌ تـذل لـه الرِّقـاب وتنحنـي   طَوعاً وتحمى تحـت ظـل حِمائـه

وكانت العمارة البَحرية مُؤلَّفة من ستة عشر قطعةٍ حربيَّـة، وسبعة عشر سفينة وسقيَّة تحت رياسة أسد العرين، وفخر الأمَاجـد

١٥ المُعتبرين عُثمَان بك نُور الدِّين، وكان خرُوجه من بُوغاز الأسكَنْدَريَّة في غُرَّة جُماد الأوَّل سنة ١٢٤٧هجرية، فوصل في خمسة أيَّام إلـى حِيفا – إحدى أسَاكِل بر الشَّام، وأمَّا القائد العام، والبطل الهُمام فإنَّـه سار قاصداً الدِّيار الشَّامية، على طريق البريَّة، وكـان مـن جُملـة

مُعاونيه عبَّاس[1] باشا ابن أخيه، وإبراهيم باشا الصَّغير[2] وغيرهُما /٣٠و من القوَّاد المَشاهير.

ولما بلغ عبد الله باشا هذا الخبر؛ أحاط به الخوف وانْذَعر، وطار من عَيْنَيه الشَّرر، ففرق الأمْوَال وجمع الفُرسان والأبْطال، وشرع في تحصين القلع[3] والأسْوار، واستعدَّ للقتال والحِصار، وأرسل يستدعي من حوله من المناصب والأعْيَان، وكتب بخط يده إلى الأمير بشير حاكم لبنان يستنجده لهذا الأمر ويقول له أن المَشايخ [من][4] بني الجرَّار وبني صقْر وعرب السَّلط وطُوقان وبني صَخْر ينتظرون قُدومه إليهم ؛ ليكون رئيساً عليهم، وفي أثناء ذلك يذكُره بالصَّداقة القديمة والمحبَّة، ويثني على أمانته وحفظه المودَّة والصُّحبة مُتمثِّلاً بقول الشَّاعر :-

/٣٠ظ وأنت الخالصُ الذَّهبُ المُصفَّى بتزكيتي ومِثلي من يزكِّي

وجعل إبراهيم باشا يُواصل التَّسيار، ويسابق بمسيره الكوكب السيَّار، ويفتح في طريقه المُدن والأمْصار، حتى أشْرَف بالعساكر المصريَّة، والجُنود الجِهادية في عشرين من تشرين الثاني سنة ١٨٣١ مسيحيَّة على قلعة عكَّا من الجهة الجنُوبيَّة، فتزلْزلت بقدُومه الدِّيار الشَّامية، وارتجت من هيبته رجةً قوية، وكانت عكَّا في تلك

[1] عباس بن طوسون بن محمد علي.

[2] يكن إبراهيم باشا بن أحمد بن إبراهيم باشا الكبير المعروف بإبراهيم باشا الصغير.

[3] كذا بالأصل، ولعله أراد "القلاع".

[4] زيادة اقتضاها السياق.

الأيام من أشهر مدن بر الشام، وكرسيّ الولاة والحكام، ذات أبراجٍ حصينة، وقلاع متينة، وأسوار مكينة، مشحونة بالمُهمَّات، وآلات القتال والجبخانات، وفيها من رجال الحرب وفرسان الطعن والضرب، /٣١و نحو اثنى عشر ألف مقاتل، بين فارس وراجل[1].

٥ وكان فصل الخزين قد مضى، وانتهى وانقضى، وفصل الشتاء قد هجم وأتى، فنزلت العساكر والجنود في مدينة حيفا وتلك الحدود، ونصبوا المضارب والخيام، ونشروا البنود والأعلام، وفي ثاني الأيام تقدّم إبراهيم باشا في فرقة قويّة من الفرسان والطوبجية، تنيف عن ستّة آلاف من كل أسدٍ كاسر وبطل زحّاف، لا يهاب

١٠ الموت ولا يخاف، وبنى أتراساً متينة على تلٍّ هناك تجاه المدينة يقال له تل الفخار، ووضع عليه المدافع والقنابل الكبار.

---

(١) كانت عكا محصنة بأسوار منيعة شاهقة الارتفاع وتحميها عدة أبراج تتوزع على شكل قوس كبير من البحر إلى البحر على رأس خليج عكا أشهرها برج النبي صالح الذي أحدث به إبراهيم باشا ثغرته الرئيسية وبرج كريم وبرج الزاوية، والأسوار التي شيدت لحماية المدينة من جهة البحر أقل متانة من تلك المواجهة للبر وذلك لأن عمق المياه في الخليج لم يكن يسمح للسفن الكبيرة بالاقتراب وبالتالي فإن الحصار البحري للمدينة لم يكن مجديا إلا من ناحية إحكام الحصار ومنع تسرب الإمدادات للمدينة عبر منفذها البحري، وقد رمم أحمد باشا الجزار أسوار المدينة بعد جلاء الفرنسيين عنها وقام عبد الله باشا بتجديد أسوارها قبيل حصار إبراهيم باشا ومن ثم فإن هذه الأسوار كانت بحالة ممتازة وقت أن أشرف عليها المصريون في شتاء عام ١٨٣١، عن عكا واستحكاماتها الحربية قبيل حملة إبراهيم باشا راجع عمل أسد رستم :-

Notes on Akka and its Defences under Ibrahim Pasa , Beirut 1926.

وأرسل إلى عبد الله باشا يقول ضمن كتاب مع رسول أن يُسلِّم المدينة بطريقة أمينة ويربح /٣١ظ دم العباد وسلام البلاد، ويبادر إلى مُلتقاه، ويعتذر مما جناه، ويدخل تحت لواء الحَضرة الخديويَّة، ويعيش باقي أيامه في رغدٍ ورفاهية، وعيَّن له أجلاً للحضور، وتسليم الحُدود والثُّغور، إن تجاوزه ولم يخضع لأمره يضربه بالمَدافع، ويهدم البلد بأسره ويجعل كيْده في نَحْره، وحينئذٍ يأخذه أسيراً، ويُرسله إلى مصر ذليلاً حقيراً، ولا يعُود يفيده الندم بعد فوات الفرصة وزلة القدم، فلمَّا وقف على كتابه، وفهم فحوى خطابه، شقَّ ذلك عليه وعَظُم الأمر لديه، وحدثه عقله السَّقيم بعدم الطَّاعة والتَّسليم، وتصلَّب على المُحاصرة والمُقاومة، وأصرَّ على المُدافعة والمُصادمَة، ورفض أمر /٣٢و الصُّلح والمُسالمة، وسعى بسوء تدبيره على خَرابه وتدميره، ولم يعلم أن أيَّامه قد مَضت، ومُدَّة أحكامه زالت وانقضت، واستمرت بينهما المُخابرة والمُفاوضة والمُذاكرة نحو عشرة أيام وعبد الله باشا يُحاوله بالكلام، ولا يقدِّر عواقب الأيَّام.

وكان مستر بيتر أبوت - قُنسل دولة الإنكليز في بيروت - لما بلغتهُ هذه الأخبار سار قاصداً تلك الدِّيار، واجتمع بإبراهيم باشا في الخيام بعد مسير ثلثة[1] أيام، وأخذ يلُومه بالكلام على قدُومه إلى برِّ الشَّام، بدون رخصةٍ سنيَّة من الدولة العليَّة بقوله له "إن هذا العمل لا توافق عليه بقية الدول، لا سيَّما الدولة الإنكليزية المُتحدة مع الدولة /٣٢ظ العُثمانية على حفظ الصداقة وإخلاص الطُّويَّة"، فاغتاظ إبراهيم

(١) كذا بالأصل، والصواب "ثلاثة".

باشا وتأثر، غير أنه لم يظهر له من غيظه ما أضمر، وقال له "اعلم أيها الصديق الأكرم أني حضرت بالعساكر الجهادية لاستخلاص الدّيار الشّامية انتقاماً من عبد الله باشا بأمر الحضرة الخديوية، فإن كان ذلك لا يُوافق دولة الإنكليز فعليها أن تخاطِب به جناب والدي
٥ العزيز، فمتى أمرني بالرجُوع عدلت عن هذا المشرُوع، وإلا فلا أرجع بدون ذلك ولو قامت علي جميع المَمالك"، ثم نهض على الأثر، وتوجه قاصداً المُعسكر، ولم يلتفت إلى حديث مستر أبُوت وكلامه، ولا اكترث بتعنيفه وملامه، واستمرّ على ما كان /[٣٣و] قد قصد من ضرب الأسوار وهدم البلد.

١٠ في حصار عكا وفتح أساكل عرب استان واستيلاء إبراهيم باشا على جبل لبنان

فلمّا انقضت مُدّة الميعاد المعهُود، وفات وقت الأجل الموعُود، وعبد الله باشا ما زال مُصرّاً على عدم تسليم البلد، وباقي الحدُود ؛ استعد إبراهيم باشا وتأهب في اليوم الرابع من شهر رجب
١٥ على ضرب المدينة وهدم أبراجها الحصينة، فأصدر الأوامر إلى رُؤساء الطُّوبجية، وقبطان باشا العمارة الحَربية بإطلاق النار على الأبراج والأسوار، فقامت الحرب على قدمٍ وساق، وارتجت جوانب الآفاق من ضرب المدافع والقنابل، وأصوات البارود الهائل، /[٣٣ظ] وكان الضرب مُتّصلاً من الخارج والداخل حتى كان يسمع السّامع
٢٠ أصوات القنابل والمدافع إلى مدينة دمشق الشام على مسافة أربعة أيام.

وكان قد أرسل إلى الأمير بشير حاكم الجبل كتاباً يستدعي حضوره بالعجل، ليقرره في مركز حكومته، ويعيش في ظل نعمته، فلما وقف على هذا الخطاب داخله الخوف والاحتساب، وجمع مناصب لبنان ومن يعتمد عليهم من الأعيان واستشارهم في هذا الشأن، فاستقر رأي الجمهور على عدم التسليم والحضور، خوفاً من عواقب الأمور.

فلما أبطأ في قدومه وأصرَّ على عدم تسليمه استشاط إبراهيم باشا غضباً، وتبدلت فُرات /٣٤و حلمه لهباً، وكان قد صمَّم النيَّة على أن يدهمهُ بالعساكر النِّظامية، ويقبض عليه جبراً، ويستولي على لبنان قُوةً وقهراً، ثم توقَّف وعدل عن هذا العَمل، لأن أباه كان قد أوصاه به قبل خروجه من القاهرة بالعَساكر الظَّافرة، نظراً لما كان [قد][1] وقع له عنده من التَّقرب والمودَّة وذلك عند زيارته الدِّيار المصرية، وتمثله أمام الحضرة الخديوية في طلب العفو والأمان – حسبما قرَّرناه قبل الآن[2] – فكتب إلى والده بمصر يعلمُه بهذا الأمر، فلما وقف العزيز على هذا الخبر، داخله الغيظ والكَدر، وتأثَّر من مُخالفة الأمير، وكتب إليه كتابا على سبيل التنبيه والتَّحذير، يُعاتبه على ذلك القُصور، /٣٤ظ ويتهدده بسوء العاقبة إن تأخَّر عن

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

[2] الإيماءة إلى ما سبق وذكره المؤلف من توسط الأمير بشير عند محمد علي في شأن مخاطبة السلطان في العفو عن عبد الله باشا، راجع ص ٦٩.

الحضور، فمن جُملة فحْواه: "إن لم تحضر إلى خدمة ولدي إبراهيم باشا سريعاً، وتكون لأوامره مُنقاداً مُطيعاً، فليكن عندك يقيناً أني سأخرّب مَسَاكنك، وأغْرس أرضها عنباً وتيناً، وقد بالغنا في النّصيحة، وحذّرناك بأقوالنا الصّحيحة، فاستيقظ من رقادك، واحذر عاقبة عنادك، قبل أن تَهجُم العساكر عليك، وتأخذ ولايتك من بين يَديك".

فاضطَرب الأمير بشير من هذا التّهديد والتّحذير، وأثر فيه هذا الكلام، وخاف عَواقب الانْتقام فصمَّم على التأهُّب والمَسير، لخدمة إبراهيم باشا بدون تأخير، وركب من يَوْمِه في مائة فارس /٣٥و من قومه، ولما أقبل على المعسكر خرج إلى مُلتقاه أمير آلاي العسكر، وتبعه حنّا بك البحري رئيس الكتبة، ومُصطفى أغا بَربر، وبعض رُؤساء العساكر والجنود بالمُوسيقا وإطلاق البارُود، فدخلوا به الأوردي[1] بموكبٍ عظيم، ونزل في الخيمة المُعدّة له قرب خيمة إبراهيم[2].

وكان إبراهيم باشا حينئذ يجُول بين الجيُوش والقوّاد، ويُرتب الصُّفوف والأجْناد، وينشطهم على الهجُوم والثّبات، والحرب قائمة

---

[1] الأوردي مخيم العسكر.

[2] قارن رواية المؤرخ المجهول عن استقبال الجيش المصري للأمير شهاب، مذكرات تاريخية، ص ٤٠.

على عكّا من جميع الجهات، وعند رجُوعه في المساء استدعى الأمير إليه، فطيَّب قلبه، وصفا خاطره عليه، ولاطَفه بالحديث والكلام، وأجلسه معه على الطّعام، وشمله باللُّطف والإحسان، /٣٥ظ وفوَّض إليه أحكام جَبَل لبنان، واتخذه من جُملة الحَواشي والأغوان، ٥ وكان قد أرسل آلاياً من العساكر بالمُهمَّات والذّخائر لاستخلاص الثُّغور والأسَاكل، تحت قيادة الليث الباسل والبطل الحلاحل[1] صاحب القدر العَليّ حسن بك المِنسترلي، فاستولى على صيدا وصُور وبيروت وطرابلس وباقي الثُّغور.

وكانت العمارة الرَّابطة تجاه عكّاء قد تعطَّل بعضها من شدِّة ١٠ العواصف والأنْواء، ووقوع الكلل[2] الكبار التي كانت تسقط عليها كالأمْطَار من الأبراج والأسْوَار في الليل والنَّهار، فأقلعت بأمر إبراهيم باشا إلى الأسكندرية في آخر كانُون الثاني سنة ١٨٣٢ /٣٦و مسيحيةٌ.

---

[1] كذا بالأصل.

[2] الكلل أو "القلل" هي قذائف المدافع.

في قدوم مُحمَّد باشا والي حَلب وسَرْعسكر[1] بلاد العرب إلى حِمْص بأمر السُلطان لاستخلاص أساكل عربستان

ولما بلغ السلطان محمُود خان[2] قدوم إبراهيم باشا إلى عربستان، وافتتاحه المُدن والبُلدان، استولى عليه الغيظ والغضب، وكتب إلى مُحمَّد باشا والي حَلب يقول له من جُملة الكلام :- "اعلم أيها الوزير الهُمام [أنَّه][3] قد انتَهى إلينا في هذه الأيَّام مجيء إبراهيم باشا

---

[1] سَرْ عَسكَر أي القائد العام.

[2] السلطان محمود خان الثاني (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م : ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) تولى السلطنة في ظروف صعبة للغاية فمن ناحية كان قد عهد إلى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار مهمة إلغاء الإنكشارية وتنظيم العسكر على أساس الجندية الحديث (النظام الجديد) إلا أن الإنكشارية ما لبثوا أن ثاروا وقتلوا الصدر الأعظم، كما تقطعت أوصال الدولة في عهده فتجددت هجمات الروس على بلاد الدولة حتى وصلوا إلى إدرنة حيث آل الأمر الى عقد المعاهدة المعروفة بمعاهدة ادرنة والتي اعترفت فيها الدولة العثمانية بحيوية مصالح روسيا في البحر المتوسط، وخرجت فعليا ايالة بغداد والموصل عن سلطان الدولة بسبب عصيان سليمان باشا، كما قام الوهابيون في عهده بالاستيلاء على الحجاز، كما ثارت بلاد المورة على حكم الدولة، ولولا جهود محمد علي المساندة للسلطان في بادئ الامر ما كان أحد يدري الى أي حد قد تصل الأمور، إلا أن جو الصفو بينه وبين محمد علي قد تبدد بسبب تجاهل السلطان (بإيعاز من محمد خسرو باشا والي مصر الأسبق وعدو محمد علي اللدود) لمطالب محمد علي بضم سوريا إلى مصر فاستولى محمد علي عنوة على الشام وأعالي الأناضول.

انظر : يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ص ١٤٤ – ١٤٨ ؛

Edward Shepherd Creasy: History of theOttoman Turks from the beginning of their empire, london 1856, Vol ii, PP 446 – 451.

[3] زيادة اقتضاها السياق.

بالعساكر المصريَّة لفتح الديار الشَّامية، والاستيلاء على ولاياتها واستخلاص أقاليمها وإيالاتها ومُدنها وباقي مُلحقاتها، واستولى /٣٦ظ على أطراف البلاد، وانقادت إليه العباد، فلذلك قد أصْدَرنا الأوامر والمَراسيم بتجهيز العساكر وإرسالها لتلك الأقاليم تحت راية السِّردار الأكْرم حُسين باشا الأفْخَم، فيجب عليكم أنه بوصُول أمْرنا هذا إليكم أن تحصِّنُوا القلاع والمَعاقل بالمدافع والمَكاحِل، وتجمعُوا العساكر والجَحافل، وتستخلصُوا منه تلك الأسَاكل، قبل قدوم الجيوش المذكُورة والعساكر المنصُورة".

فلما وصل هذا المنشُور إلى الوالي المذكُور شرع في تحصين البلد بالسِّلاح والعدد، وجمع العَساكر والجنُود، وعقد الرَّايات والبنُود، وسار إلى حمص من غير توان، في سَبعة آلاف عنان من الأرْناوط[1] والهوَّارا[2]، /٣٧و والعُربان، وحصَّن قلاع المدينة بالمدافع والأبنية المتينة، وأقام بفُرسانه فيها، وعسكَر في نواحيها مُنتظراً قدوم العساكر العُثمانية، ومجيء حُسين باشا من القُسطنْطينية.

وأرسل أمامه عُثمَان باشا اللبِيب – وكان ذا بأسٍ شديد، ورأيٍ مُصيب – في أربعة آلاف مُقاتل بين فارسٍ وراجل، لقتال العساكر المِصريَّة، واستخلاص المُدن البحرية، فسار بهمَّةٍ وحميَّة، واستولى على اللادقية[3]، ثم تقدَّم بعزمٍ وثبات إلى نواحي طَرابُلس

(1) كذا بالأصل، والصواب "الأرناؤط".
(2) كذا بالأصل، والصواب "الهوارة".
(3) كذا بالأصل، والصواب "اللاذقية".

وتلك الجهات، فالتقاه من عساكر مصر شِرذِمَة نحو خُمسمائة نَسمة، وكان في مُقدّمتهم الأسد الوثّاب الأمير خليل ابن الأمير بشير شهاب، /٣٧ظ وبمعيّته ستّمائة بطل من عسكر الجَبَل.

ولما وقعت العيْن على العين، اشتعلت نيران الحرب بين العَسكَرين، والتقت الفُرسان بالفُرسان، والأقْرَان بالأقْرَان واختلف الضِّراب والطِّعان، وسالت الدِّما[1] على أديم الصَحْصحَان، وأخذ حدَّه السَّيف والسِّنان، ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى تضَعْضَعت من عُثمان الأركان، فولى الأدبار، واستنجد بالفرار، ورجع بمن بقي معهُ من الأنفَار إلى قلعة الحِصن وبلاد عكار، وهو في حالة الذُّل والانكِسار.

وحينما بلغ إبراهيم باشا هذا الخبر ومجيء مُحمَّد باشا إلى حمص بذلك العسكر - وهو إذ ذاك مُحاصر /٣٨و عكّاء الحَصينة، وقد كاد أن يفتحها ويهدم أسْوارها المَتينة - تجهَّز من يومه وسار في أربعة آلاف فارس كرَّار، قاصداً تلك الدِّيار، وترك عكّاء تحت الحصار[2]، ثم عجَّل في السَّير وسابق بمسيره الطَّير، فأدرك عُثمان

---

[1] كذا بالأصل.

[2] سبق أن استخدم إبراهيم باشا ذات التكتيك في قطع الطريق على أعدائه قبل أن ينجحوا في مُحاصرته هو نفسه بين الجيوش القادمة وبين من كان يُحاصرهم قبل وصول النجدات إليهم، ففي حرب المورة وقع إبراهيم باشا في موقف مشابه عندما نجح في إحكام طوق حصاره على نفارين "Navarin"، ثم ما لبث أن سار جيش من الثوار لنجدة المدينة ورفع الحصار عنها، وخطط المهاجمون لجعل إبراهيم باشا وقواته بين المطرقة والسندان فآثر إبراهيم باشا عدم انتظار حدوث مثل هذا الموقف الحرج وبادر بترك تشكيلات الجيش الرئيسية المزودة بالاسلحة الثقيلة تباشر مهامها في حصار المدينة وسحب الوحدات خفيفة الحركة لمباغتة المهاجمين، انظر :-
السيد فرج : حروب محمد علي ص ٩٣؛ احمد فهيم بيومي: حرب كريت والمورة، بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري لابراهيم باشا، ص ٢٤٥.

باشا في أرض القُصير، وكان مُحمد باشا قد أمده بالمُهمَّات والذَّخائر، وأضاف إليه فرقة من العَساكر، فناوشَهُ الحرب، وبادره بالطَّعن والضَّرب، فقهره وكَسره، وفرق جيشه وعسكره، وفر عُثمان باشا من سَاحة المَعمعة، وترك الذَّخائر والمُهمَّات والأمتعة، ولجأ إلى حِمْص بمن سلم من جنده معه بعدما قتل من عَسكره نحو ألف قتيل، ومن المصريِّين /٣٨ظ نفر قليل، ثم رجع إبراهيم باشا على الأثر بعدما غَلب وقهر، وفاز وانتصر، وغَنم وأسر، وبلغ القَصد والوطَر، وأتى دير القَمر، وترك فيها ألف وخُمسمائة نفر، وعاد إلى عكًّا بعد ذلك الانتصار، وشدَّد عليها الحصار.

وكانت لإبراهيم باشا في حصار عكَّاء مواقف غريبة، ومشاهد مُدهشة عجيبة، تدل على شِدة بأسه وشجاعته، وحُسن[1] تدرُّبه في أبواب الحَرب وبراعته، فمن ذلك ما حدثني به بعض الأعيان من أهالي عربستان ممن كان في خِدمته، ومُقدما بين رجَال دولته، قال :-

"خرج إبراهيم باشا ذات يوم في جَماعة من قواده مُنفرداً عن عسكره وأجناده، /٣٩و وقصد مكاناً يبعد عن المدينة نحو نصف ساعة، وكنت أنا من جُملة الجَماعة، ولما انتهينا إلى ذلك المكان نزل عن ظهر الحصان، وجلس على الرَّمل مُتَّكئاً على رُكبتيه، فنزلنا نحن أيْضاً وتمثَّلنا وقُوفاً بين يديه، فانتزع النظَّارة وكشف المدينة وشاهد أسْوارها المَتينة، وأبْراجها وقلاعها الحَصينة.

[1] بالأصل "وتدربه" ثم شطبها المؤلف وعدل عنها إلى "وحُسن تدربه".

قال صاحبي : "فما كان إلاّ كلمحة بصر حتى تبدّل صَـــفونا بالكَدر من وقُوع الكَلل الكبار التي كانت تسقط حولنا مـــن الأبـــراج والأسوار، فخفت من عواقب الأمُور ولمت نفسي علـــى الحـــضُور، وعلمت بأن الأعداء أبصرُونا ووجّهوا مدافعهم نحونا ليهلكُونا، فقلت

٥ له -وقد ضاع فكري وحِرت في أمري- أدام الله /٣٩ظ أيّامك ونصر أعلامك، ومكّن من رقاب الأعداء حُسامك، إن مجيئنا إلى هنا كـــان غَلطاً، وجُلوسنا في هذه الأرض خطرٌ عظيم وخطأ، فقم بنا لنـــذهب قبل أن يمسّنا العَطب، فتبسّم ضاحكاً من مقَالي، ولـــم يُجبنـــي علـــى سُؤالي.

١٠ وكان قد طلب كبشاً مشوياً فجيء به إلى دولته، وشُوي أمـــام حَضرته، ومازلت أكرّر عليه الكلام، وأطلب منه الإذن فـــي تـــرك المُقام إلى أن جاء الغُلام بسُفْرَة الطّعام، فعند ذلـــك ألقـــى مـــن يـــده النظّارة وهو مُظهر الشّجاعة والجَسارة، وشمّر على[1] ساعده كالليث الغَشمشَم، وأشار إليّ أن أتقدم، فتقدمت على عجلٍ، وأنا فـــي خـــوفٍ

١٥ ووجل من أصوات /٤٠و المدافع، ووقوع الكلل، وإذا بكلّـــة ســـقطت أمامي كادت تسقيني حِمامي، فخفق قلبـــي وزاد خـــوفي ورُعبـــي، فنهضت من مكاني مُرتعشاً حائراً مندهشاً، كل ذلك وهو جالس كأنـــه صَخرة واد، أو طَود من الأطْواد، غير مُبالٍ بهذه الحال، ولا خطـــر له خوف ببال من جميع هذه الأهوال، وبعد أن أكل وشـــرب، دعـــا

٢٠ بجواده فركب، وركبنا نحن أيضاً وتبعناه، وأنا لا أصـــدّق بالنّجـــاة،

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "عن".

حتى ابْتعدنا عن العدو، وصرنا في ساحة الأمان والهدو، فعجبت من جسارته على الأهوال والنوائب، وعدم اكتراثه بالأخطار والمصائب.

ولما بلغ إبراهيم باشا قدُوم عساكر السُلطان إلى حدُود عربستان ؛ أرسل /٤٠ظ عبّاس باشا إلى بَعَلْبَك في اليوم الخامس عشر من نِيسان، وأصحبه بآلايين من المُشاة والفُرسان؛ ليقيم مُحافظاً في ذلك المكان.

في فتح المدينة وهدم أبراجها الحَصينة

وكانت الحَرب على عكّاء قائمة، والمدافع على أبراجها مُتصلة دائمة، حتى هُدم أكثر حصونها وأسْوارها، وسقط رونْق مجدها وفخارها من وقوع الكلل والقنابل، وهجوم الأبْطَال والجَحافل.

وكانت[1] سُكّان البلد من الشيخ إلى الولد في خوف واحتساب، وقلق واضطراب من سقوط الكلل وأصوات البارود، فكانُوا يستترُون تحت العقُود، واستمر /٤١و القتال على هذا المنْوال مدة سبعة شهُور بلا انقطاع ولا فتُور، وكان المصريُون في أثناء الحِصار يحفرُون حُفراً تحت أسَاسَات الأسْوار، ويضعُون فيها البَارود ويضرمُونها بالنَّار، فتهدِم ما فوقها من البُنيان، وتسحق المدافع وتقتل الفُرسان[2].

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) كان هذا التكتيك معروفا للجيوش الشرقية منذ في مهاجمة الأسوار والقلاع، لا سيما بعد أن نجح السلطان سليمان القانوني في استخدامه ببراعة في نسف أسوار رودس أثناء حصارها انظر :-

العباسي : منح رب البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق فيصل الكندري، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثامنة عشرة، الكويت ١٩٩٨، ص ١٠٧.

ولما كان يوم الجُمعة الواقــع فــي ٢٦ ذي الحجــة ســنة ١٢٤٧هجريَّة صمَّم إبراهيم باشا النيَّة لقيام هَجمة قويَّة، لينتهي بهــا الحال وتكون واقعةَ الانْفصال، فجمع أركان حربه إليه، وأخبرهم بما قد عوّل عليه، وأعطاهم الأوامر والإرشادات اللازمة، المُتعلقة بكــل واحد منهم في تلك المُهاجمة، وعيَّن لها اليوم الثَّاني من ذلك النَّهــار، وهو السابع والعشرين /[٤١ظ] من ذي الحجَّة والثامن والعــشرين مــن آيــَار.

ولكن لمَّا كان هذا الدّستور الأكْرم يحب توفير أسْبَاب سَــفْك الدَّم ؛ أرْسَل إلى عبد الله باشا سفيراً يطلب إليه – أخيراً – أن يُــسلِّم المدينة طَوعاً، ويقلع عن التشبُّث بما لا يُجديه نفعاً، قبــل أن تفُوتــه فُرصة الأمَان، ويقع في قبضة الأسْر والهَوان، وأنه غير مُنفك عــن هذا الشّأن ولو تحزّبَت عليه جبابرة الأرض ومَردة الجان، فلم يلتفــت عبد الله باشا إلى هذا التَّحذير والتَّنذير، وعــدَّه مــن بــاب الخَــوف والتَّقْصير، وقال للسَّفير المذكُور :– "إن مُدة الحصار لم تَتجاوز بعــد سبعة شهُور، والمدينة – من حمد الواحد الأحَد – مشحُونة بالــسّلاح والعدد، /[٤٢و] وفيها من الجَبْخَانات والذَّخائر والعُلوفــات مــا يكفيهــا خمس سَنوات، فمتى جاء الوقت المعهُود، وفــرغ الــزَّاد والبــارُود، وانقطع عنَّا الإمْدَاد والإسْعاف ننظر حينئذ في إنْهَاء هذا الخلاف ".

فلما عاد الرسُول إلى مَولاه، وبلغه جواب عبد الله تعجَّب من وقاحته، وأمر من ساعته بإطلاق المدافع والقنابــل علــى الحُــصون والمَعاقل، فأُطلقت طول ذلك الليل، وانصبت علــى البلــد كعــارض السَّيل، ولما كان الصباح تأهَّب العسكر للهجُوم والكفــاح، فقُرعــت

الطُّبول، ولمعت النُّصُول، وخفقت الرَّايات ونُفخ النَّفيـر، وانقَـسمت الآلايَات إلى فـرقٍ وطَـوابير، وسـارت العـساكر كالأسُـود /٤٢ظ الكواسر، بحسب صدور الأوامر التي كان أعطاها سـيِّدها ومولاهـا إلى القُّواد، وزُعما[1] الأجنَاد الذين عليهم الاعتمـاد، طالبـة القـلاع والأبْراج، بدون خوفٍ ولا انْزعَاج، وفـي مقـدمتها هـاتف الـسَّعد والإقْبَال، ينشد قول من قال :-

هيَّـا بنـا هيَّـا بنـا	للحـرب نلقـى ضِـدَّنا
نحـنُ الأسُـود الكاسـرة	نحـن الـسُّيوف البَـاترة
هيَّـا بنـا هيَّـا بنـا	للحـرب نلقـى ضـدَّنا
بارُودنـا شِـراره	يـشْوي الوجـُوه نـاره
وسـيْفُنا بتَّـارة	مـن العـدى تُمكـنًا
هيَّـا بنـا هيَّـا بنـا	للحـرب نلقـى ضـدَّنا
/٤٣و نحـن الجهـاديُون لا	نخْـشَى غبـاراً إذ عـَـلا
ولم نـدق فـي الـبلا صـدراً	إذا المَـوْت دنـا

ولم تكُن إلا ساعة من النَّهار حتى أشرفُوا علـى الأسْـوار، واندفقوا عليها كالبحار، وكان أوَّل من هجم بأمر إبراهيم طابوراً من الآلاي العَاشر على برج كريم الكائن في الجهة الغربية من الأسْـوار الشَّمالية، ثم أتبعه على الأثر ثلاثة طوابير أُخر، تحت قيادة الـشَّجاع

[1] كذا بالأصل.

الشهير إبراهيم باشا الصّغير، وانعطفوا بحملاتهم أسرع مـن البـرق على الأبراج الكائنة تجاه الشرق، وكانت أكثر هذه المواضع مثقُوبـة بكلل المَدافع.

وأما أسد الآسَاد وسيفُ الجهاد، وقائد القوّاد فكان سائراً على أثر العساكر، وبمعيَّته /١٤٣ظ طابُوران من الآلاي الخَامس والعَاشـر، وكان يجُول على ظهر جواده بين صفُوف فرسانه وأجنـاده، وهـو ينخيهم بالكلام، وينشّطهم على الهجُوم والاقْتِحام، ويعـدهم بالمكافـأة والإنعام، فللّه درُّهم من فُرسانٍ وأبطالٍ، مـا أشـدَّهم فـي الحـرب والقتال، وأثبتهم في ميدان النِّزال على المَخاطِر والأهوال ؟!.

وكان الرَّصاص يتناثر عليهم كالبرد من الأبْرَاج ومتـاريس البلد، وهم ثابتُون ثبات الجبابرة أو الأسُود الكاسـرة، غيـر مُبـالين بالخطر طمعاً بالنّصر والظّفر، وبلوغ القصد والـوطَر، بـل كـانوا يهجمُون على الأسْوار والحـصُون، بهمـمٍ وعـزائم أمـضى مـن الصَّوارم، وينصبون عليها السلالم، ويتسلَّقُون فوقها كالضَّراغم.

هذا /١٤٤و ولم ينتصف النَّهار، حتى تمكَّنُوا بـالقوة والاقْتـدار على أكثر الحصُون والأسوار، ونشروا عليهـا بيـارق الانْتـصار، فاستولى جيش الطابُور الثاني على المراكز والمباني التي في الناحية الشَّرقية المُتصلة بأطراف الأسْوار الـشّمالية، واسـتولى الطـابُور السَّادس من الآلاي الخامس على جميع الصوايح التي في جهة النبي صالح، وهكذا استولى الآلاي الثـاني الاحتيـاطي علـى المتـاريس الواقعة بقرب الشّاطئ.

فلمّا رأى عبد الله باشا ذلك الهَول العظيم والخَطبُ الجَسيم ؛ ندم على عدم الطّاعة والتّسليم، وعلم أن نَجمه قد سقط، وعقد عزه انحلّ وانفرط، وأنه عما قريب يؤخذ أسيراً، /٤٤ظ ويقاد أمام عدوّه ذليلاً حقيراً بعد أن كان والياً ومُشيراً، ولكنه أظهَر الصّبر والجلد، وسار بالعسكر إلى خارج البلد بقصد المُدافعة والمُمانعة، وصد الهَجمات المُتتابعة، فخاض ساحة المعركة، وجرت بينهم وقعةٌ مُهلكة قُتل فيها من قوّاد المصريين وشُجعانها الموصُوفين الفاضل النّبيل، والسيّد الجليل الأميرالاي إسمَاعيل، وبموت هذا الليث الأذرع ارتبك جيش المصريين وتزعزَع، فارتد وتأخّر، وضعفت عزيمتهُ وتقهقر.

فلما رأى إبراهيم باشا أن العَسكَر قد أمسَى في ارتباك وخطر، خشي من الهزيمة والانكِسار بعد ذلك الفوز والاستظهار، فتقدم نحو جنُوده /٤٥و بحرسه وهو راكب على ظهر فَرسه، وجعل يُحرّضُهم على الثّبات والجهاد، ويحثّهم على الصّبر والجلاد، ويقول "هذا يوم الانتصار، هذا يوم الافتخار، هذا يوم بلوغ الأوْطار". فكانوا تارة يتقدّمون، وتارة يتأخرُون، فعند ذلك سلّ سَيفَه من غمده، وانعطف بالحَملة أمام جُنده واقتحم مَواكب الأعدَاء كأنه أسد البَيداء، فشقّ الصفُوف والتقى بصدره الأسنّة والسيُوف، وأظهرَ بشجاعته العَجب، وفعل فعالاً تعجز عنها جبابرة العَرب[1].

---

[1] يقول المؤلف المجهول : "... فسحب إبراهيم باشا سيفه ورمى حاله [أي هجم] من الصور [يقصد سور المدينة] قُدّام العساكر، وصاروا العساكر يرموا حالهم وراه، وكانت ساعة مهولة واشتغل ضرب السيف حتى أفنوا جميع العساكر الذين في عكا " مجهول : مذكرات تاريخية، ص ٤٠.

فتشجَّعت عزيمة العساكر بهيبة هذا الهُمام الظَّافر، والحُسام الباتر، وداخلتهم الحَماسة والفُتوَّة، وارتدُّوا على أعدَائهم بنشاط وقوة، وسدُّوا عليهم الطُرق /٤٥ظ والطُّرايق، وألهبُوهم بضرب السيُوف والبَنادق فأزاحُوهم إلى ما ورَاء الخَنادق، ثم قويت عزيمة المحصُورين، وانعطفوا بالحَملة على المُحاصِرين، وحينئذ اختطلت الرِّجال بالرجال والأبطَال بالأبطال، والتحم القتال واتَّسع المجال، وجرى الدَّم وسال، واشتد الخطب وعظُمت الأهوال، وتمكَّنت الصَّوارم في الرقاب والجَماجم، والحراب والخناجر في الصُّدور والخواصر، وكان يوماً من أعظم الأيَّام، وساعة يشيب من هَولها رأس الغلام، لأنَّ الدِّماء كانت تسيل كالمَطر، والجُثَث تتساقط على الأرض كأوراق الشَّجر، والسُّهول تهتز من ضجيج الرجال، وأصوات المدافع، حتى خُيِّل للناظر والسَّامع /٤٦و أن السَّاعة اقتربت، والسَّما[1] غابت واحتجبت، والأرض ارتَجَّت واضطربت، والمدينة احترقت وانقَلبت، ولقد أحسن المَقال وصدق فيمن وصف عكَّا في ذلك اليوم وقال :-

قد قيل أن جَهنَّماً تحت الثَّرى	ما لي أراها فوق عكَّة تُضرَمُ
لو لم تكُن دار الشَّقاوة عكَّةً	ما أضرمتها بالشِّرار جَهنَّمُ

واستمرت تلك المُعاركة والمُهاجمة المُتداركَة من الصَّباح إلى بعد العصر حتى هبت ريح النَّصر، وكانت قد كلَّت جمُوع عبد الله باشا، وانحلَّ عزم نشَاطها وتلاشَى، وعجَزت عن حماية البَلد،

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "الشمس".

ولم يعُد لها أدنى ثبات ولا جَلد خوفاً مـن حلُـول البَـوار، ونـزول الدّمار، فألقوا سلاحهم /[٤٦ظ] وسـلّمُوا أرواحهـم، وطلبـوا لأنفُسـهم الأمان، واختاروا الأسْر والهَوان.

وانصبّت العساكر المصريّة كالسِّباع، واندفعُوا على البَلد أشد اندِفاع بقلُوبٍ لا تخشَى المَوت ولا ترتّاع، وتـسلّمُوا بـاقي الأبـراج والقلاع، واستولُوا على مدينة عكّا عُنوةً وقهراً بعد حـصار سـبعة أشهُر براً وبحراً، وتسلّم إبراهيم باشا زمام تدبيرها، وقبض على عبد الله باشا وزيرها وألقاه تحت الحِفظ والتّرسيم، بعدما وبّخه على فعلـه الذّميم، وسُلوكه الغير المُستقيم.

وفي اليوم الثّاني الواقع يوم الأحد نزل فـي قـصر البهجـة خارج البلد – وهو أحـد القـصُور المـذكُورة، والمُتنزهـات /[٤٧و] المشهُورة، ولما استقرّ في ذلك المكان خرج إليه الأكـابر والأعيـان وطلبُوا منه الأمان ؛ فأجابهم إلى ذلك الشّان، ثم أمر بكتابة الأوامـر والمَراسِيم إلى ولاة المُدن والأقاليم يُعلمهم بذلك الفتح والنّصر، وأنـه استولى على عكّاء بالقوة والقهر، فكُتبت في الحين، وأُرسـلت إلـى الولاة والمُتسلّمين، وهذه صُورتها :–

" بعد السّلام عليكُم، المنهيُّ إليكم أنه نهار أمْس، قبل غروب الشّمس زحفت عسَاكرنا المصريّة الظّافرة بـالقوّة والـسّطوة القَاهرة، واندفعُوا على مدينة عكّاء اندفاع الأسُود الكَاسـرة، وبادروها بالمُهاجمة، واقتحمُوها بالمُصادمة والمُقاومـة، إلى /[٤٧ظ] أن فتحُوها بقوة الحرب والنّار الدّائمة، وصـعدُوا أسْـوارها

الرّفيعة، ووطئُوا أبراجَها المَنيعة، وغـدت عـسَاكر الأعـداء مقهُورة أمام عَساكرنا المنصُورة".

ولما تضعْضعَت منهم الأركان، ورأوا ماجَرى وكـان رفعُـوا الرّايات وطلبُوا الأمان فأجبناهم إلى سُؤالهم، وبلّغناهم غايـة آمالهم، وعاملنَاهم بالرّفق والإحْسَان، شـفقة علـى الأهـالي ٥ والسُّكان، ورأفةً بالبنات والنّسوان، والأطْفَال والـصّبيان[1]، وأخرجنا عبد الله باشا وكتخُداه وقوّاد عـسكره وزُعمـاه، واستولينا على عكّاء قهراً بأذن[2] الله، ولأجل إعـلان هـذه البُشرى حرّرناكم هذا المنشُور من ديوان عَـسكرنا المنـصُور /٤٨د لتعلنوا مـضمُونه بالـشنّك[3] والـسُّرور، وتواظبُـوا ١٠ [على][4] تأدية الدّعوات الخيْريّة إلى حضرة بارى البرية بدوام بقاء سعادة ولي النّعم جناب والدنا المُعظّم ".

حُرِّر في ٢٨ ذى الحجّة سنة ١٢٤٧

(سَلامٌ على إبراهيم)

---

(١) أباح إبراهيم باشا عكا لجنوده اثنا عشر ساعة، فلم يبق الجنـود المـصريون لأهل عكا سوى ما يستترون به فحسب، أو على حد قول المؤلـف المجهـول "فشلحوهم بالزلوط" مذكرات، ص ٤٨.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) عادة الشنك هي إطلاق الرصاص في الهواء إلى الأعلى ابتهاجاً واحتفالاً.

(٤) زيادة اقتضاها السياق.

وبعد ذلك استُدعي بعبد الله باشا فحضر بين يديه، وسلَّم عليه واعتذر إليه، وتصوَّر الموت نصب عينيه، فلاطَفه وطيَّب قلبه، وسكن رَوْعَه ورُعبه، وأجلسه بالقُرب من حَضرَته، وقابله بما يليق بحشْمته، ثم أرسله إلى أبيه أسيراً ذليلاً حقيراً، وعند دخُوله عليه وقع على قدمَيه مُلتمساً منه الرّضى[1] والعفو عمَّا مضَى، فلما رأى حاله صفح عنه ورثى له /٤٨ظ وأنزله في أحسَن السَّرايات، وأجرى عليه ما يلزمه من العَلائف والنفَقات، فتباشَرت النَّاس بزوال أيَّامه وسُرَّت بانقراض أحكَامه.

في مسير إبراهيم باشا البطل الهُمام وبهجة الليالي والأيام بفرسان الكفاح وليوث الآجام لافتتاح مدينة دِمَشق الشَام

وكان إبراهيم باشا صاحب الهمَّة العليَّة، والصَّولة الحَيْدرية قد بقى فى نفسه شيء من حرب القُصيرعلى مرَّ ذكره[2]، فأثَّر ذلك عنده تأثيرات مازال يختلج بها صَدره، لأنَّ ما جرى عليه من دولة آل عُثمان لم يكن إلا مَحض افتَراء وعُدوان، /٤٩و إذ لم يكُن في قصده الاعتِداء على حقُوق السُّلطان، ولا الاستيلاء على عربستان، وإنَّما كان جُلّ قدُومَه إلى الدّيار الشَّامية بالعساكر المصريَّة للانْتقام من عبد الله باشا المذكُور لما كان بينه وبين الحَضرة الخديوية من

[1] كذا بالأصل، والصواب "الرضا".

[2] الإيماءة إلى هجوم محمد باشا والي حلب ومحاولة حصر إبراهيم بين جنوده وبين المحاصرين بعكا، راجع ص ٨٠- ٨١، ويلاحظ أن المؤلف يتبنى دفاع محمد علي عن موقفه في انه ما قصد إلا تأديب عبد الله باشا وأن التوسع في الشام جاء كتداعيات لموقف الدولة المعادي ولم يكن مقصوداً في حد ذاته.

الخلاف والنُفور، فما لبثت الدُولة أن بادهته[1] بالشٌر والقتال على ما سوّل لها سُوء الظنّ به واختلاف الأقْوَال، فاضْطر إلى المُدافعة عن نفسه، ودفع الرجال بالرجال، ثم لما تمادَى الأمر على الشقّاق، وأصرّت الدُولة على عَدم الوفاق، لم يجد بُداً من طَرح زمَامها، ٥ والثُبات على حربها وصدامها.

فلما فرغ من حرب عكّاء تجهّز لأخذ دمشق الشام، ونهض /٤٩ظ في سبعة آلاف بطل هُمام، وسار معه الأمير بشير حاكم لبنان في ألف وخُمسمائة عنان، فوصل إليها في اليوم الخامس عشر من شهر حُزيران سنة ١٢٤٨ هجرية، الموافقة لسنة ١٨٣٢ مسيحية، ١٠ وكان الوالي يومئذ على البلد رجل يقال له علي باشا الأسْعد، فلما بلغه قدوم هذا الأسَد اضْطرب فُؤاده وارتَعد، فاستعدّ للقاه، وخرج بالعَساكر لمُلتقاه، فالتقاه المصريُون بقلوب قوية، ونفوس مُعتزّة، وثارت بينهم الحَرب بالقرب من داريا والمزّة، فاقتتلوا في تلك الأرض والتحمُوا بعضهم مع بعْض، ولم تكن إلا جولة حتى انْكَسر ١٥ عسكر الدُولة[2]، فولّى وطلب الهَرب /٥٠و وتفرّق جمعهُ وانْقلب، واغتنم على باشا الهزيمة فنجا بنفسه إلى حمص في حالة ذميمة، ولم تنفعه همّة ولا عزيمة.

---

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "بدأته".

(٢) يعطي المؤلف المجهول وصفاً طريفاً لما حدث صبيحة المعركة بين عسكر دمشق وبين عسكر إبراهيم باشا منها أن حامية دمشق لما أشرفت على جند مصر وعلى عددهم وآلاياتهم تقطعت قلوبهم من الخوف، وأن إبراهيم باشا أدرك هذا بفطنته فأعطى الأوامر لجنده بأن "يقوصوا بالعالي" (أي يطلقوا النيران إلى أعلى) لئلا يصيبوا أحداً من أهل المدينة الذين سارعوا بالفرار على الفور، مذكرات ص ٤٩.

وبلغ إبراهيم باشا ببأسه الشديد ما كان يشتهي ويُريد، ودخل إلى البلد بالنصر والتأييد، فامتلكها ونزل في دار السَّرايا، وانقادَت لأمره جميع الرعايا، فعاملَ النَّاس بلُطفه المعهُود، واستمال نفُوسهم إليه بالعَدل والجُود، فاستنارت بقدومه المَدينة، وتزيَّنت أسْواقها بأحسن الزِّينة، وصفقَت طَرباً أنْهَارها السبْعة، وأصبحت جبهتها بتشْريفه مُبَاركة الطَّلعة.

حاكت عُلاه بدور الأُفُق وابتَهـــ	ـــجت به الأهَالي وقد قرَّت به نَظَرا
وازداد حُسن دمشْق الشَّام واكتسـ	ـبت فخراً بمقدمه إذ جَاء مُنتصرا
/٥٠ظ وصفقت طرباً أنهارها وغدا	داعي التَّهاني بهـا يعتـزُّ مُفْتَخـرا

في وصول حسين باشا إلى عربستان وانهزامه في موقعتي حِمص وبيلان

وكانت العَساكر العُثمانية التي خرجت من القُسطنْطينيَّة تحت قيادة السِّردار الأكْرم حُسين باشا الأفْخَم - الذي سبق ذكره فيما تقدَّم - قد أقْبَلت في تلك الأيَّام إلى أطْرَاف برِّ الشَّام، وكانت ستِّين ألف مُقاتل، بين فارس وراجل، منها خَمسة وأربعُون ألفا من العَساكر المُنتظمة، وخمسة عشر ألفاً من الأتْبَاع والخَدمة، ومعها من المدافع نحو مائة وستِّين، وبمعيتها جماعة من ضُبَّاط الأوربيِّين، هذا عدا عن العَساكر /٥١و الاحتياطيَّة، التي حضرت بالعمارة الحَربية من أزْمير[1] إلى شطُوط قَرمان، حتى إذا دعت الحَاجة تأتي إلى عربستان.

(1) أزمير "Azmir" إحدى أكبر المدن التركية تقع على الشاطئ الشرقي لبحر إيجة إلى الجنوب من منيسا "Manisa".

وكان حُسين باشا المرقُوم قبل وصُوله إلى أنطَاكيـة وتلـك التُّخُوم [قد][1] أرسل أمامه طَليعة من العَساكر إلى حمص بالمُهمَّـات والذَّخائر تحت قيادة البطل المغوار مُحمَّد باشـا البيرقـدار، وعنـد وصُوله إليها عسكر بجنده حواليها، واجتمع بمن هُناك من باشـاوات الأتراك الذين كانوا بالانتظار لذلك الجيش الجرَّار، وأعلمهـم بقـدوم السِّردار إلى تلك الديار بالعَساكر الظَّـافرة، والجيُـوش المُتكـاثرة، فانشَرحت صدُورهم وتشدَّدت ظهُورهم ؛ لأنَّهُم كانوا في خوف /٥١ظ عظيم من حَرب إبراهيم.

ولما بلغ إبرَاهيم باشا – القائد العَام – قـدُوم هـذا الجـيش اللهام[2]– وهو في دمشق الشَّام – استعدَّ لاستِقبَاله وحربـه وقتالـه، وتفريق جمُوعه وأبطَاله ؛ فجهَّز المُهمَّات والمدافع، ورتب الكتائـب والطَّلائع، وكتب إلى عبَّاس باشا في الحال يأمره أن يَقدَمَ من بَعلبَـك بالعَساكر والأبطَال، ويَجدَّ في السَّير ويُوافيه إلى قرية القُصير.

وكتب أيضاً إلى طَرابُلس الشَّام يأمر حَسن بـك المنـسترلي بسرعة القيام، وأن يُلاقيه بباقي الجنُود إلى المكان المعهُود، ثم سـار هو على الأثر بمن معه من العسكر قاصداً تلك الكورة، فوصل إليهـا في سابع تمُوز من السنة /٥٢و المذكورة، فالتقى بهما في ذلك المكـان وبمعيَّتهما الرجال والفُرسان، فأخذوا يتفاوضُون ويتذاكرون على مـا هم عليه عازمُون، وهل ينتظرون الأعداء في تلك البيداء أم يبادرُون

---

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) كذا بالأصل.

إليهم قبل أن يُشرفوا عليهم؟، فاستقرَّ الرَّأي على السَّير قبل وصول العدو إلى القُصير، وكان بينهم وبين حِمْص نصف مرحلة، فباتوا في تلك المَنزلة، ولما أصبح الصَّباح، وسَطع نُوره ولاح، اصطفَّت المواكب وترتَّبت الكَتائب، وانتشرت البَيارق ونُفخ النَّفير، وجدَّت العَساكر بالمَسير قاطعة تلك السُّهول الدعص[1]، قاصدة مدينة حمص.

وكان مُحمَّد باشا والي حلب ومن معه من الباشوات ذوي المناصب والرتب لما بلغهم قدوم إبراهيم باشا /٥٢ظ إليهم، وأنه عمَّا قريب يُشرف عليهم، تأهبوا للحرب واستعدوا للطَّعن والضَّرب، ولما اقترب المصريُّون من المدينة، ولاحت عن بُعد قلاعها الحَصينة، أبصروا جيوش الأعداء تمُوج في تلك السُّهول والمرُوج، فأصدر إبراهيم باشا الأوامر بترتيب صفُوف العَساكر، فاصطفت وترتَّبت، واستعدَّت وتأهَّبت.

وتقدَّمت فرقة من عرب الهَنادي طالبةً عسكر الأعادي، فاقتتلت مع طليعة الأتراك، وأخذت معها في الصِّدام والعِراك، فاستظهرت عليها غاية الاستِظهَار، وقتلت منها جُملة أنفار، ثم انكشفت الأعلام والبنُود، وظهرت العساكر والجنُود وهي مُقبلة للقتال على قدم الاستعجال، وكانت طوابيرها مُنقسمة إلى أربعة صفُوف مُنتظمة /٥٣و ومرتبة على هيئة حسنة بين قلب ومَيسرة وميْمَنة، أمَّا

---

(1) الدعص هي التلال والغرود الرملية.

القلب فكان مُواجهاً من أمام لطَريق دمشق الشّام، وأما الميْمَنة فكانت مُنتشرة في ذلك البرّ الأقفَر ومُحاذية لنهـر العَاصـي مـن الجانـب الأيسَر، وأمّا المَيسَرة فكانت مُستندة لمزرَعةٍ على مسافة قريبة مـن النّهر المذكُور لتمنع الأعداء من الهجُوم والعبُور، وهي مُؤلّفـة مـن ثلاث آلايَات من ذوي الشّجاعة والثّبات، أحدها من الرجّالة، واثنَـان ٥ من الخيّالة، وأكثرها من الباش بُزق[1] والأخْلاط المُتجمّعَـة، ومـن ورائها فرقتان لحفظ الذّخائر والأمتِعَة، وكلهـا عـشْرون ألفـاً مـن عساكر نظاميّة وأرناوُط[2] وهوّارا[3] ودالاتية[4]، ومعهـا أربعُـون مدفعاً بين كبير وصغير، وكان ضبّاطُها من الوُزراء المَشاهير الذين ١٠ /٥٣ظ اشتَهروا بين النّاس بالشّجاعة وقوة البَاس كمُحمّد باشا البيرقدار، وباكر باشا الخَزنْدار، ومحمد باشا والي حَلب، وغيرهم من البَاشوات أصْحَاب المنَاصب والرُتب.

---

(١) الباش بزق هم الجنود الأخلاط أو المرتزقة، وأصل كلمة بزق بالتركية تعنـي الرجل اللحيم، أو الرجل المنقاد ولا إرادة له، انظر أثيـر الـدين الاندلـسي: الإدراك للسان الأتراك، ص ٣٠، ولا تزال الكلمة عينها تستخدم فـي عاميـة أهل الشام بمعنى "طرطُور".

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل.

(٤) الدالاتية او الأدلاء فرق من الفرسان كانت تعمل في مقدمة الجيوش العثمانيـة كطلائع واستكشاف، وكانوا يختارون بعناية من الجند الذين يتميزون بالجسارة والإقدام وربما لهذا السبب تحرف اسمهم من الادلاء بالتركية الـى الدالاتيـة وهي لفظة تركية تعني المجانين، انظر :-

احمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القـاهرة ١٩٧٩، ص ص ١٠٤ – ١٠٦.

وأمّا العساكر المصرية فكانت مؤلَّفة من سبعة عشر ألفاً، وأربَعة وأربعين مدفعاً من أجْرَام مُختلفة، ومُنقسمة إلى ثلاثة أقسام على أحْسَن ترتيب وأكْمَل نظام، وكان القسم الأول في مقدمة الجَحفل وهو مُؤلَّف من الآلاي الثَّاني عشر والثالث عشر والثامن عشر من الرجَّالة، ومُستند من اليمين واليسار بالآلاي الثَّاني والخَامس من الخيَّالة، وأما القِسْم الثَّاني فكان مُؤلَّفاً من ثلاث آلايات وهم آلاي الحرس والآلاي الخامس والحادي عشر من المُشاة، ومُستنداً من اليمين واليسَار على نحو مائة /٥٤د خُطوة بالآلاي الرابع والسابع من السُّباهيَّة[1] ذوي البَسالة والسَّطوة، وأما القسم الثالث فكان جيش الاحْتِياط وهو مؤلف من الآلاي الثامن من المُشاة ومُستنداً من اليمين واليسار بالآلاي الثالث والسَّادس من الخيَّالة ذوي الثُّبات والنُّشاط، وعلى جناحي هذا القسم من اليمين والشِّمال كانت عَساكر الجبل والبدو مُتهيِّئة للقتال.

ولما تدانى العَسكران، وتقابل الجَيْشَان، أمر إبراهيم باشا فارس المَيْدَان الآلاي الثَّاني والثَّالث والرَّابع من الفُرسان أن يبرُزُوا إلى ساحة الهيْجاء، ويهاجمُوا الجانب الأيسر من عَسكَر الأعْدَاء، بحيث تُصلَى نيران الحرب من اليسار واليمين والقلب، فأجابُوا أمره

[1] السباهية هم إحدى فرق الفرسان بالجيوش العثمانية، كان يتم إقطاع السباهية الأراضي زمن السلم مقابل تقديم خدمات ذات طابع عسكري للدولة في حالة الحرب، وكان يتم التنظيم فيما بينهم بحيث كان ينوب عن كل عشرة سباهية إقطاعيين في حالة الحرب سباهي واحد، للتفصيل انظر :-
عراقي يوسف: الوجود العثماني في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر دراسة وثائقية، القاهرة ١٩٩٦، ص ص ١٤ – ١٩.

بالامتثال، وفي عاجل الحال قصدوا تلك النّاحية /٥٤ظ كالأسود الضّارية، وانتشرُوا في تلك الأماكن الواقعة بين المَزرعة المذكُورة والجناين، وهجمُوا على الأعَادي هجُوم الصَّناديد، وصدمُوهم بقلوب أقْوى من الحَديد، وأقسَى من الجَلاميد، وأطلقُوا عليهم البَواريد، ثم اقتحمُوا صفُوفهم واخترطوا سيُوفهم وحكّموها في أبْدَانهم، فزحزحُوهم عن مكانهم.

فلما رأت عساكر الأتْراك المُقيمة بالقُرب من هُناك ما أصاب أصحابها من البليَّة بادرت بهمَّة وحميَّة لمُهاجمة العساكر المصريَّة، فالتقاها المصريُّون للحال، وصدمُوها صدمةً تُزعزع الجبال، واشتعلت بينهم نار الحرب واختلف الطّعن والضَّرب، واشتد البلاء والكَرب وهان كل أمرٍ صعب.

وعندما شاهد إبراهيم باشا /٥٥و تلك الحَركة، وهو بالقُرب من سَاحة المعركة أمر أحد قوّاد العسكر أن يسير بألف فارس على الأثر، ويقصد ذلك المكان المعهُود ليُعضّد من له فيه من الجنُود، وأسنَده من اليَمين بصف من الطُّوبخَانة، ومن اليَسَار بالآلاي الثَّاني عشر من المُشاة، وبفرقتين من الششخانة[١]، فامتَثل وسار كالسَّهم الطيَّار، وعند وصوله إلى هناك انْعطف على صفُوف الأتْرَاك، وأخذ

---

(١) المراد بالششخانة أو "الشيشخانة" هنا الفرق المسلحة بالبنادق الفرنسية مُزدوجة الفوُهة، تجد وصفاً طريفا لهذا الطراز من البنادق في مذكرات سركيس نارزكيان "Sarkis Narzakian"، انظر :-

Memoirs of Sarkis Narzakian, translated by Garine Narzakian, .bublishrd by Gomidas istitute, U.S.A, 1995, P 11.

معها في الشِّباك والعِراك، ففرَّقها وهزمها، وبدَّد شمَلها وحطَّمها، ثم تقدَّم باقي الجيُوش المصريَّة حتى اقتربُوا من العساكر العُثمانية، وانفَصل الآلاي الحَادي عشر من مُشاة العسكر وانْضمّ إلى الآلاي السَّادس والسَّابع من الفُرسان، وقصدُوا /٥٥ظ مَيْمَنة العدو من غير هدو ولا توان، فعبرُوا النَّهر عند العَصْر، وانتشرُوا على شاطئه الأيْسَر غير مُبالين بالخَطَر، أملاً بالنَّصر والظَّفر، وبلوغ القَصد والوطَر، ولما رأى مُحمَّد باشا تلك الهَجْمَة مُتَّجهة نحو جناحه الأيْمن عزم على دفعها، ومُلاقاة الأمر بالتي هي أحسن، فأمر أحد القوَّاد أن يتقدم بطابُورين من الأجْنَاد ويُهاجم عسكر المصريِّين من جانب اليَمين، فبادر بالعجل وانْعَطف نحوهم وحَمل، فالتقته المصريُّون من الجهة اليُسرى، وأقاموا عليه القيامة الكُبرى.

وكان قائد هذه الموقعة ومُوقد نار تلك المَعْمَعة - البطل الهُمام والصَّارم الصَّمْصَام، وليث الوغَى في الصِّدام، من تتبدَّد به جيُوش العدا وتتلاشى - إبراهيم باشا، /٥٦و فبزل بشدَّة عزمه المجهُود، وقوَّى بهجمَاتة قلُوب الجنُود ؛ لعلمه بأن أمر النَّصر متوقِّفٌ عليه، وتدبير الحَرب راجع إليه، فللَّه درُّه من أسدٍ كرَّار، وبطل قهَّار، فإنه سَطَا سَطْوَة جبَّار، وألقَى بنفسه في مواقف الأخْطَار، وفعل فعالاً تُدهش الأبْصَار، وتُحيِّر العقُول والأفْكَار، فلو رآه الاسْكَنْدَر أو رَمْسيس الأكْبَر في ذلك اليوم المُنكَر وهو يخُوض معركة القتال، ويبري بحُسامه جَماجم الأبطَال [لـ][1] تعلَّما منه فنُون الحَرب، ومواقع الطَّعن والضَّرب، أو زيد الخَيْل وعَامر بن

[1] زيادة اقتضاها السياق.

الطُّفيل لانْذَهَلا انْدهَاشاً، وخافا وارْتعشا، وقبَّلا رجله في الرِّكاب، وذلاً بعد ما خَضَعت لهُما الرُّؤوس والرِّقاب.

شعر :-

/٥٦ظ قرمٌ تذيب العِدى رُعباً مَهَابته إذا انْتَضى يوم حَربٍ صَارماً ذَكَرا

قاد المَنايا لـه جيشاً وكرَّ على جَيْشِ الأعادي بطعنٍ يسبقُ القَدرا

وما زالوا في قتال واشْتباك حتى تَزعْزَعت فرقة الأتْراك من هول الصِّدام وشدَّة العِراك، فنكصَت إلى الوراء، وطلبت جوانب الصُّحراء، فلما رأى مُحمَّد باشا تلك العبر، وأن ذلك القائد قد انْكسر ؛ خاف من الهَزيمة التي عاقبتها ذميمة، فأمر محمد باشا الكريتلي - وكان من الشُّجعان - أن يتقدم بآلايَيْن من الفُرسان، ويقْتَحم مواكب الأعْداء من الجَانب الأيسر، بينما يهجُم هو عليهم بقلب العَسكر من الطَّرف الآخر، فيأخذُوهم من الجَانبين، ويحصرُوهم بين النَّارين، فامْتَثل ما أمر، وحَمل هو بباقي /٥٧و الزُمر، فأدْرَك إبراهيم باشا بفراسته وذَكائه حَركة جيْش أعدائه ؛ لأنَّه كان سَريع الإدْراك، صَادق النَّظر، يُبرم الرَّأي بسرعة تُحاكي لمْح البَصر، ولما علم ذلك حوَّل هيئة المَعركة على الصُّورة المُوافقة لدفع تلك الحركة، فأرْسَل فرقة مع حَسن بك المنسترلي لمُقابلة مُحمَّد باشا الكريتلي، وانْعَطف هو بباقي العسكر على جيش مُحمد باشا السر عسكر.

وفي الحال الْتَحم القتال، واتَّسع بين الفريقين المَجال، وارْتَجَّت الأرْض من ضَجيج الأبْطَال، وأصوات البَارود التي كادت

تُزعزِع الجبال، فكانت ساعة تقشعرُ منها الجلُود، وتشيب من هولها الأطْفَال في المهُود، وزُلزلت الأرض فيها زلزالها، /٥٧ظ وأظهَرت القيامة أهوَالها، وأبصَرت الأبطَال ما راعها وهَالها، فما كُنت تَرى إلا فُرساناً مُشتبكَة، وصفُوفاً مُحتبكَة، ودماءً مُنسفكَة، وخيُولاً غَائرة، وأعضَاءً مُتنَاثرة، ورؤُوساً طَائرة، وما زالت المُكافحة بينهم قائمة، ونار البَارُود مُتصلة دائمة نحو ثلاث سَاعات من النَّهار، وهم في قتال أشد من لَهيب النَّار.

وكانت قد كلَّت جمُوع مُحمَّد باشا، وذهب عزمُها وتَلاشَى، وزادها الخوف رُعباً وارتعاشاً، فتَقهقَرت فُرسانها، وتزعزعَت واختل عِقدُ نظامها، وتضَعضَعت ويَئست من بلُوغ الأرب، وأيقَنت بالهَلاك والعَطَب، ونَعَى فوق رُؤوسها نَاعي الويْل والحرَب، فلم يعُد يُمكنها الاصطبار، /٥٨و ولم تجد سَبيلاً لها إلا الفرار، فألقت رَاياتها وبيارقها، ونكَّست أعلامها وسَناجقها، وانهزمت على أعقَابها، وتركت جميع أسلابها، وتفرَّقت في عرض الفَلاة وهي لا تُصدِّق بالنَّجاة خوفاً ممَّا دهَاها، وقد تخضَّبت الأرض بدماها، وامتَلأت بجُثَث قَتلاها.

وتبعها المصريُّون على الأثَر، وكللهم تتَساقط في أقفِيتها كالمَطر، وكان قد قُتل منها على ما قيل أوفى من ألفَين قتيل، ومن المصريِّين نحو مائة وخمسين، وألوى مُحمَّد باشا هارباً، وللنَّجاة طالباً قاصداً مدينة حَلب الشَّهباء، وتبعهُ أكثَر القوَّاد والوُزراء، ما عدا

مُحمَّد باشا البيرقدار، فإنه ولّى الأدبَار وفر طالباً حُسين باشا السِّردار، /٥٨ظ ليُعلمه بتلك الكَسرة، ويلتمس منه النَّجدة والنُّصرة، وهو لا يُصدِّق بالنَّجاة خوفاً مما دهَاه، ومن شدَّة ما حصل عنده من الخَوف العظيم كان كثيراً ما يقُول "هي كدي أسلان إبراهيم"، واستحوز إبراهيم باشا على مُهمَّاته وذَخَائره، وفرَّق غنَائمه على ضُبَّاطه وعَساكره، واستولى على حِمْص وحَمَاة، وأقام فيها الحُكَّام والوُلاة، وكان قد وقع في يده ألفَان من الأسَارى بين عسكر نظاميَّة وأرناؤُط وهوَّارا[1]، فأعطاهُم الأمان، وعاملهم بالرِّفق والإحسان، وأدخلهم بين جنُوده المصريَّة، وعيَّن لكل واحد منهم جَامِكيَّة، وكتب إلى أبيه بمصر يُخبره بهذا النَّصر.

وكان حُسين باشا السِّردار الأكرَم /٥٩و قد خرج من أنْطاكية بالجَيْش العَرمْرَم، طالباً حمص وحَماة، وهو يُجدُّ في قطع الفَلاة، وفي أثناء الطَّريق بلغته تلك الأخبَار، وما حلَّ بعسكَره من الويْل والدَّمار، فزاد به الغيظ والحَنق، واضطَرب فُؤاده وخفَق، وتأسَّف على ما جَرى، وارتَد راجعاً إلى الورا ليجْمَع شمل العَسَاكر القَادمة، ويأخذ لنفسه الاحتياطَات اللازمة.

وما زالت العَساكر في انْكسارها ساعية وراء وزيرها وسِردارها، وفي مقدّمتها مُحمَّد باشا البيرقدار، وهو لا يعرف الليل

---

[1] كذا بالأصل.

من النهار، حتى التقى بحُسين باشا المُشار إليه فتقدَّم وسَلَّم عليه، وتمثَّل بين يَديه، وحدَّثه بذكر الخبر وما حَكم به القضا[1] والقدر /٥٩ظ من انكسَار جنُوده، وتنكيس أعْلامه وبنُوده، فظهرت على وجهه علامات الغَضب، وارتَبك في أمره واضطَرب، ومن شدَّة ما اعتَراه رفَسه برجله فألقاه على قَفاه بعد أن شتَمه وأهَانه، ونزع عنه سيْفه ونيشَانه، ثم طَرده من أمامه ووكَّل به بعض خُدَّامه، فخَرج من بين يديه وهو ينفُض غبار المَوت عن مَنكبيه، وحَسِبَ تلك الإهَانة سعادةً له وافتخاراً، لأنه كان قد شَاهد المنيَّة جهاراً.

وكان حُسيْن باشا لما وصَل إلى الجسر الحَديد خيَّم في تلك المَهامة والبيد، وهو مكان واسع الجَنبات يبعد عن أنْطاكية أربَع ساعات، /٦٠و وهناك شمَّر ساعد العَزيمة، وجمع ما تشتَّت من جنُوده بعد تلك الهَزيمة، ثم تجهَّز وارتحل وسار على عجل قاصداً مدينة حلب، وفي قلبه حر اللهب من شدَّة الغيْظ والغَضب، فالتقى بواليها قرب المدينة وهو في حالةٍ حزينة، فأعلمه مُحمَّد باشا بواقعة الحال، وما أصاب عسكره من النِّكال، فازداد حنقاً على حَنق وقلقاً على قَلق، وعند وصُوله إلى حلب الشَّهباء عقد مجلساً حربياً مع الأعيَان والعُلماء، وبعد جلسة طويلة ومفاوضة مُستطيلة طلب منهم أن يمدُّوه بالذَّخائر والعدد، ويقدِّموا له عَسكراً من أبناء البلد، فلم يُوافقه على ذلك أحد من المَشايخ وأكابر /٦٠ظ العُمد لأنَّ نفُوسهم كانت غير مائلة إليه، ولا مُؤمّلة على حصُول النَّصر على يديه، بل كانوا يُحاولون

---

[1] كذا بالأصل.

الخُروج من قَبضة الدَّولة العليَّة، والدُّخول تحت طاعة الحُكومة الخديويَّة.

فلما يَئس من النَّجدة والمعُونة عزم على المَسير إلى الإسكندرُونة[1] ليُقيم فيها الحَواجز والقلاع، ويجعلها حصن الوقايَة والدِّفاع، نظراً لحُسن مراكزها الطَّبيعية، ولكونْها من الأسَاكل البَحريَّة، لأنَّه كان ينتظر ورُود المَدد إلى ذلك البلد، ومما يستحقُّ الاعتبَار أنَّ هذا السِّردار كان قد اجتمع في ذلك النَّهار مع موسيُو دوريكلو قُنسل[2] فرنسَا، وكان من أشْهَر النَّاس لُطفاً وأُنْساً، فأخذ يُحادثه /٦١و بالكلام، ويسأله عن حواصِل برِّ الشَّام، وعن أسْعَار الحرير والحنطة والشَّعير، وغير ذلك من المَسائل التي ليس تحتها طَائل، وفي أثناء خطابه دخل عليه أحد حُجَّابه وأخبَره أن جَواده الأشْهَب لم يكن يريد أن يَشْرَب، فنظر إليه بعين الاحْتِقار وأجابه بألفاظ دالة على الكبْريَاء والفخار، وقال : "دَعْهُ إنَّه لا يَشْرَب إلا من مَاء النِّيل، ولا يرتوي إلا من ذاك السَّلسَبيل"، ثم وثب قائماً على قَدميه وخرج من عند القُنسُل[3] المُومَأ إليه وبات تلك الليلة في المُعسكَر وهو في خوف وحذَر.

---

[1] الاسكندرونة "Iskenderun" ميناء ومدينة ساحلية تقع على شاطئ البحر المتوسط وتطل على رأس الخليج الذي يعرف باسمها، اسمها الاسكندر المقدوني ومنه اتخذت اسمها، وهي الآن على خط الحدود التركية السورية تحت السيادة التركية وإن كانت سورية لا تزال تطالب بضمها إليها.

[2] كذا بالأصل، والصواب "قنصل".

[3] كذا بالأصل.

وفي الغد بلغته الأخبَار بقرب وصُول ذلك الجبَّار، والليث الباسل القهَّار إلى /٦١ظ تلك الديار بالعساكر المصريَّة، والفُرسان الجهادية، فخفق قلبه وزاد خوفه ورُعبه، ولم يعد يُمكنه إلا الانْصراف والرَّحيل من تلك الأطْراف، فقسَّم جيشه إلى قسمين، وأرسله إلى الإسْكَنْدَرُونَة على طريقين الأوَّل سار على طريق كِلس[1] وبيلان[2]، وسار هو في الثاني بباقي الجيش والفُرسان قاصداً تلك الناحية على طريق أنطاكية، وتبعه والي حلب ووالي الشَّام، وجميع الباشَاوات الفخام، وعند وصُوله إلى الإسْكَندرُونة وجدها مشحُونةً بالذَّخائر والمؤونَة التي كان قد أرسَلها إلى ذلك المكان خليل باشا باش قُبُطان في جُملة سُفن وسقيَّة مُغفرة /٦٢و ببعض البَوارج الحربيَّة، فأقام بجيْشه فيها، وخيَّم في نواحيهَا.

هذا ما كان من أمر السِّردار الأكْرَم، وأما إبراهيم باشا الأسَد الغَشَمْشَم ؛ فإنَّه بعد أن انْتَصر وغَلب، وبلغ من عدوِّه القَصْد والأرَب سار طالباً مدينة حلَب على طريق تلُّ السُّلطان ومعرَّة النُّعمان، وكان وصُوله إليها بالعَسْكر في اليوم الثَّامن عشر من شهر صفر سنة ١٢٤٨ هجريَّة، المُوافقة لسبعة عشر تمُوز سنة ١٨٣٢ مسيحيَّة، وذلك بعد خروج حُسين من المدينة بيومين، فاستَقبله أهلها بالتَّفخيم ودخلها بموكبٍ عظيم، وكان أوَّل من ورد إليه للتَّهنئة والسَّلام

---

(١) كلس "Kilis" إحدى المدن التركية، تقع على الحدود السورية التركية اليوم إلى الشرق من جبل الكرد وجنوب عينتاب.

(٢) بيلان منطقة مرتفعات وعرة تمثل المدخل الطبيعي للأناضول، تقع إلى الجنوب من الاسكندرونة، وبها الممر المعروف باسمها والذي سيسهب المؤلف في وصفه لاحقاً.

قَنَاسل[1] الدّول العظَام، ثم /٦٢ظ جَاء القاضي والمُفتي وأعيان البلـــد، وباقي الوجُوه والعُمد الذين عليهم المُعتَمد، فدخلُوا وسلّموا عليه والقُوا أزمّة امُورهم بين يديه، فأعطَاهم الأمان وعاملهم بـــالحلم والرّفـــق، وأحسَن إليهم كما أحسن إلى أهل دمشق، وفي أيّام قلائل وردت إليـــه الكُتب والرّسائل من وُلاة الأقطَار وحُكّام المُدن والأمصار التي فـــي تلك الجِوار يهنُون بذلك الانتصَار، ويلتمسُون من حضرته الـــدّخُول في حِمى دَولَته.

وبعد أن نظّم أحكَام المدينة على أحسن الأسَاسَات المَتينـــة، وأذعنت لطَاعته جميع الولايات الكَائنة في تلك الجهَات كـــديار بكـــرٍ ونواحيها وأورفا[2] وما يليها ؛ نَصَّب بها الـــوُلاة والمُتـــسلِّمين مـــن خُواص قوّاده المشهُورين /٦٣و لتقُوم بأشغالها وتدبير أعمَالهـــا، ثـــم تجهّز للارتحَال ونهض بالرّجال والأبطَال للقاء حُسين باشا وقتالـــه، مُستعيناً بالله على حَربه ونزاله، قاصداً الإسكَندرُونة من غير تـــوانٍ على طريق قرية بيلان، حيث لم يكن له طريق آخر إلا مـــن ذلـــك المَكان، وكان خرُوجه من حلَب بالعَسكَر في اليوم السّابع والعـــشرين من صَفر، فوصل إلى حضيض بيلان بالجَحفَل، في اليوم الثّاني مـــن ربيع الأول، وهى قرية جميلة البُنيان، رفيعة الجُدران، مبنيّـــة علـــى ذُروة جبلٍ شامخ، تبعد عن الإسكَندرُونَة نحو ثلاثة فَراسخ، فتجمّعت

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) أورفا "Edessa" أو "أرهائي" بالارمنية ومنه اشتق اسمها العربي "الرها" إحـــدى أكبر مدن الجزيرة وقصبة إمارة عرفت بالاسم نفسه زمن الحروب الـــصليبية، وهي الآن مدينة تركية تقع في الوسط بين ماردين وعينتاب على مقربة مـــن خط الحدود التركية السورية.

العساكر في تلك النّاحية، وانتشرت في السّهل الواقع شمالي طريقي كلس وأنطاكية، وهذان /٦٣ظ الطّريقان يلتقيان عند حضيض بيلان، ومن هناك يُصبح الطريق واحد للطّارق والوافد، وهو ضيّق المجّال على الخيّل والرّجال.

٥ وكان حُسين باشا عند مرُوره ببيلان [قد][1] أقام فيها ستّة عشر ألفاً من الرجّالة والفُرسان ؛ ليقطع على إبراهيم باشا مَنافذ طريقها بإقامة الحَواجز عند باب مضيقها، بحيث كان يستطيع بألف مُقاتل أن يدفع عشرين ألف بَطل باسل بالنسبة إلى مَركزها الشّاهق، ومجال مَسلَكها المُتضايق.

١٠ فلما أقبَل إبراهيم باشا إليها وأشرف بجيشه عليها وجدها مشحُونةً بالعَساكر والمؤونة، فبادر إلى الحَرب واستعدّ للطّعن والضّرب، فقسّم جيْشَه إلى عدّة أقسَام، /٦٤و وأقام كل قسم في مقام، ورتّب صفُوف طَوابيه مُحكمةً على جيُوش أعَاديه، وكان قلب جيش الأترَاك ضابطاً رأس المَضيق على تلٍ هُناك وهو مُمتد ومُنتَشر على ١٥ شكل خطٍ مُنكسر، وموزّع على ثلاثة باشَاوات، ومُؤلّف من عدة طوابير وآلايات مُمْتدة من أسفل الطّريق إلى رأس المَضيق، ومن جانبه الأيْمَن والأيْسَر كانت الطّوبجية وباقي العَسكَر.

ولمّا اختبر إبراهيم باشا مراكز الجيُوش العُثمانية، وعرف حركاتهم الحَربية، أمر الآلاي الثّامن والثّامن عَشر من الرجّالة،

(١) زيادة اقتضاها السياق.

وآلاي الحَرس – ذوي السَّطوة والبَسالة – أن يسيروا عن[1] طريق كلّس بالعجل، ويصعدُوا إلى ذُروة الجَبل، ويهجمُوا على مَيْسرة العَدو من /٦٤ظ غير توانٍ ولا هُدو، فامتثلُوا أمره السَّامي المُطاع، وسَاروا على قدم الإسْراع، قاصدين أعدائهم كضَواري السِّباع.

٥ ثم تقدَّم بعدهم على الأثَر بأمر القائد الأكبر الآلاي الثَّالث عشر من مُشاة العَسكَر تحت قيادة الشُّجاع المشهُور، والفَارس المذكُور، صاحب القدر العليّ حسن بك المنسترلي، فسار كالبَرق مُسرعاً وبمعيَّته اثنا عَشر مدفعاً قاصداً ساحة الهيْجاء والهجُوم على مَيْمَنة الأعداء من الجهة الثَّانية المعرُوفة بطريق أنطاكيـة.

١٠ وكان إبراهيم باشا – ليثُ الطِّراد وسيفُ الجهاد – قد أقام عن يمين ويسار فم الواد فرقاً من خيَّالة الأجْنَاد لتعضّد العساكر إذا ظفرُوا، وتردَّ /٦٥و العدو عنهم إذا انْكَسروا، واستوى هو بنفسه لهم قائداً، ومراقباً حركاتهم ومُساعداً، فلما رأت العَساكر السُّلطانية تقدم الجيُوش المصريَّة وهي صَاعدة إليها، ومُشرفة عليها من اليمين

١٥ والشّمال – كأنها أسُود الدّحال – أطلقت عليها المدافع من الجَانبين، المُحكمة على الطّريقين المذكُورين، فعند ذلك أمر إبراهيم باشا – فارس الوقائع – بهجُوم العساكر وإطلاق المدافع، فأُطلقت المدافع والبَواريد، وتسابقت العساكر إلى الحَرب بقلوبٍ أقوى من الحديد، فاشتبك من الجانبين القتال، واصْطَدمت الرّجال بالرجال، وارتفع

٢٠ العَجاج وعظمت الأهْوَال، وسالت الدّماء في ميْدَان النّزال، /٦٥ظ

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "على".

وماجَت الخيل بركّابها كما يمُوج البَحر إذا لعبت به ريحُ الشّمال، وكانت لهم ساعة من ساعات القيامة قد امتلأت من الأهوَال، وخلت من السَّلامة لأن أصوات المدافع وضجيج الأبطَال كان يُطبق الأوْدية والجبال، وضرب السيُوف وطعن النِّصال كان يذهل العقُول ويُشيب الأطفَال، ومازالوا في الكفاح والجهاد والنِّزال والطِّراد حتى أمسَى المكان كأنه مُحاط بمائة بُركان تتقذف منها النِّيران والدُّخان. ٥

وكانت من ابتدا[1] المَوقف نيران الفريقين غير مُنقطعة، غير أن المصريِّين كانُوا في الحرب أكثر انتظاماً وأخف حَركة، وأشد الْتحَاماً، فكانت سُرعتهم في إطْلاق البنادق والمَدافع /٦٦و تَسبق وميض البَرق اللاّمع، وكان كل فرد منهم على التَّقريب والتَّعديل يُقاتل أربعة من الأتراك على القَليل، ومع ذلك لا يبالُون بالبَلاء ولا يهابُون كثرة الأعداء، بل فضلُوا أن يمُوتوا أمام قائدهم البَطل على أن يرجعُوا بالخيبة والفَشل، واستمرُّ القتال على هذا المنوَال من العصر إلى بعد غروب الشّمس، وكانت قد كلَّت جيُوش الأتراك وقُتل منها أوفَى من ألفين وخُمسمائة نفس، فعند ذلك اختلّ نظامُها، وتزعزَعت عن المُقام أقْدامها، فتمزَّقت صفُوفها كل مُمَزَّق، وتشتّت شَملها وتفرَّق، وولَّت على أدبَارها نفُوراً، وكان أمر الله قدراً مقدُوراً، ولم يُفقد من المصريِّين غير مائة وعشرين، /٦٦ظ واستَولى المصريُّون على مُهمَّاتها ومدافعها وذخائرها وجَبخاناتها، وباتُوا في تلك الأرض ظافرين غَانمين، شاكرين لله ربِّ العَالمين على هذا النَّصر المُبين، والنَّهج المُستبين. ١٠ ١٥ ٢٠

---

(1) كذا بالأصل.

وعند طلُوع الصبّاح أرسل إبراهيم باشا - ليثُ الكفاح - عبّاس باشا إلى الإسكَنْدرونة بالعجل، في ستة آلاف بطل من خيّالة النِّظام وعرب الهَنادي ليَقْتَفي أثر الأعَادي، ومن الأمُور العَجيبة والحَوادث الغريبة أن حُسين باشا قبل أن تصل إليه أخبار الهزيمة كان موجُوداً في دار مُوسيو مارتِينلي قُنسل[1] دولة فرانسا[2] الفَخيمة، فبينما هو في شُرب مُدام، وسمَاع أصواتٍ وأنغام إذ بلغه هذا الخَبر، وما حلّ بعسكَره من العِبر، فاستَعظم /٦٧و المُصاب، وخرج عن دائرة الصّواب، فألقى من يده كأس الشّراب، ونهض في عاجل الحَال بباقي الرّجال والأبْطَال، طالباً الهَزيمة والفرار، خوفاً من الهَلاك والدّمار.

وعند وصُول عبّاس باشا إلى البلد وجده مشحُوناً بالذّخائر والعدد، فبادر إليها وحَجز عليها، ثم لحق من هناك بجيُوش الأتراك حتى وصل إلى أدنة[3] وتلك الأطْراف، فأسَر منهم نحو ثلاثة آلاف، وعاد غانماً موفُوراً، وظافراً منصُوراً، وكان حُسين باشا قد أسْرَع في الهَزيمة إلى أن وصل إلى قُونيَّة بعد مَشقَّة عَظيمة، ومَخاوف جَسيمَة، وهو في حالة الذُّل والخَيْبَة بعد تلك العَظمة والهَيْبة.

وأما إبراهيم باشا - أسد الآسَاد، وسيف الجهَاد - فبعد أن بلغ من /٦٧ظ عدوّه الأرب عاد راجعاً إلى حَلب ليدبّر أحوَال الولاية،

---

(1) كذا بالأصل.

(2) كذا بالأصل.

(3) أدنة "Adana" أو "أضنة" وترسم أيضا "أذنة"، مدينة تقع جنوب تركيا اليوم بالقرب من رأس خليج الاسكندرونة وإلى الشرق من طرسوس.

شاكراً لله على هذه العناية، الذي قَضى له بالنَّصر في مقدُوره، وبالعزّ والسَّعد في تصَاريف أمُوره، وأنشد بعض شُعراء العَصر في ذلك النَّصر :-

من مُبلِّغ الأتراك أنّ جيُوشَهم كُسِرت وأن حُسيْنَهم ولّى إلى

هل يَغلب الأسد المُجرّب ثعلبٌ مهما استعان بمكْره وتحيُّلا ؟!(١)

وبعد أن انْتَصر إبراهيم باشا في بيلان، وشاع خبر ذلك الانْتصَار في عربستان، التقت العمَارة المصريَّة بعمارة السُّلطان بين رُودس وجزيرة قُبرص، فصار عُثمان بك نُور الدِّين - قائد العمارة المصريَّة - يُطارد خليل باشا قائد العمَارة العُثمانيَّة من دون أن يُحاربه أو يُهاجمه ويُضاربه، مع أنَّه كان /٦٨د مأذُوناً من الحَضرة الخديويَّة أن يضرب العِمارة السُّلطانيَّة، ولكنه اكْتَفى بحصر خليل باشا باش قُبُطان في خليج مَرمريس بشواطئ القرمان.

حرب قونية(٢)

فلما بلغ الدولة العليَّة تقدم العَساكر المصريَّة، وانْكِسار الجيُوش السُّلطانية اضْطَربت قلقاً واستَشَاطت غيْظاً وحَنقاً، فعزلت حُسين باشا السِّردار الأكْرم، وعيَّنت رشيد باشا الصَّدر الأعْظَم ليسير

(١) الأبيات للشيخ أمين الجندي وسيورد المؤلف لاحقاً شطراً كبيراً من قصيدته في مدح إبراهيم باشا، انظر ص ١٥٣.

(٢) قونية "Konia" كبرى مدن آسيا الصغرى، تقع إلى الجنوب من أنقرة، اشتق اسمها العربي من اسمها خلال العصر الروماني والبيزنطي "Iconium" وهي تضم قبر مولانا جلال الدين الرومي الذي تنسب اليه الطريقة المولوية.

إلى ذلك الطَّرف، ويستدْرك ما سَلف قبل أن يعظُم الأمر ويشْتد، وينفتح عليها باب لا يُسد.

وكان هذا الوزير من الأفْرَاد المَشاهير، موصُوفاً بحُسن الرَّأي والتَّدبير، وموثُوقاً به في التَّقديم /٦٨ظ والتَّأخير، فأخذ من يومه في الاستعداد، وكتب إلي قوَّاد البلاد يأمرهم بتجهيز العَساكر والأجنَاد، فتبادرت الجيُوش إليه، وتتابعت من كل جَانب عليه. ٥

هذا ما كان من أمر الدَّولة وأمَّا إبراهيم باشا - صاحب الشَّوكة والصَّولة - فإنه بعد هذا الانْتصَار مازال سَاهراً آناء الليل وأطْراف النَّهار لجهة تثبيت فتُوحَاته في تلك الدِّيار التى نالها بسيفه البتَّار، وبينما كانت الدَّولة العليَّة مُنهمكةً في الاسْتعدادات الحربيَّة كان هو أيضاً آخذاً في التقدم نحو القُسطنْطينيَّة، وفي ١٥ ربيع الأول و ١١ آب من السَّنة المذكُورَة، سار من حَلب إلى أدنة بالعَساكر المنصُورة، وكانت قد سلَّمت له مع كل /٦٩و قضائها، فخيَّم بجيْشه حول أرْجائها مُنتظراً الأوامر الخِديويَّة، وما صمَّمت عليه الدولة العُثمانيَّة، إما للسَّلم والمُصالحة، وإما للحَرب والمُكافحَة. ١٠ ١٥

وكان جناب الخِديوي الأعْظَم بعد أن انْتصَرت أعْلامه في المَعركتين الأخيرتين - كما تقدَّم - لم يَستول عليه التَّعاظُم والافْتخار، ولم تأخذه عزَّة الفَوز والانْتِصار الذي من دأبه أن يطمح بأصْحابه إلى التِّيه والكِبر، والتجبُّر والفخر، بل كان بعكس الأمر يودُّ بتَّ الخِلاف، وحَسم الفتن وتلافيها بالتي هى أحْسَن، والاقْتِناع بما فتحهُ سيفَه البتَّار وساعدته عليه يد الأقْدار، مع أنَّه كان قادراً بعد أن ٢٠

كسر جيشاً وافراً، وبدَّد شمله /٦٩ظ وهزمه ومزَّقهُ وحطَّمه أن يتقدم مُغتنماً فُرصة انتِصاره، وضعف قوة عدوه وانكِساره بعد مَوقعتين هائلتين، وهزيمتين مُتواليتين على افتِتاح القُسطنطينيَّة، والاستيلاء على تخت السُّلطة العُثمانيَّة، ولكنَّه كما تقدَّم الكلام كان يُؤثر الصُّلح
٥ والسَّلام على النِّزاع والخصَام والحَرب والصِّدام.

واتَّفق في تلك الأيَّام أن الجريدة السُّلطانية في الأستانة العليَّة قد نشرت مقالة رسميَّة في حقِّ الحَضرة الخديوية وولدها إبراهيم باشا - صاحب المآثر السنيَّة - مشحُونَةً بالقذف والافتِراء الكَاذب، ونسبت إليهما من الكَبائر والمَعائب ما تمجُّهُ نفس السَّامع، وتستَنكف
١٠ /٧٠و منه المسَامع، وليس لتلك اليد البيْضَاء الطَّاهرة - التى حرَّرت ديار مصر من أيدي المَماليك الفاجرة، وأعادت إليها شَبابها القديم بعد أن كانت عجوزاً عقيم - أن تصبر على ذلك التَّشنيع والتَّقذيف، وما رُشقت به من سهام اللَّوم والتَّعنيف بعد أن كانت أعلامهـا مُنتشرة ظَافرة، وراياتها في قلب بلاد الدولة بأجْنحة النَّجاح طَائرة، ولم تجد
١٥ بُدَّاً من أن تتدرَّع بدرع العَدالة والاستِقامة، وتستَتر بخوذة الحقِّ لتدفع ما صُوِّب نحوها من سهَام المَلامة، فنشرت جريدتها المصريَّة في ١٧ ربيع الأوَّل سنة ١٢٤٨ هجريَّة، المُوافقة ١٣ آب سنة ١٨٣٢ مسيحيَّة ما يأتي :-

/٧٠ظ "إننا نتعجَّب من تلك اليَد التي سوَّدت تلك الأسْطُر
٢٠ المشحُونة بالافتراء الكَاذب على الحكُومة المصريَّة الخديويَّة، ذات المقاصد الخَيْريَّة لنحو الأعْتَاب السُّلطانيَّة، التي ظَنَّ صاحبها أن كثرة الكَلام تُرخص البضَاعة فسقَط سهْمه دون

الغرض، فمثلاً قال :– "أن تجريدتنا على عكّا لم تكـــن إلا نتيجة أحقاد خصُوصيّة بين الحكُومة الخديويّة وعبد الله باشا، وانه بعد أن اخذنا عكّاء وأسَرنا صـــاحبها عبـــد الله باشـــا المذكُور نكُون قد وصلنا إلى ما طالما صَبوْنا إليه، ولكن الآن قد ظَهر جليّاً أن ذلك لم يكن غَايتنا فقط".

ولكن نحن نقُول كما قد قُلنا انه قد اخطأ سَهم ذلك المُفتري لأنّه امرٌ معلُوم، وواضح كالشّمس في رابعة /[٧١و] النّهار آلنا قبل أن نُجردّ تَجْريدتنا على عكّاء طلبنا اكثر من مـــرّة إلى الباب العَالي نلتمس منه أن يخلع عبد الله باشا الذي جَحـــد جميل صَنيعنا عن مَنصبه، وأن يُسمّي والياً آخر مَكانه، وبينّا مقصدنا من هذا القَبيل بأنّه إن لم يُجب الباب العَالي طَلبنـــا نضطر إلى إشهار السّلاح ضد المذكُور، ولكن عِوضاً عن أن يُلبّي استدعائنا فما كان منه إلا أنه جعل يُحرّض عبـــد الله باشا مُصراً على الافتراء والاستِهزاء بنا تحت دعاوٍ عريـــضة سُخرية، وكل مَشرُوعاتنا ومساعينا لدى البَاب العالي ذهبت بدون أن تأتينا بنتيجَة، ولم نجد من ذلك إلا أجوبة مُبهمَـــة، واخيراً نقول أن البَاب العَالي نفسه هو الذي – بتصرّفه الغير /[٧١ظ] الشّرعي – حَملنا على أن نُجرد جيْشنا على سُوريّة، وهو الذي حملنا ايضاً على أن نتقدّم أكثَر فاكثَر في بـــلاده عندما بَلغنا أنه آخذٌ في تجريد جيشٍ قدرُه ستُون الفاً تحـــت قيادة حُسين باشا، وبتسيير عمَارة بحريّة عظيمة لكي يُوقع بنا برّاً وبحراً، فإذا نسأل ما هو قَصْد تلك الجريدة التي نـــشرت

تلك الجُملة المشحُونة بالقـذف والافتـراء إلا أن تغـشّ الجمهور بأقَاويلها الكَاذبة ؟!، ولكنّا نقُول ما أبْعَد ذلك عن أن يُخيف الحُكومة الخديوية المِصريّة.

والآن فقد اتّسع الخَرق على الرّاقع، ولم تعد مُداواة الجرح من الأمُور السّهلة ؛ لأن صَدى انتصار أسـلحتنا لم يـزل يدوّي بعد في كل شعبٍ وواد، ومن يا ترى يشكّ /٧٢ و أن الذين أرادُوا أن يُضرُّوا بالحكُومة الخديويّة إنما جلبُوا علـى هامتهم ما دبّرُوه لغيرهم، وقد سقطُوا في نفس الفخّ الـذي نصبُوه لنا، وما أحْسَن قول الشّاعر :-

ومن يحتفر بئـراً ليُوقـع غيـره ... سيُوقع يوماً في الـذي هـو حـافره

قضى الله أن البَغي يصرعُ أهلـهُ ... وأن على البَـاغي تـدُور الـدّوائر

هذا ولنرجع إلى موضُوع كلامنا فنقول أن الحضرة الخديوية مع ما نَشرته في جريدتها الرّسمية لم تنْو إلا بثّ الخلاف والـشّقاق، وعقد الصلح والوفاق، وكانت تؤمّل أن فوز أسلحتها وانتصار أبطالها يحمل الدولة [على][1] أن تكفّ عن حربها وقتَالها، ولكن الدّولة بعـد موقعتي حِمص وبيلان لم تطلب عقد الصلح، أو فتح المُخابرة بهـذا الشّأن، بل كانت آخذة فـي الاسـتعدادات، /٧٢ ظ وتجهيـز العَـساكر والمُهمّات، طلباً لأخذ الثّأر، وطمعاً في الفـوز والانتـصار، وأمّـا الخديويّ المُشار إليه فلمّا علم بتجهيزات الدّولة، وما صمّمت عليه لم يجد بُدّاً من مُداومة القتَال، وتفويض الأمر إلى حُكم حدُود النّصَال.

[1] زيادة اقتضاها السياق.

وكانت الحكُومة الخِديويَّة قد استَحْصَلت سنة ١٢٤٠هجريَّــة المُوافقة لسنة ١٨٢٤ مسيحيَّة بمُوجب إرادة سنيَّة أن تــضرب لهــا مُعاملة في الدِّيار المصرية، ففي خلال هذا الاختِلال والنِّزاع والجدَال صدرت الأوامر الخديويَّة بإبطال المُعاملة بالمصكُوكَات العُثمانيَّة في ٥ الدِّيار المصريَّة، ولما بلغ الدَّولة هذا الخَبر زادها كَدراً على كَدر.

وبينما كان الصَّدر الأعْظَم وباقي رُؤساء الدَّوائر ينــاظرُون تدبير /٧٣و الجيُوش وتجهيز العَسَاكر وإرسالها إلى قُونيَّة بالمُهمَّــات والذَّخائر كان إبراهيم باشا عالمــاً بتجهيــزاتهم، وعَارفــاً بحقيقــة حركاتهم، وكانت مدينة أدنة وتلك المَنازل والأمْكِنة التي أقــام فيهــا ١٠ وعَسكر في نواحيها لكي يحمي بلاد سُورية من مُهاجمــة العــساكر العُثمانية لا تصلُح لقيام حركة حربيَّة بالنسبة لمراكزهــا الطَّبيعيَّــة، فأصبح مُضطَرّاً إمَّا أن يتقهقر بالجيش والعسكر، ويستند إلى مكــان آخر، أو أن يتوغَّل إلى قُدَّام ويُواظب على الحَرب والــصِّدام، أمــا رجُوعه القَهقَرى وارتِدَاده إلى الوَرا لم يكن لائقاً برفيع مقَامه، بعــد ١٥ ذلك النَّصر الذي ناله بحُسَامه، وأما توغُّله في تلك البَيْدَاء واقتحامــه /٧٣ظ مواكب الأعداء وهو في عدد يَــسير وهــم فــي جمٍّ غفيــر [فــ][1]ــكان أمرا مُخطراً[2]، ولئن كان إذ ذاك مُنتصراً.

وإذ كان لا يسعه أن يَرجع ويعُود، ولا أن يُقــيم فــي تلــك الحدود صمَّم على التقدم نحو العَاصمة، ومُلاقاة الجيُــوش القَادمــة،

---

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) كذا بالأصل، ولعله أراد "خطيراً".

واستَخار الله ربُّ العباد على صدق الجهاد، وكانت الحَضرة الخديويَّة لمَّا بلَغها تَجهيزات الدولة العليَّة الجَارية في القُسطنْطينيَّة، وبقُرب خروج الصَّدر الأعظم بذلك الجيش العَرمْرم، لم تجد بُداً من مُداومة القتَال لينتهي الحَال ويرتفع النِّزاع والجدال، إما بالانتَصار التَّام أو بالانكسَار والانهِزام، فأرسلت الأوامر والمَراسيم إلى ولدها إبراهيم أن يرحل من تلك البلاد، ويتقدم نحوَ /٧٤و قُونيَّة بالعساكر والأجنَاد، ويباشر الحرب والجلاد.

وكان جنَاب المُشار إليه قبل ورود هذه الأوامر عليه مُستعدّاً للحَرب والقيَام، والتقدُّم إلى أمام كما تقدُّم الكَلام، وإذ كان لا يُمكنه تخلية البَلد خوفاً من سَطْوة العدوِّ إذا وفد ؛ أقام عبَّاس باشا فيه للمُحافظة والمُراقبة والمُلاحظة، وبعد ذلك تجهَّز وارتَحل في السَّابع عشر جماد الأول قاصداً قُونيَّة على عَجل، بعد أن أرسل جيش البَاش بُزق وبعض الفُرسان عن طريق مَنارة خَان، وسار هو بباقي الجيُوش النِّظامية، والمُهمَّات الحَربيَّة عن طريق طَرسُوس[1] وجبل طُورُوس[2].

---

(1) طرسوس "Tarse " أو "Tarssos" مدينة كبيرة تقع على نهر "قرة صو" وكانت قديما تابعة لولاية قليقية "Cilicie" وخلال العصر العثماني ضمت إداريا لأعمال ولاية اطنة "اذنة"، وينسب إليها "بولس الرسول" كما دفن فيها الخليفة المأمون عام ٢١٨هـ/٨٣٣م.

(2) جبل طوروس سلسلة جبال عظمى تتوسط هضبة الأناضول يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها ٣٦٧٥ مترا تقريبا.

ولما بلغ طرسُوس التقى بعُثمان بك قائد العمَارة المصريَّة الذي كان بعد أن طارد /٧٤ظ العمَارة العُثمانية وحصرها في خليج مَرمَريس أياماً تخلُصت ولم يبلغ منها مَراماً سوى فُرقاطتين وكُوتر وإبْرِيقين - فقال له ألا تعلم أن تضييع فرصة الانتِصار هي عندي من أعظَم الذُنوب الكبَار، وأنت قد قصَّرت في خدمتك، وتَوانيت في تنفيذ أوامر وليِّ نعمتك، الذي منه قد تكدَّرت أكثر مما لو حَاربت أنت وانْكَسرت، وإنني لولا اعتبار حُرمة وليِّ النِّعم - جنَاب والدي المُعظَّم - لقطعت رَأسك وأخْمدتُ أنْفَاسك.

ثم أنَّه بعد هذا الكلام والتَّوبيخ والمَلام سار بالعَساكر والجنُود حتى وصل إلى قرية نمرُود، فخيَّم في تلك الحدُود، وكان قد أرسل سريَّة من الجيوش النِّظامية فاستَولت /٧٥و على بُوغاز كولك، وهو معبرٌ عَسِر المَسلك، وبافْتِتَاح هذا المَضيق تَسهَّل للمَرجين الطَّريق، ولم يبْق عليهم سوى وادٍ آخر أصعب من الأول وأعْسَر، فبعث إبراهيم باشا طابُورين من العَسْكَر لافتتاح ذلك المعبر تحت قيادة سَليم بك حِجَازي، وإبراهيم أغا الجُوخدار - وكانا من ذوي الشَّجاعة والاقْتِدار - ولمَّا اقتربُوا من فم الوادي التقتهم عَساكر الأعادي، وكانوا نحو ثلاثة آلاف قد كمنُوا في تلك الأطراف ليمنعُوا المصريِّين عن العبُور من ذلك المكان المذكُور، فبادر المصريُّون إليهم ونزلوا نزُول القضا[1] المُبرم عليهم، وألهبُوهم بضرب الرصَاص، وسدُّوا عليهم طرق الخَلاص، ولم تكن غير سَاعةٍ من الزمان /٧٥ظ حتى أبلوهم بالويْل والهَوان، وشتَّتُوهم في الجبَال والودْيَان، واستَولُوا على ذلك المَكان.

---

(١) كذا بالأصل.

وبينما كان المصريُّون مُنتصرين في هذه الناحية كانت فرقة أخرى منهم قد انتَصرت في جهة ثانية يقال لها أوغلو قَشلة[1]، انفَشل فيها العدو أعظَم فشلة، ولما بلغ إبراهيم باشا هذا الخَبر نهض على الأثَر، وسار على عَجل حتى قَطع ذلك الجبل فعسكَر في سَهل هناك كانت قد أخلْتهُ جيُوش الأتْراك، فاستَقبله أهل تلك الدِّيار، وولاة هاتيك الأقْطَار وهنُّوه بذلك الفوز والانتِصَار، فأعطَاهم الأمَان، وعاملهم بالرِّفق والإحْسَان. ٥

وفي ١٠ جمادى الآخرة و٣ تشرين الثَّاني توجَّه من قبل الدَّولة بالجيش العُثماني دستُورها /٧٦و الأكْرَم مُحمَّد رشيد باشا الصَّدر الأعْظَم، فنزل المَرحلة الأولى في إسكُودار[2]، وفي الغد وجَّه عَساكره نحو قُونيَّة وسَار، وبعد خرُوجه بخمسة أيَّام صدرت من إبراهيم باشا الأوامر والأعلام آمراً عساكره بالاستِعداد والمَسير إلى قونيَّة لإقامة الحَرب والطِّراد، فجعل عساكره قسمين، وسيَّرهما في طريقين مُختلفين، فلما اقترب من تلك الدِّيار اتصلت إليه الأخبار بأن أمين رءوُف باشا - مُعاون حرب الصَّدر الأعْظَم وزعيم الجيُوش التي كانت في قُونيَّة وقائدها المُكرَّم - قد أخْلى مدينة قُونيَّة، وجدَّ في المَسير قاصدا التحصُّن في أكْشَهير[3]. ١٠ ١٥

---

[1] أوغلو قشلة أو "أولو قشلة" إحدى المدن الصغيرة التي كانت تقع شرقي إيالة قرمان.

[2] اسكودار "üskudar" الضاحية الشرقية من استانبول.

[3] اكشهير أو أسكي شهر "Eskisehir" مدينة كبيرة تقع إلى الغرب من أنقرة.

فلمَّا علم إبراهيم باشا بهذا الخَبر سَبق عَسكره وجدَّ على الأثر فوصل إليها ليلاً في ٢٤ / و ١٧ من الشُهرين المذكُورين ودخلها دون حربٍ دخُول المُحَارب المنصُور.

وفي الغد أمر الآلآي الرابع من الفُرسان وقسماً من العَرب الهنادي أن يتوجَّهُوا مُسرعين لمُطاردة الأعَادي، فجدُّوا في المَسير، واتبعوا الأعداء على طريق أكشهير، وفي قَرب الكوين أدركُوا سَاقة الأعْداء، وأنزلوا بهم الويْل والبَلاء، فدمَّرُوهم تدميراً، وأسرُوا منهم نفراً يسيراً.

وكان إبراهيم باشا حال وصُوله إلى قُونية نزل في دار الولاية، وأخذ بإجْراء ما تقتضيه الحِكمة والدِّراية، فأمر بتحْصين المدينة وتحْويطها بالحَواجز المتينة، إذ لم يكن قد أخلاها الأتْراك إلا لكونِها لا تصلُح لإقامة الحَرب والعِراك، ولمَّا وصل الصَّدر الأعْظَم إلى أكشَهير وردت إليه /٧٧و أوامر الدَّولة أن يأخذ بأحْسَن الحَزم والتَّدبير، وينتهز تلك الفُرصة المُناسبة لإقامة المُكافحة والمُحاربة، وكان إبراهيم باشا - فارس المَيْدان، وليث الحرب والطِّعان - قد وجه مُحمَّد بك بفرقة من المُشاة والفُرسان ليأخذ له مَراكز في قَيْصَرية، ويراقب حركة الجيُوش العُثمانيَّة.

وكتب إلى إبراهيم باشا الصَّغير - الشُّجاع الشُّهير - أن يُلبِّي الطَّلب ويخْرُج من حَلب بفرقة من الأبطَال ومُشاة الرِّجال، ويمر بعيْن تاب، وينزل في شَمالي مَرعش[1] وتلك الرِّحاب ؛ حينما يكُون

---

(١) مرعش إحدى المدن التركية الصغيرة تشكل رأس مثلث قاعدته عينتاب وأضنة ويعتقد الأثريون أنها مبنية على أطلال مدينة جرمانيسيا "Germanicia" القديمة.

أكثر مُوافقة للسُّطوة والإرْهَاب، وهكذا بهذه الحركة الحربيَّة، وقَى جناحيّ عَسْكَره، وحَفظ أيضاً قُطر سُوريَّة، ولكن أضحَى جيْشَهُ العامل عدداً يسيراً /٣٧٧ب أمام عدوّه الذي كان جمّاً غفيراً، فكان أمَامه حينئذٍ جيشٌ عظيم مُستندٌ إلى العَاصمة، ووراءه سُوريَّة مفتوحةً جديداً، وليس فيها قُوَّة تكفي لحفظها من المُهاجمة، وعلى يمينه عُثمان باشا والي طَرابزون[١] في سيوا بجمهُور وافر، وعلى يساره سُليْمَان باشا[٢] في أضَاليا[٣] مع عشرة آلاف من العساكر.

---

(١) طرابزون "Trabzon" مدينة ساحلية على البحر الأسود، وتمثل أكبر مواني تركيا حاليا على البحر الأسود.

(٢) الكلونيل سيف المعروف بسليمان باشا الفرنساوي، ولد عام ١٧٨٨ بمدينة ليون، التحق بالخدمة بالأسطول الفرنسي منذ صباه إلى أن تقاعد بعد خسارة فرنسا أمام الحلفاء في ووترلو برتبة كلونيل، حاول الاشتغال بالتجارة لكنه لم يفلح في ذلك وما لبث أن أصابه السأم من رتابة وخمول الحياة المدنية، فما أن سمع عن مشروعات محمد علي حتى سعى لدى الكونت دي سيجورا ليزكيه لديه في مصر، وأكرم الباشا وفادته وأناط به مهمة تكوين الأورطة الأولى من الضباط على "النظام الجديد" بجيشه فنجح في مهمته بعد جهد وعناء شديدين، وما لبث أن قربه نجاحه الكبير في تلك المهمة من الباشا فكافأه على ذلك بترقيته إلى رتبة اللواء، ثم رقي مرة أخرى بعد بلائه في حروب الشام والأناضول إلى رتبة رئيس أركان حرب الجيش مير ميران (تعادل "الفريق" أو "مارشال" في الرتب العسكرية المعمول بها حالياً) وفي عهد إبراهيم باشا عهد إليه بقيادة الجيش المصري وظل في منصبه في عهد سلفيه عباس وسعيد إلى أن توفي في ١١ مارس عام ١٨٦٠. انظر :-

عمر طوسون : الجيش المصري في عهد محمد علي، ص ص ١٠ – ١٥.

(٣) أضاليا أو أنتاليا "Antalya" مدينة ساحلية تقع على ساحل البحر المتوسط على رأس الخليج الذي يسمى باسمها.

وفي ١٨ كانون الأول و ٢٦ رجب استعدَّ الصَّدر الأعْظَم للحَرب وتأهَّب، فأمر وافي باشا أن يسير من غير تَوان ولا هُدوّ، وينزل على قرية سَلح بثمانية آلاف من الأرناؤط، ويقاتل العدو، فأجاب وامتَثل، ونَهض على عجل، وكان إبراهيم باشا قد جعل فيها نحو ألفيّ نفر لتحميها من الأعْدَاء وتقيها، وسار الصَّدر الأعْظَم في ٥ طريق /٧٨و آخر بباقي الجيش والعَسكر.

وأما إبراهيم باشا - ليْث المَعارك - فحَالما علم بذلك سار بفرقة من المُشاة والأبطَال، قاصدا قرية سلح على قدم الاسْتِعجال ليُعضّد من كان لهُ فيها من الرّجال، وعند وصُوله إلى هناك التقى ١٠ بجيش الأترَاك، وكان ذلك النَّهار كثير الغيُوم والثّلوج والأمْطَار، ولمَّا وقعت العين على العين اشتَبكت الحرب بين الفَريقين، فما لبث الأرناؤط ساعة حتى ولُّوا الأدبَار، وأركنُوا إلى الهزيمة والفرار، وتشتّتُوا في تلك الاقْطَار بين الرَّوابي والقِفَار، فغنم منهم المصريُّون خمسة مَدافع، ومن الخيل عدداً كثيراً، وثمانية بَيَارق، وخُمسمائة ١٥ وعشرين أسيراً.

وفي اليوم الثاني بلغ إبراهيم باشا أن قسماً من /٧٨ظ الجيش العُثماني يَنيف عن عَشْرَة آلاف عنان نازل في طُقوزلوخَان، وهو مكان واسع الجنبات يبعد عن قُونية ثلاث ساعات، فتأهَّب للحرب والطِّعان، وقصدهم من غير تَوان ومعه جيش الحرس، وثلاث آلايات ٢٠ من الفُرسان، وعند وصوله إليهم أطلق المدافع عليهم، فما لبثوا أن وقعوا في الشّتات، وتفرقوا في البَراري والفَلوات.

ورجع إبراهيم باشا ظافراً مُنتصراً بعد أن أسَر منهم مائة وخَمسين نفراً، فدخل المدينة بموكب عَظيم[1]، وعند دخوله سلَّم له نحو ستّمائة من أرناؤط تلك الأقاليم، وطلبوا أن يَشْمَلهم بنظره، ويستخدمهم بين جُنده وعَسْكَره، فتحقَّق بصدق نظره منهُم سلامة الطَّوية، وأرسلهم لينضمُّوا إلى فرقة مُحمَّد بك في قيْصَرية[2].

/٧٩و وفي الغد بلغ إبراهيم باشا أن الصَّدر الأعْظَم قد سار قاصداً من لاديك[3] بالجيش العَرمْرَم – وهي بلدة في تلك الجهات، تبعد عن قونيَّة ثماني ساعات – فوزَّع في الحال الأوامر على القوَّاد بأن يكونُوا في اليوم الثَّاني مُستعدِّين للحَرب والجلاد، وفي صباح الغد ورد إليه الخبر أن الصَّدر الأعْظَم قد وصل الى طقُوزلُوخَان[4] بالعَسْكر، وعند الظُّهر اقترب الصَّدر المذكُور من قُونيَّة مركز العَساكر المصريَّة، فاتَّصل ذلك بإبراهيم باشا، فأخذ في الاسْتعدادات الحربيَّة، وفي الحال أمر عَسْكَره بحمل السُلاح، والتأهُّب للطِّراد والكفاح، فاستعد العسكر كما أمر، ووطَّن نفسه على المَوت أو الظُّفر، وكان ذلك يوم الجُمعة /٧٩ظ الواقع في ٢٩ رجب من سنة ١٢٤٨هجريَّة، الموافقة ٢١ كانُون الأوَّل سنة ١٨٣٢مسيحيَّة، فكان يوماً كثير الغيُوم والضَّباب بحيث كانت كثافة السَّحاب تمنع أحد الجيْشين من أن يرى الآخر وهم في غاية الاقْتراب، غير أن المصريِّين بما قد مارسُوه قبلا من تواتُر العراك كانوا بمواقع الحرب

---

(1) قوله "فدخل المدينة بموكب عظيم" استدراك أثبته المؤلف أعلى السطر.
(2) قيصرية "Cèsarèe" إحدى كبريات مدن الأناضول تقع جنوب شرق أنقرة.
(3) لاديك مدينة كبيرة تقع على الطريق بين قونية واستانبول.
(4) تقع على طريق قونية لاديك على بعد ثلاث ساعات من قونية.

وأبوابها يَفْضِلُون على الأتْراك، إذ كانوا قد واظبُوا ميدان الحرب ودرسُوه، واكتسبُوا منه علماً بما مارسُوه، وأما الأتْراك فكانُوا يفضلون على المصريِّين بكثرة العدد، وما كانوا حاصلين عليه من الذَّخائر والمَدد.

٥ فقسَّم إبراهيم باشا عَسْكَره إلى عدة أقسام، وأقام كل قسم في مقام، /٨٠و فجعل الآلاي الثَّالث عشر والثَّامن عشر - الذين لا يهابُون الموت ولا يخافُون من الخطر - على الخطِّ الأوَّل من يمين الجَحْفَل تحت قيادة صاحب القدر العليِّ سليم بك المنسترلي، وعلى نحو مسافة خُمسمائة قدم من هذا الخط جعل سُليمان بك الفَرنساوي

١٠ البارع بحركات الحَرب بالحزم والضَّبط ومعه الآلاي الثاني عشر والرَّابع عشر مُنظمين على هيئة ترجح لهم الفوز والظفر[1].

وهكذا كانت العساكر المصرية مُرتَّبة بعضها على شكل خطُوطٍ مُزدوجة مُرصَّعَة، وبعضها على شكل قلاع مُربَّعة، حتَّى كانوا من أي جهة أتاهم العدو يستطيعُون أن يلتقُوه بغاية الثبات

١٥ والهدو[2]، وجعل سليم /٨٠ظ بك في القَلب ومعه صفُوفه المُزدوجَة، مُتأهِّبة لإضرَام نار الحَرب، وأقام للحَرس عن يمينه وشماله على

---

(١) شطب بالأصل، ومن الواضح أن المؤلف أثبت كلمة "الوطر" ثم شطبها وعدل عنها إلى الكلمة المثبتة أعلاه.

(٢) اعتقد أن وصف المؤلف ينطبق على ذات التكتيك الذي واجه به ولنجتون نابليون في ووترلو لتحييد سلاح فرسانه وحماية ظهر قواته من المشاة ذاتياً، وهو تشكيل دفاعي يصطف خلاله المشاة من رماة البنادق على هيئة مربع متساوي الأضلاع ذي خطوط مزدوجة من الجنود وبالتالي يضمن حماية ظهر المشاة من هجمات الفرسان المباغتة من أي جهة كما أنه يضمن في ذات الوقت كثافة نيرانية عالية.

نحو مائة وخمسين خطوة فرقتين من الخيَّالة ذوى البَسالة والسَّطوة، وكل واحدة من الفرقتين مؤلَّفة من آلايين إحداهما تحت قيادة أحْمَد بك المنكِلي، والأخرى تحت لواء أحمد بك الإسلامبُولي، وجعل بين هاتين الفرقتين مزيد ارتباط، ورتَّبهُما مع جيْش الحَرس للاحتياط.

٥ وإلى يمين ويسار وأمام الخط الأوَّل على نحو مائة وخمسين قدماً من مركز الحَجْقل أقام ثلاث طَوابي من الطُّوبجية من ذوي النَّشاط والثَّبات، والدِّراية الحربيَّة، وكذلك /٨١و قدَّم من الطُّوبجية طَابيتين وجعلهما أمام الصَّف الثاني ثابتتين حيث كانتا مائلتين نحو القلب، قادرتين على المُحاماة والضَّرب، ووضع وراء قلب الحَرس
١٠ على رؤس[1] صفوف الخيَّالة فرقة من الطُّوبجية ذوي الشُّجاعة والبسالة.

وفي طرف الجناح الأيمن وإلى الوراء اصطفت الدَّالاتية والبدو مُتهيِّئة للالتقاء، وجعل في جبل قرية سلح طابُورين من قوَّاصة[2] الأتراك الذين كانوا [قد][3] سلَّموا طوْعاً، وانتظمُوا حديثاً
١٥ للقتال والعراك، وكان الجيش مُستنداً إلى قونيَّة من وراه[4]، وعن يمينه إلى الأمام أراضٍ مُستنقعة بالمياه، وعن يساره إلى الوراء قرية سلح ومُرتفعاتها العَوال، /٨١ظ وهي من هناك على مسافة ثلاثة أميال، وكان من قُدَّامه تلك الجبال التي تتصل بالسَّهل من جهة

---

[1] كذا بالأصل.
[2] المقصود قناصة الأتراك.
[3] زيادة اقتضاها السياق.
[4] كذا بالأصل.

الشمال، وعند حضيض تلك الجبال جيُوش الأتراك مُغطّاة بالـضّباب الكثيف مُستعدة للشّباك والعـراك.

وأما جيش العدو فكان مُرتباً على أربعة صفُوف بحسب مـا هو بترتيب حركات الحَرب معرُوف، فكـان الأوّل منهـا مُنتـشراً، والثّلاثة الأخر مُتجمّعة، وكانت فرقاً فرقاً على عدة باشَاوات مُوزّعة، وكانت الطُوبخَانة مُقسّمة من مدفعين على كل طابُور، ومـن أربعـة على كل آلاي بالعد المحصُور.

وكان خَيْر الدّين باشا على الجَناح الأيمن قد تصدّر، وسَـعْد الله باشا على القَلب قد /٨٢و تأمّر، والصّدر الأعظم أخذ لنفسه قيـادة الجناح الأيسَر، وكانت هذه الجيُوش مُستندة من الورَاء إلى الجبـال، وجانبها الأيمَن إلى قرية سلح وتلك التلال، وإلى جانبـه[1] الأيـسر الأرض والسهل ذات الردغات والوحـل، وإلـى أمامـه[2] قُونيـة والعساكر المصريّة، وطريق العاصمة بين الفريقين على السّويّة.

وكانت عساكر الأتراك مؤلّفة من ثلاثة وخمسين ألفاً وثلاثة وتسعين مدفعاً من أجرام مُختلفة، وكان الجيْش المصري خمسة عشر ألفاً غير زائد ومعهُ ستّة وثلاثُون مدفعاً من جرمٍ وقياس واحد، ولـم يكن قُدّامهم سوى أمرين؛ إما الإقْدام /٨٢ظ والانْتصَار، وإما الانْهـزام والبوار.

[1] كذا، والصواب جانبها.
[2] كذا، والصواب أمامها.

وكان الصَّدر الأعظَم قد وطَّن نفسه على أن يذهب قتيلاً أو يرجع غالباً، وأقام أحْمَد فوْزي باشا عنهُ نائباً حتى إذا اقْتَضى الحال لا يقع في العسكر اختْلال، غير أنَّه لتراكم الضّباب وتكاثف السحاب قد أقام الفريقان بُرهة من الزّمان لا ينظر أحد منها الفريق الآخر، ولا يفعل أدنَى حَركة بأن يتقدَّم أو يتأخَّر.

وعندما ظهر النُور قليلاً، وأزال من الضّباب ما كان حِجاباً ثقيلاً انطلقت أعْيُن الرّجال والأبطال، ورأى الجيش المصري عدوَّه مُنتظماً على مَسافة ثلاثة أميال ؛ فأمر إبراهيم /٨٣و باشا الجناح الأيسر أن يلوي قليلاً إلى الورَاء ولكن بكل انْتِظام بحيث لا تتمكَّن منهُم الأعْداء ؛ لأنه رأى أن مُعظم حَركتهم مُتَّجِهةٌ إلى نحو تلك الجهة، فاندفعت عَساكر الأتراك إلى الحَرب أيُّ اندفاع، وظلَّت سائرة حتى بقي بينها وبين المصريِّين نحو ألف ذراع، فبدأت الحرب بقُلوب غير جَازعة، وأطلقت مدافعها طلقات مُتتابعة، إلا أن المصريِّين لم يُقاتلوا[1] تلك الحركة كمن تأثَّر، بل لبثُوا ينتظرُون تقدُّم العدو أكثَر فأكثَر.

وعند ذلك أخذ إبراهيم باشا يفتقد[2] الصُّفوف، ويجُول بين العساكر ويطُوف، ويشجِّعهُم بالكلام، ويحرّضهم على /٨٣ظ الثَّبات والاقْتحَام، ثم سار إلى جهة اليمين نحو بِئْر هناك قديمة السِّنين، ليقف بأكثر جلاء على حَركة جيش الأعادي، ومعه ألف وخُمسمائة من

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "يقابلوا".
[2] كذا بالأصل، ولعله أراد "يتفقَّد".

العَرب الهنادي، وجماعة من أعوَان حربه، وكثيرٌ من الذّوات الـــذين كانوا يفُوزُون بقُربه.

ولمَّا وصل إلى تلك البئر المذكُورة بقوَّاده وأبطاله المشهُورة اتفق أن شُقت حجب الضبَّاب، وزال قتام السحاب، فأمكَنه حينئـــذ أن يرى جميع الجيُوش السُلطانية ويتأمَّل حركاتهم الحربيَّة، وكان جـــيش فرسان الأتْراك قد انفصل عن المُشاة وتقدم للعراك ليفُـــوز بـــالفخر والسُّطوة، وأصبح /٨٤و بينه وبين جانب الجيْش الأيْسَر نحـــو ألـــف خطوة، فعزم إبراهيم باشا من غير تباطي[1] أن يدخل بينهما بالجيش الاحتياطي، وأمر البدو أن يتقدَّموا على الأثَر ليقفوا بـــأكثر وضـُــوح على حالة ذلك العسكر، فساروا قليلاً ولم يلبثُوا طويلاً حتى رجعـــوا مُنكَسرين، ومن كلل الأعداء مُتشتِّتين.

فأمر حينئذ جيش الفُرسان وجيش الاحتيـــاط والمُـــشاة مـــن الشُّجعان أن يتقدَّموا نحو العسكر، ويهجمُوا على جناحي العدو الأيمن والأيسر، فاندفعُوا جميعا كالسيل العَرمرم، ونزلوا[2] علـــى الأعـــداء نزُول القضاء المُبرم، وقد هانت عليهم /٨٤ظ الآجال في جنب بلـــوغ الآمال، فصدمتهم الأعْداء صدمتهم[3] تُزعزع الجبال، وتـــرد أسُـــود الدّحال عن حماية الأشْبَال، فتراكم من الجـــانبين الهيَـــاج، وتلاطـــم الجَحفلان كالأمْوَاج في البحر العُجاج، وهاج كلٌ وماج، وخاض فـــي

---

[1] كذا بالأصل.

[2] كذا بالأصل : ونزول، وشطبها المؤلف وعدل عنها إلى المثبت بأعلاه.

[3] كذا بالأصل، والصواب "صَدمةً".

البلاء وعاج، وتفاقمت الأهوَال وارتفع العُجاج، ودار بهم ملك الموت من سائر الجوانب والفِجاج، وما زالوا على تلك الحال وهم في أشـــد قتال، حتى تفطّرت مُهـــج الرّجـــال ، وتكبْكبـــت رؤس[1] الأبطـــال، وجرى الدّم وسال.

٥ وكانت من الجانبين صيحات الجنود تُذعر قلـــوب الأسُـــود، وفعل في ذلك اليوم المصريُون مالم يُفعل /٨٥و مثلـــه فـــي ماضـــي القرون، ولا رأت مثله العيُون من أيام الإسكَندر ورمسيس الأكْبـــر، [وما][2] لا يستوفي وصفهُ الكلام، وتعجز دون بيانه ألـــسنة الأقـــلام، وكان بطلهم إبراهيم – وسيِّدهم العَظيم – يجري بينهم بأســـرع مـــن ١٠ النّسيم، وهو يهوّن عليهم الأهوال، ويُحرّضهم على الثّبات والقتـــال، ويقتحم بنفسه أحياناً أشدَّ المَخَاطر، ويفعل تارات مـــالا يفعلـــه أحـــد العَساكر بهجُومه على الكَتائب والمَواكب، وعدم اكتِراثـــه بـــالأهوال والنّوائب، حتى خُيِّل لجنُوده أنه لم ينظر العِدى، أو لم يعرف المَـــوت والردى.

١٥ وكانت طلقات البَنادق /٨٥ظ والمَدافع تصعق الفلك كـــالرّعُود، وترج الأرض كالزّعَازع حتى كادت تلك الجبال القَريبة تتزلزل مـــن قواعدها لهَول تلك الحَرب العجيبة، وكانـــت تلـــك الطّلقـــات دائمـــة القصف والارتجاج كالبَراكين الهائجة أشدَّ الهياج، ومُهاجمات الرجال والفُرسان، وحَرّ الضّراب والطِّعان يحرق الأرض فتطيـــر حـــصاها ٢٠ شراراً، ويصعد غبارها دُخاناً وناراً.

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

وكان جيش الأتراك يحاول مع شدَّة العراك أن يخرق صفُوف المصريِّين، ويشتِّتهم ذات الشِّمال وذات اليمين، ولكنهم ثبتوا ثبُوت القلاع، وامتنعوا عليه أشد امتناع، فكان العَدو /٨٦و لا يستطيع أن يُحارب كمُحاربتهم، ولا يأمن على السَّلامة من مُقاربتهم، فلذلك لم يستطيع الأتراك أن يدنُوا منهم وإن كانوا يزيدُون أضعافاً عنهم، فقصر عدوهم عما كان يريد، وسلمت صفُوفهم من الاختِراق والتَّشريد، بل كانُوا يهجمُون عليه هجوم الصَّناديد، ويأسرون القريب من عَساكره ويذعرُون البعيد.

ويمكننا أن نقول أن كلا من الفريقين قد فعل في صفِّه ما يعجز القَلم عن القيام بحق وصفه، فكان الرجال يهجمُون على الأبطال، والأبطال على الرِّجال، وكثيراً ما يلتحمُون اختلاطاً في ضيق المجال، فيراهم النَّاظر كخيالات /٨٦ظ سوداء يقطُر الدم منها، وقد تدرَّعت من العُجاج بعد أن تمزَّقت أثوابها عنها، وكان صوت البارُود يزيد أصواتهم إرعاداً، ودخَّانه يزيد ألوانهم سَواداً، حتى تجسَّم الويل للأبصَار واشتدت ظُلمة الليل في وسط النَّهار.

ومما كان يزيد فَظَاعة ذلك المَنظَر المُخيف دويُّ الحَرب العنيف، وتراكُم ذلك الضَّباب الكثيف الذي كان لم يزل يحجُب بعضهم عن البعض، فيلتطم الجَحفَل بالجَحفل، وينصرعُون جميعاً إلى[1] الأرض، وقد تفطرت أكْباد تلك السّهول، وتمزَّقت أحشاء تلك الجبال والتلُول من صرخات المُتوجِّعين، /٨٧و وتنهُّدات المُتألِّمين، وأنَّات الكَراديس المقتُولين.

[1] بالأصل: إلى، وشطبها المؤلف وعدل عنها إلى الكلمة المثبتة أعلاه.

وبينما كان القتال هكذا شديداً - تقشعر منه الأبدان ولو كانت حديداً - أظهر المصريُّون الشّجاعة الزايدة في المُكافحة والمُجالدة، وهجمُوا على الأعداء من ثلاث جهات في دُفعةٍ واحدة، وانقضُّوا عليهم كالعقبان وحكّمُوا حرابهم في الصّدور والأبْدان، ٥ وفعلوا فعالاً تعجز عنها مَردة الجَان، وأما الأتراك فلما نظروا إلى جلاد المصريِّين وثباتهم، وشدة هجماتهم ووثباتهم قطعُوا الآمال من الظّفر، ووقعُوا في الارْتباك والحير، وأيقنوا بالمَوت الأحمَر، فأرْكن بعضهم إلى الإحْجَام، /[٨٧ظ] وفرَّ بعضهم دون ترتيب ولا انْتظَام، فكانوا يتقلّبُون في ذلك القفر كما يتغلّب تيار المَوج في لُجَّة البَحر.

١٠ وبينما هُم في ذاك الشّتات القاطع، صدمتهم فرقة الآلاي الرّابع تحت قيادة صاحب البَطش القوي أحمد بك المنِكْلي فأراهم العَجائب، وفعل بهم الغَرائب، فتحيَّروا من عظم البَلاء، وارتدُّوا مذعُورين إلى الوَراء حتى وقعُوا على باقي أصحابهم وهم يرون المَوت قد أحاط بهم، فاختبط جيشهم طولاً بالعَرض، وأمسى لشدة ١٥ الارتباك بعضه يصدم بعض، وحينئذ اشتد الويْل وازدحمت الرِّجال بالخيل حتى /[٨٨و] كانت لهم ساعة تُحزن النّاظر، وتوجع القلوب والضّمائر، لا يستطيع القلم أن يصفها، ولا من لم يُشاهدها أن يعرفها، فأعْمَل المصريُون بهم أسنّة الحديد، وكلل المَدافع ورصَاص البَواريد، وحكّمُوا القَنابل والسّيُوف في تفريق الكتائب وحَصْد ٢٠ الصّفوف.

وأما الصّدر الأعْظَم فإنه لما رأى ذلك الخَطب العَرمْرَم اقتحم معركة الصّدام عازماً على إرجاع النّظام، وإعادة صفُوف جيوشه

إلى التَّرتيب والالْتِحام، وتجديد الحَرب والاقْتحام بعد ذلك الانْهـزام، وكان قد قُتل تحته في ذلك اليوم ثلاثة أحْصِنة، /٨٨ظ وتجرَّح الرابـع في عدة أمْكِنة، فسَار - كالبَرق إذا صدر - إلى نحو الآلاي السَّابع عشر الذين كانوا من المُشاة، وأمسوا في حالة بعيدة عن النَّجاة، بـل كانُوا في أسواء الأسْوَاء[1]، وعلى همَّة تسليم سلاحهم للأعْداء، وفيما هو يجُول من خلف وأمام، وينشِّطهم على الهجُوم والاقْتِحام لمحهُ قائد من قوَّاد المصريين وشُجعانها الموصُوفين، فعلم من ملبُوسه الثَّمـين أنَّه من ذوي الدَّرجات العَالية والرُّتب الرفيعة السَّامية، فأمر بعـض البَدو أن يلحقُوه فلحقُوا به وضايقُوه، وأخذوا عليه بعـض الخنَـادق وهمُّوا أن يطلقوا /٨٩و عليه البنـادق، فأشَـار إلـيهم أن لا يفعلُـوا، وأوقفهم عما عوَّلوا، ثم قال : "أنا الصَّدر الأعظم، ودسـتُور الدولـة الأكْرَم"، فحينئذ تركوا بنادقهم وتقدَّمُوا إليه، وأخذوا سيْفَهُ وسِـلاحه، وكُل ثمين عليه حتى أخذوا طَوق برفسه المُزركش بالطراز البـديع، ولم ينظرُوا إلى ما يجب من الوَقار إلى شَخْصِه ومقامه الرَّفيع.

وفي الحال جاء سَليم بك قائد الطُّوبجية وأحْمَد أفنـدي يـاور إبراهيم باشا في الأمُور الحربيَّة، وأخذوه من أيدي البَدو بكل احْتـرام واعتبار إلى مولاهم إبراهيم باشا الباسل القهَّار، وكان قد مَضى لهـم ساعتان في الحَرب وشدة /٨٩ظ الكفاح والطعن والضرب من حينمـا أسروه إلى أن أتوا به إلى مولاهم وأوصلُوه ؛ فالتقاه إبـراهيم باشـا بالوقار ومزيد الاعتبار، وبالغ في إكْرامه وشيَّعهُ بخفرٍ يليق بشخصه

---

[1] كذا بالأصل.

ومقامه، وأوصى خفره أن يوصلوه إلى قُونيَّة بالتَّبجيل والتَّكْريم، وينزلوه في الدَّار التي هُو فيها مُقيم.

هذا وأن نار الجلاد لم تزل بمزيد ازدياد إذ الأتْراك كانوا لشدَّة بلاهم لم يعلموا بأسرِ مَوْلاهم، ومع ما كان [قد][1] انْهزم من الصُّفوف تمكَّن قوَّادهم من إرجاع الباقين إلى النِّظام المَألوف، فثبتوا بالعزم القوي وهجمُوا على المصريِّين على هيئة الخَط المُلتوي ليحيطوا بهم من ثلاث /٩٠د جهات، ويقطعوا خط اتِّصالهم بقُونيَّة، ويرمُوهم بالشَّتات، على أنَّهم لو تمكَّنُوا من ذلك لرمُوا المِصريِّين بأفْظَع المهالك، وكسرُوهم كَسرةً هائلة، وخسَّرُوهم أتعابهم سنةً كاملة بحيث لا يعُود يُمكنهم الرجُوع إلى الثَّبات، ولا تعويض ما فات.

وشرع الأتراك على هذا العزم يتقدَّمُون، وكادُوا بحركتهم هذه ينجحُون، إلا أن بعض قوَّاد المصريِّين النُّبلاء قد لاحظ وعرف ما صمَّم عليه الأعداء، فسار بأسْرع من البَرق اللاَّمع، وأعلَم قوَّاد الجيُوش بالواقع، فثبت جناح الجَيْش المصري ثباتاً يقضي بالعجب، ويستحق أن يُدوَّن بأحرفٍ من ذهب إذْ /٩٠ظ على ذلك الثَّبات والصَّبر يتوقف النَّصر والكَسْر.

وبعد قليل لما رأى الأتراك ثبات المصريِّين على الهجُوم والعراك، واستبعدوا الفوز والفلاح، وقطعوا الأمل من النَّجاح ؛ فولُّوا الأدبار، وأركنوا إلى الفرار، وتبدَّدُوا مُتشتِّتين في تلك القفار، فأمر

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

إبراهيم باشا جيْش الفُرسان أن يُطاردهم ففعل وأدركهم مُنهزمين عن عجل، فأنزل بهم من الأهوَال ما يقصُر عنه المقَال، وأخذ منهم نحواً من ثمانية آلاف أسير وستّة وخَمْسين مدفعاً بين صغير وكبير، وكسبُوا أعلامهم وراياتهم وجميع ذخائرهم ومُهماتهم، بل كسبُوا منهم ما لا يُحصى وغنمُوا ذخائر وصفها /[٩١و] لا يُستقصى.

وقد قتل من الأتراك في ذلك اليوم المهُول ثلاثة آلاف رجل، وفقدوا مثلها من الخيُول، وتركوا ضعفها مجاريح مُنطرحة في تلك السُهول، وأما خَسارة المصريين فكانت نحواً من ثلاثمائة وستِّين، ومن المَجاريح خُمسمائة وثلاثين، وما برح الدَّالاتية وعرب الهنادي يُطاردون جموع الأعَادي بدون تقصير ولا تأخير حتى أوصلُوهم إلى أبواب مدينة أكْشَهير، فأسرُوا منهم كثيراً، وقتلوا جمَّاً غفيراً، وكان ابتدا[١] هذا القتال بين العَسكَرين من بعد الظُهر إلى ما بعد المغرب بساعتين، فاستمر نحو /[٩١ظ] سبع ساعات ونصف على ما سبق من التَّفصيل والوصف، وبعد ذلك رجع الجيش المصري إلى قُونية ظافراً منصُوراً، وغانماً موفُوراً ؛ فدخلها على ثلاث ساعات ونصف من المساء وهو سَكران بخمرة النصر على الأعْداء.

ولما عاد إبراهيم باشا إلى منزله في سراية قُونيَّة أراد أن يرى أسيره مرة ثانية، فأتى الغرفة التي كان [قد][٢] أنزله بها ذلك اليوم فوجده راقداً مُستغرقاً في النَّوم، فأيقظهُ بكل لطافة ووقار،

---

[١] كذا بالأصل.

[٢] زيادة اقتضاها السياق.

وسأله بكل إجلالٍ واعتبار أن يحضر - إن شاء - إلى ديوانه، ويستأنس به وبأعوانه، فنهض وتبعه في الحَال، وهو تلوح عليه علائم العَظمَة /٩٢و والجَلال، ولما بلغا المكان ودخلا الدّيوان أعطَاه إبراهيم باشا المحلّ الأوّل ليجلس به وجلس هو بقُربه، وكان يُعامله مُعاملةً حَسنة، ويعتبره كأوّل رجل من وزراء السّلطنة، ويحتفله[1] احتفالاً زايداً، أُعجب به كل من كان شاهداً.

ثم أمر إبراهيم باشا بالقَهوة أن تحضر، ولما أُحضرت أبَى أن يشربها مُحمَّد رشيد واعتَذر، وقد ازداد قلقاً وغمّاً، وخاف أن تكُون ممزُوجة سُمّاً، وطلب عِوضَها شَربة من الماء، لأنه كان في غاية الظّما، فأمر إبراهيم باشا أن يأتُوه بكأس شَربَات، فقال : "إنّي أفضّل المَاء على جميع المشروبات"، فانتَهر إبراهيم باشا /٩٢ظ رئيس السُّقاة وقال :- "أحضر كأس شَربات بدون إمْهَال"، فإذ ذاك لم يعد محمد رشيد يجد بُدّاً من القبول بعد ذاك التّشديد، ولما مَلأ السَّاقي الكأس وأتى بها كان مُحمَّد رشيد يتمهّل عن أخذها وشُربها، فمدَّ إبراهيم باشا يده بسرعة، وشرب منها قِسماً كبيراً من أول جَرعة، ثم قال له :- "خُذ ولا تُسئ بنا ظنّاً" فأخذها وشَربها مُطمئناً.

وفي ذلك الليل أمر إبراهيم باشا سُليمَان بك الفرنساوي أن يتبع الجيش أثر العدو في تلك البَراري والمهاوي، هذا وإن هذه الكسرة القويَّة قد وصلت أخبارها إلى القُسطنطينيَّة بسرعة كُليَّة، فاضطَربت الأهالي الصّغار والكبار، وجزعت رجال الدّولة /٩٣و من

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "ويحتفل به".

تلك الأخبار حتى أن السُّلطان أمْسَى مشغُول البال مُـضطرب اللُّـب كثير البلبال، وكانت لم تزل السُّعاة تتقاطر، وتصل الواحد بعد الأخر حاملة أخبار الويْلات، وذلك الكسر والشّتات، حتى أن انتصار الدولة المصريَّة قد زعزع أركان السُّلطنة العُثمانيَّة، ولهج الرِّجـال والأوْلاد
٥ بأن المصريِّين قتلوا وأسرُوا جميع الجيُوش والقوَّاد.

ولما بلغ السلطان محمُود [خبر][1] أسـر الـصَّدر الأعْظَـم، وانكسار الجنُود انزعج واضْطَرب، واستولى عليه الغيظ والغَـضب، ولم يعد يُمكنه بعد تلك الحال وفقد المهمَّـات والرِّجـال إلا التَّـسليم للقضا، والنَّصيب الذي يَغْلب الرضى[2]، ففكَّر رجال الدولة فيما /٩٣ظ
١٠ يُجبر الخلل، فلم يجدوا أوْفَق من الصُّلح في نجاح العمل، ولكن كانوا يريدُون حسم الدَّاء، وتسكين تلك الدَّاهية الدَّهماء على طريقة مُناسـبة مُرضية، بحيث لا تنهتك بها حُرمـة الدولـة العليَّـة بعـد العَظمـة والاقْتِدار، والصَّولة والفَخار.

فطلبُوا إذ ذاك من رُوسيا أن تُساعدهم ومـن فرانْـسَا[3] أن
١٥ تتوسَّط القضيَّة، وأفهمُوها مقاصدهم، ولفصل بلوى هذا الخلاف توجه خليل باشا مع الجنرال مُورافياف قاصدين الأسْكَنْدرية ليـسعيَا فـي نهاية هذه القضية مع الحَضرة الخديويَّة، فأقاما هناك المُخابرة بكـل المجهُود، ولكن سَعيهما لم يأت بتمام المقصُود، حتـى أن الجنـرال

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.
[2] كذا بالأصل.
[3] كذا بالأصل.

مُورافياف المذكُور /٩٤و لمَّا لم يجد باباً لحسم تلك الأمور تهدَّد الخديوي الأعظَم، والدَّاوري الأكْرَم الأفخم، بأنَّهُ إذا لم يأمر ولده إبراهيم باشا بالرجُوع والانْكِفاف عن الحرب والهجُوع ؛ فإن دولته المسكوبيَّة[1] مُستعدة لإرسال عمارة حَربيَّة لتضرب الأسْكَندريَّة، إلا أن تلك التَّهديدات لم تُزعزع الخديوي صاحب الانْتصَار والثَّبات. ٥

ولما طلب الباب العالي من فرانسا[2] توسُّط الحال ورفع الحرب والقتال فإن وكيل سفارة فرانسا[3] البَارون دي فارين – الذي كان من رجال السياسة المُعتبرين – بعث بالرسالة الآتية إلى إبراهيم باشا صاحب الهِمم السَّامية :-

"/٩٤ظ حضرة صاحب القدر الشَّامخ، والمقام الباذخ، إنه لمن واجباتي أن أخبركم بأن البَاب العالي لما كان يُحب أن يضع حدّاً للحرب القائمة التي تجلب الدَّمار على رعَاياه – التي أقامته العناية وكيلاً أميناً عليها – فقد بعث بخليل باشا إلى الأسْكَندريَّة، وفوَّض إليه أمر إيجاد علاج للخلاف الحَاصل وتسوية نهائية مع حضرة صَاحب السُّموْ مُحمَّد علي باشا وَالدكم المُعظَّم. ١٠ ١٥

[1] النسبة هنا إلى عاصمة الدولة موسكو، وكان قنصل روسيا بمصر يدعى بقنصل المسكوبية أو المسكوا، انظر :-
الخشاب : خلاصة ما يُراد من أخبار الأمير مراد، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر، دانيال كريسليوس، القاهرة ١٩٩٢، ص ٢٩.
[2] كذا بالأصل.
[3] كذا بالأصل.

وإذْ كان هذا المشرُوع ناشئاً عما كُلّفت تبليغه من جانب الباب العالي إلى حضرة صاحب السّمو والدكم المَاجد رايت أنه من الفرض الواجب علي أن أعلمكم به، وأنا بصفة كَوْني وكيل دولة – هي ولئن لم تكن تتمنّى على الدّوام إلا نجاح ولمو [٩٥ب] السّلطنة[١] /٩٥و العُثمانيّة – لها أيضاً أمانة كلية في الحَضرة الخديويّة، ولذا تفوّض إليّ أيضاً أن اتَخابر مع سموُكم، فأنا حسبي يا صاحب السّمُو أن أطلعكم على أحوال الأمُور، راجياً بعد أن تكونوا وقَفتم عليها لا ترون مكاناً لُمداومة أسباب النّزاع والعَداوة التي غائلتها اللوم والعَار، والمسئوليّة على مُسبّبيها، وربّما منها تتولّد الصعُوبات التي تحول دون المقصُود، فتمنع إنهاء الخلاف المُباشر فيه.

فإذا تقرّر ذلك فلا غَرو ألكم تحلُّون تقريري هذا محلّ الصّدق والصّواب، وتتلبّثُون عن التقدُّم إلى أمام، وتصدرون أوامركم إلى قُوّاد جيشكم بالتوقُّف، وإنّي لُمعتقد اعتقاداً جازماً بان سُموّكم وافر التعقل، حسن /٩٥ظ الإدارة بإلقاء[٢] السّلامة والتأمين، فلا يرضى بما يناقض ذلك.

وأنا مُرسل كتابي هذا لسموّكم صُحبة ساعٍ، فأرجُو متى وقفتُم عليه أن تكُونوا على يقين مما تضمّنه من مقاصدنا

---

[١] كلمة السلطنة ليست بالنص، لكن المؤلف أثبتها في تعقيبة الورقة ٩٥و.

[٢] كذا بالأصل.

السّليمة، راجياً أخذ الجواب الذي ستشرفُوني بـه صُحبة ناقله، وإنّي اغتنم هذه الفرصة يا صاحب السُّمو والفخر لأقدّم لديكم خُلوص حاسياتي[1] واعتباري التّام.

وكيل سفارة فرانسا[2] لدى البَاب العالي

(الإمْضَا[3]) البارون دي فارين

من ترابيا في ٩ خلت من شهر كانُون الثاني سنة ١٨٣٣.

فلما وقف إبراهيم باشا على هذا الكتاب وقرأه، واطّلع على فَحْواه أجابه بما معناه أنه لما لم يكُن إلا /٩٦د قائداً للعَساكر المصريَّة، فلا يُمكنه إلا أن يسلُك بحسب الأوامر الخديويَّة، وبناءً عليه ليس بوسْعه أن يتوقَّف ويُضيع الفُرصة، ثم حمّل الصّدر الأعْظَم أن يُعلم الدَّولة بتقدُّمه نحو بَرصة[4]، وذلك ليس على نيَّة حربٍ ولا جِلاد، وإنَّما جل القَصد والمُراد في خروجه من قُونيَّة وتلك البلاد هو لداعي هجُوم الشّتا[5] ودخول فصل البَرد، وعدم وجُود ما يَسُدُّ به احْتياج الجُند، ثم ارتحل من ذلك المكان بالرِّجال والفُرسان في التَّاسع والعشرين من شَعبان، وعند وصُوله إلى كُوتاهية[6] أرسل له البَارون دي فارين رسالة ثانية، يطلب إليه ويُشدّد عليه أن يتوقَّف في مكانه

[1] كذا بالأصل، ولم أدر ما الوجه فيها.
[2] كذا بالأصل.
[3] كذا بالأصل.
[4] برصة "Bursa" مدينة ساحلية تقع على بحر مرمرة قبالة استانبول.
[5] كذا بالأصل.
[6] كوتاهية "Kütahya" مدينة كبيرة تقع جنوب غربي اسكي شهر.

برجاله /٩٦ظ وفُرسانه، ولا يعُود يتقدَّم ولا خُطوة قَدم إلى أن ينتهى الحَال ويرتفع النِّزاع والجِدال، على طريقة مُرضيَة للحكُومة المصريَّة والدَّولة العثمانية.

وكتب أيضاً إلى الحضرة الخديويَّة يعلمها بهذه القضية، مُشدِّداً على جنابها الشَّريف أن تأمر ولدها بالتأخير والتوقيف، فلما وقف إبراهيم باشا على هذه الرِّسالة، واطَّلع على ما تضمَّنتهُ من المقالة، أجابه بهذا التَّحرير، وكان أبُوه قد أمره أن يتوقَّف عن المَسير:-

"حضرة صَاحب المَقَام السَّامي حليف الشَّرف والفخَار، ذي الهَيْبَة والوقَار، مُحبنا وصديقنا البارُون دي فارين، /٩٧و لقد حظيت برسالتكم الودَادية التي بعثمُوها لي بتاريخ ١٠ رمضان سنة ١٢٤٨ (٢٩ كانون الثاني سنة ١٨٣٣) ووقفت على ما تضمَّنته من المحبَّة والخلُوص[1]، ثم ألني قبل أن أسير من قُونية قد عرَّفت الباب العالي بواسطة الصَّدر الأعْظَم أنَّ الذي حملني على الخروج من قُونيَّة والتقدُّم إلى بَرصة لم يكن إلا داعي عدم وجُود ما يسد احتياجات الجيْش ويقوم بأوده في فصل الشِّتاء البارد ولُقصان الحَطب.

[1] كذا بالأصل.

وإذا لم يكن لي أدنى قصد في حركتي إلا السبب الذي ذكرته، فإذا تقدمي كان من هذا القَبيل – وإذ قد وصلت الآن إلى كُوتاهية، ووجدت /٩٧ظ فيها ما يكفي ويقوم بأود الجَيْش – فقد صمَّمتُ على الوقُوف هُنا امْتِثالاً لأوامر والدي وولِّي نعْمَتي إلى أن تَرد لي منه إفادة جَديدة في هذا الشأن، وإنني سأعلم الباب العالي بذلك أيضاً راجياً أن أكُون قد وفَيت بمرغُوبات سَعادتكم الودادية، التي يَسُرني جداً أن أقوم بالإيفاء بها.

وإنّي انتهز هذه الفرصة لا سْتفحص عن عزيز سَلامتكم.

(الإمْضا[١]) إبراهيم

من كُوتاهية في ١٥ رمضَان سنة ١٢٤٨.

وكان إبراهيم باشا قد أطلق سبيل الصَّدر الأعظم فعاد إلى الأستانة، وكانت الدولة /٩٨و [قد][٢] سمّت أمين رأوف[٣] باشا صَدراً أعظم مكانه، وفي ١٧ شباط سنة ١٨٣٣ مسيحيَّة قدم البارون رُوسين سفير فرانسا[٤] إلى القُسطنْطينيَّة فتمثّل أمام حضرة السُلطان وتخابَر معه بهذا الشأن، ووعده بأنهاء الخلاف على أي وجه كان، وأرسل إلى الحضرة الخديويَّة برسالة ودادية يطلب منها ترجيع الجيُوش المصرية إلى بلاد سُوريَّة، وهذه صورتها :–

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

(٣) كذا بالأصل.

(٤) كذا بالأصل.

" حضرة صاحب السُّمو والمقام العالي، لا يخفى عليكم المركز العَسِر الذي بات فيه البَاب العالي من جرى[1] نجاح ولدكم إبراهيم باشا، حتى أنه اضْطرّ أخيراً أن يقبل مساعدة دولة /٩٨ظ رُوسيا الماديَّة[2] التي كانت قد عرضتها عليه ورفضها غير مرة.

ولما بلغه أخيراً حُسن نواياكُم وميْلكم إلى فصل الخلاف طلب توقيف تلك المساعدة، ولكن لسُوء الحظّ تأخرت الإفادة فوصلت العمارة إلى البُوسفُور قبل وصول إفادته.

والآن قصدي أن أحْملكم على قبُول ما عرضه عليكم خليل باشا مُعتمد الباب العالي لكي توفِّرُوا أسباب نزع السَّلام، ليس في الشَّرق فقط بل في الغَرب أيضا، لأنّ ذلك أصبح يُضر بميْزانيَّة أورُوبَّا وبصَوالحنا أيضاً، فإذا أرجُو سُموكم - ليس فقط من أجل صَوالحكم الخُصوصيَّة بل من أجل سَلامتكم وأمْنكم الذّاتي أيضاً -أن لا تتصلَّبُوا /٩٩و في عَزمكم، وأن ترضُوا بما سَمح لكُم به الباب العالي من باشويَّة عكّاء ونواحيها وبعض أطْرَاف سُورية، وإلا فبمزيد الأسَف أقول لسُموكم أنَّكُم إذا كُنتم لم تزالُوا مُصمِّمين على عدم التوقُّف، وإخراج عساكركم من الأناضُول تحملُون دوْلتي على أن تمُدَّ نحْوكُم ذراع العدوان، الأمر الذي لا نرضَاه.

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "جرّاء".

[2] كذا بالأصل، ولعله أراد "المعادية".

وأنا قد تعهّدت للباب العالي بذلك إذا اقتضتهُ ظروف الحال،
ودولتي لا يمكنها إلا أن تنفذ ما قد تعهّد به وَكيلــها المُطلــق،
ورسَالتي هذه تصلكم صُحبة باشْ ياوري فأرجو أن يُـصادف
لدى سُموكم المُعاملة اللائقة المُتصف بها شَخصكُم الـسّامي،
وأن تكُونوا على /٩٩ظ يقين لمــا تـضمّنت مــن مقَاصــدنا، ٥
وسُموكم تعلمُون ما بين دولتي وبينكُم من الـودَاد ومُراعـــاة
الخَاطر، فلا تحملُونا إذاً على أن نُخــالف ظنّنـا بمقاصــدكم
السّامية، ومن طيّه تجدُون صُورة الرّسالة التي بعثــت بهــا إلى
جناب ولدكم الأمْجَد.

هذا وإنّي اغْتنم هذه الفرصة الثّمينة يا صاحب القدر والفخر ١٠
لأؤكد لسُموكم اعتباري التّام.

ألفيس أميرال سفير فرانسا[1] لدى البَاب العالي.
(الإمضا[2]) البارون رُوسين
من ترابيا في ٢٢ شباط سنة ١٨٣٣.

فأجابه الخديوي الأعظم والـداوري الأكـرم الأفخـم بمـا ١٥
مُلخـصُه :-

"/١٠٠و وصلتني شِقّتُكم الرّسميّة بتاريخ ٢٢ شِباط ســنة ١٨٣٣
وفهمت مضمُونها، أما قولكم أن ليس لي حق أن أطْلُب أكثر من

---

(١) كذا بالأصل.
(٢) كذا بالأصل.

باشويّة عكّا ونواحيها وبعض أطراف سُوريّة، وبناء عليه يجب أن أخرج عَساكري من الأناضُول بدون أذنٍ عاقة[1]، ثم تتهدّدني إن لم افعل ذلك، فمهلاً يا جناب السّفير المُحب، بأي حقّ تطلبُـون منّي ذلك، الم اغلب ؟!، أو لم أكن قادراً أن اغلب بعد ؟! فكيف تكلفُونني ترك حقّ كهذا ؟ إني أرجو أن مقاصدنا ونوايا دَولتكم المُعظّمة وخدينتها الدولة الإنكليزيّة لا تُريدان منّـي ذلـك ولا تُحوجَاني إليه، بل تُعاملاني بالمَعدلة والإنْصَاف، وإنني أقُول ثانيـاً انني قد غَلبت وقد يَحقُّ /١٠٠ظ للغالب أن يضَع الشُّروط وليس للمغلُوب، وانّني لا أتنازل عمّا قد طلبتهُ من مُعتمد البّاب العالي، وإذا اقتضت الحال فإني مُستعدٌّ أن لا أعيد السّيف إلى غمده قبل أن انال المقصُود، او أموت شَريفاً بين جيشي وأمّتِي.

وإنّي يا جناب السّفير اعتقد اعتقاداً جازماً بعـدالتكم وجَـودة تدبيركُم، ولذا أرجُو أن تصادقُوا على تصرُّفي، وأن تَسْندوا لدى الباب العالي مَطاليبي التي بلّغتها إلى خليل باشا، والسّلام أحـسن ختام.

(انتهى مُلخّصاً)

(الإمضا[2]) مُحمّد عَلي

من الأسْكَندرية في ٨ خلت من آدار[3] سنة ١٨٣٣.

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "إعاقة".
[2] كذا بالأصل.
[3] كذا بالأصل، ولعله أراد "آذار".

/١٠١و ولما بلغت هذه الرّسالة السّفير المُشار إليه، واطّلعت الدّولة على ما احتَوت عليه ؛ لم تجد بُدّاً من مُلافاة الأمر، وإخماد ذلك الجَمر على طريقة مُناسبة، خوفاً من العَاقبة، ففوّضت البَارون روسين بفضّ هذه القضيّة، وأنها تتنازل للحضرة الخديويّة عن جزيرة كريت وسُوريّة، وتُسلّم مقاليدهما للحكُومة المصرية.

فأرسَل البارُون رُوسين البارون دي فارين في التّاسع والعشرين من آدار[1] إلى كُوتاهية وتلك الدّيار للمُخابرة مع إبراهيم باشا بهذا الصّدد، وعند وصُوله إلى ذلك البلد التقاه إبراهيم بالتّرحيب والتّكريم، واحتفل له الاحتفال العَظيم، وبعد إقامة فرُوض /١٠١ظ الواجبات دارت بينهما المُخابرات، فطلب إبراهيم باشا علاوة على كريت وسُوريّة ولاية أدنة، ولما كان البارون المُشار إليه مفوّضاً إليه التّفويض التّام من طرف السّلطنة سلّم له بهذا الطّلب حسماً للنزاع والتّعب، وتحرّرت شُروط العُهدة في ٨ نيسان و١٦ ذي القعدة، فأمْضيت من الطّرفين، وصادق عليها كل من الدّولتين.

وهكذا انتهى الحال وارتفع النّزاع والجدال، وخَمدت نار الفتنة بعد الاشتِعال، ورجع إبراهيم باشا إلى قُطر الشّام بالعز والإقبال بعد ما بلغ المَرام، وأطاعه الخَاص والعام، ووقعت هيبته في قلوب الأنَام، فدارت بقدُومه /١٠٢و البشَائر، وقامت الأفراح وابتهجت العشَائر، وقصدته شعراء الزّمان من كل جهة ومكان، وقدّمُوا له المَدائح والتّهاني، فمن ذلك ما قال الشيخ ناصِيف اليَازجيّ اللّبنانِيّ،

---

[1] كذا بالأصل.

علامة زمانه وشاعر عصره وأوانه يمدحه بهذه القصيدة ويهنيه بتلك الفتوحات السعيدة مستفتحاً بذكر المرحوم الخديوي الأعظم، الذي برز من عرينه هذا الأسد الغشمشم :-

يا فاتح القُطرين أنتَ مُحمَّدُ ... هل دُون فتحُك في البلاد مُسدَّد ؟!

العَربُ تشهد والحَضارة قبلها ... والزَّنج تشهدُ والجَزائرُ تشهدُ

ما كان أيسر ما فَعلت وفوقهُ ... لو كان مِثلكَ في البرية يوجدُ

أنت العَليّ كما يُقال ونَسلهُ ... منك المَعالي لم تزل تتولَّد

/١٠٢ظ سُدت البلاد بهمةٍ نبويةٍ ... فالأرضُ دارك والخلائق أعبدُ

وأتيتنا باسم النبيّ وصِهرهُ ... وغَزوت غَزْوهُما على ما نعهدُ

جبلٌ بمصر إلى الحِجاز وظلُّه ... لحِق الشَّام وظلَّ منه الأبعدُ

لو كنتَ تَنهر أرضَهُن تزلزلتْ ... ولو ازْدَجرت النِّيل أوْشَك يجمدُ

يا سيِّداً عُرف اسْمُه بالرَّفع ... لا بالخَفض والتَّنوين أنت المُفردُ

بك يستعين الجيشُ حيثُ رميتهُ ... بدداً، وإياك الصَّوارم تعبدُ

لمَّا بعثتَ من الكنانة سَهمَها ... حَلفت عليه أنه لا يَصردُ

ما زالت النَّار التي وُقدت له ... برداً عليه ونَار لا تبردُ

من مثلُ إبراهيم إلا سيفهُ ... يوم الكَريهة والقنا المتأودُ

كالسَّيف إلا أنه لا يتقي ... حَذراً ويحسب أنه لمُخلدُ

ملكٌ يخاف الله ليس بحاسدِ ... وتخاف سَطْوته المُلوك وتحسدُ

يعتاد سُهد العين وهـي قريـرةٌ — من كل عين في حِمـاه ترقـدُ

/١٠٣و يا أيُّها القَمر الذي من حوله — شُهب الصَّواعق والسَّحاب الأسـود

أمطارٌ راحتك الدِّماء من العِـدى — يوم الوغَى وعلى الصُّغاة العَسْجَدُ

ارأيت ما أجْرَى عِداتُك نعمـةً — سبقُوا ولكن في الفرار وأجهـدوا

وليُّ العدو يكـاد يـسبق مُهـره — ويود لو أكل الطـريق فينفـدُ

أخذ الصَّحابة بعـضها وتخلَّفـت — منها رجَال في البقيـة سُجَّـدُ

لو كُنت تُصغي لاستمعت نَوادبـاً — في التُّرك تندُب أهلهـا وتُعـدِّد

أرسلت قبل الجيش جيشَ مهابـة — جيش العـدو لهولـه يتبـددُ

فاثبُت مكَانـك وابعـث اسْـمكَ — بعدها وكَفَى القتال به وأنت مُوسـدُ

ولقد ضَربت حصُون عكًا التـي — كانت لهيْبَتهـا الفـرائض ترعـدُ

الله أكْبَـر لـيس دُونَـك قلعـةٌ — تحْمى ولا حِـصن أشـم مُمـرَّدُ

خافت جبال الأرْض منـك وقـد — رَأت هذي الفِعال بمثلهـا تتـردَّدُ

وتحصَّنت منك الأسُود فـلا تلُـم — قوما بأعلاق الحصُون استَنْـجَدوا

/١٠٣ظ أسالت عبد الله أين قارعةٌ؟ — ورجَالـه وفـؤاده المُتوقِّـدُ

أمسى يُشدد قومـه فغـدا ومـن — لفُؤاده بفتـىً تـراه يـشـدّدَ

لما مَررت بـه أسـيراً خاضـعاً — خَشعت له أبْـصَار مـن يتفقّـدُ

دون التبصُّر فـي تقلُّـب أمـره — سبَب الزهادة عنـد مـن يتزهّـدُ

ساءت ظنون القوم فيـه وظنّـه — والظنُّ أكثـره يَخيـب ويفسـدُ

لم يدر أن القتل أهونُ عنـد مـن — دفع المَنيَّة عنـه وهـي تُعربـدُ

لا حدَّ دُونك في المَكارم والعُلـى — وعَسى البقاء عليـك لـيس يُحـدد

فالظُلم إلاَّ عـن طبَاعـك يَتَّقـي — والعودُ إلا عـن جَنابـك أحمـدُ

وقال أيضاً مُؤرخاً فتح عكّاء :-

في فتح عكّا بردُ نـار مُغَاطِـبُ[1] — دارُ الخليل وللـدِّيار بـه البُكـا

راس الثُّمـان وأربعـين بطيِّـه — مِئتان مع ألـف، فبـارك ربُّكـا

سنة ١٢٤٨

/١٠٤و وكان قد اقْتَرحهُما عليه الأمير بَشير ليُقـدِّمهما إلـى

٥ مَقامه الخَطير، وهما يتضمَّنان ثمانية وعشْرين تاريخاً علـى وجـه غريب وأسلوبٍ عجيب، وذلك يحصُل من كل شطرٍ مـن أشْـطُرهما على طريق حساب الجُمَّل، ومن مُعجم كل بيت ومن مُهملـه، ومـن جمع ما في كل شطر من المُعجم مع ما في غيره من المُهمل جاريـاً في ذلك على الطَّرد والعَكْس في الحرُوف والشُّطور بين تقديم المُهمل

١٠ تارة وتأخيره أخرى، والمُخالفة بين الأعْجَاز والصُّدور وذلـك مـن الطُّرق المُبتكرة في هذه الصِّناعة، والتَّاريخ النَّاطق لفظاً في مثل هذا مما يدلُّ على تمام البـَراعة.

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "مغاضب".

وممَّن قدَّم له التَّهاني في نوال هذا النَّصر ولهَج بالبَشائر والمسرَّات من شُعراء العصر الأديب الفاضل والأريب /١٠٤ظ الكَامل، اللوذعيُّ الذكي الشيخ أمين الجندي ؛ فإنه مَدحه بموشَّحات بَاهرة، وقصائد نفيسة فاخرة، منها قصيدته اللاَّمية التي ذكر فيها فتُوحاته الشَّامية، وهي من أرَقِّ الشِّعر وألطفه، وأجود النَّظم وأظرفه، كثيراً ما تلهج الناس بإيرادها، وتعتني في غالب الأوقات بإنشادها ومطلعُها قوله :-

عرج أخا البأساء نحو بني العُلا — والثم ثرى أعتابهم مُتذلِّلا

وابسَط أكُفَّ رجاء كَسرك عندهُم — وأجرى الدمُوع على الخُدودِ توسُّلا

ودع التعجُّب من شجاعة من مَضى — من قبل واترك عَامراً ومُهلهَلا

وزن الرِّجالَ فإن في أفرادِهم من — لا يُزان بألف ليثٍ في المَلا

ومنها :-

إن قيل إبراهيم جاء مُحاربا — سقطُوا وإن كان الكَلام تقوُّلا

/١٠٥و هو سيِّدُ الوزراء دُرَّة عِقْدَهُم — وأجلُّ من بالمُكرُمات تَسربلا

في حُكمه ترعى الضَّواري والظِبا — وبعدله أضحى الزمان مُجمُّلا

فاق الأوائل سُؤدداً وفَخامة — وسَما الأواخر رفعة وتفضُّلا

كم مُنكراتٍ قد أزال وجُودها — عنَّا وكَم من باطل قد أبطلا

لا عيبَ فيه سوى الثَّبات — وأنه يَلقى الكَتيبة وحدهُ والجَحفلا

ذو هِمَّة عَلويَّة لو صَادمت في — الحَرب طَوداً شامخاً لتزلزلا

قامت قيامة عكّة من بأسه ... وأحاط من كل الجِهات بها البلا

بمدافع ما أن لها من دافع ... وقنابل تحكي القَضاء المُنزلا

نُسيك بدراً والنّضير وخيبراً ... وحرُوب مكّة والبَسُوس وكَربلا

لو شام خَر لهيبها اسكندر ... لاندكّ مُحكم سده وتفصّلا

ووزيرها المدعُو بعبد الله ... أمن الردَى ولأرض مِصر أرسلا

/١٠٥هـ برزت جميع جنُودها لقتاله ... فهناك جدّ بفتْحها واستَعجَلا

حتّى إذا طلبُوا الأمان أجابَهُم ... وأنال كُلاً منهم ما أمّلا

وسَرى إلى حِمص ليقمع من ... غدا في مَالها وعقارها متخوّلا

وبها العَساكر والدُساكر قد حكت ... قطع الظّلام إذا بدا مُتنضّلا

زحفُوا إليه كالجَراد فأدبرُوا ... لما رأوه كالسّحر مرٌّ مُقبلا

ذُهلوا بصاعقةِ المدافع فانثنُوا ... يترقّبون إلى السّلامة مَنزلا

فترى الكُماة مُمدّين على الثّرى ... والخَيل من وقع القَنابل جُفّلا

وإلى حَماةِ الشّام سار وبَعدها ... لمعرّة النُعمان يخترق الفلا

وغداً يجدُّ السير في آثارهم ... بمواكب وكَتائب لن تُصطلا

حتى أتى حَلب فلم يرَ منهمُ ... إلا طَريحاً أو جريحاً مُبتلى

أضحت طَعاماً للطيور لحُومهم ... ودماؤهم للمشرفية مَنهلا

مـن مُبلّغ الأتـراك أن جيُوشـهم ... كُسرت وأن حُسينهم ولّى إلـى

/١٠٦و هل يَغلِبُ الأسد المُجرّبُ ثعلبٌ ... مهما اسْتَعان بمكـره وتحـيُّلا ؟!

والعزُّ في العـرب اسْـتنار مَنـارهُ ... ببزُوغ شمسِ مراحمٍ لن تأفَـلا

فأقام في تلك الرّحـاب ولـم يَـزل ... بالعزّ مرفُوع الجناب مُبجَّـلا

ومنهُم العالم العلاّمة والأديب الكامل الفهّامـة المُعلّـم بُطـرس كَرامة، فإنه مدحه بهذه القصيدة الباهرة، والخريدة النفيسـة الزّاهـرة مُعرّضاً بها بمدح جَناب أبيه المُعظّم عَزيز مصر القاهرة :-

فـتحٌ بـه الفَـتْحُ القريـب مُؤكّـد ... وكَواكـب النـصر المبـين تُوقـد

والـدّهر بعـد الغَـدر أصـبح وافيـاً ... يُثنـي عليـه بالجَميـل ويحمـدُ

والعـز أشْـرق فـي الـدّيار مُبـشراً ... رُتب العُلى والـسَّعد جـاء يغـرّدُ

ومحاسـن الأيـام ضَـاء جبينهـا بـين ... الورى فكأنما هـو فَرقـدُ

مـا المَجـد إلا بالحُـسَام ولـم يـدم ... شرف الفَتى ما لـم يـصنهُ مُهنّـدُ

/١٠٦ظ وموارد اللـذّات حـربٌ تـضرم ... الأعْداء لا كـأس تـدُور واغْيَـدُ

يا يـوم عكّـة لـم يـدع ذكـراً لمـا ... عبر الزّمان بـه ومـا يتجـدّدُ

يـوم بـه الحَـرب العَـوان تـضرّمت ... بقنابل مثـل الـصَّواعق ترعـدُ

رجمـت بـشهبِ كُراتهـا الأسْـوار ... من لهب فـدك الـشّامخ المُتوطّـد

ورمت بـصدُور بروجهـا قلـل القـ ... ـضا تلك المَدافع فهي طوعاً تسجدُ

وثعالبُ القَبْو ذات بين حصونها | تقتنصُ كل مُمنع وتمهُدُ
فتخال والهيْجاء تلهبُ حولها | نار الجَحيم بجوّها تتصمَّدُ
سبقت إليها الصُبح أسدَ عرينةٍ | وبغير صُبح حرابهم لم يهتدُوا
من كل أروع قد تعوّد في الوغى | أخذ الكُماة وما يقُول السيّدُ
وتراه يبسُم للكفاح كأنما وردُ | الحِمَام لديه نِغم المورد
وثبُوا على الأسوار ثم تسنّمُوا | الأبراج والسّيف الصقيل مُجرّدُ
وتجلّد القوم العداة وإنّما | لم يُجدِهم عند العِراك تجلُّد
/١٠٧و نثروا جماحهم ولم يمنعهُم | من سيف أجناد الجهاد مُشيد
وجرى النّجيع على الطلول فخضّبت | كف المعَالم والصّعيد مورِدُ
أمست خلاءً قد تحمّل أهلها | وبذاك خبرها الغُراب الأسْودُ
مهتُوكة الأسوار تشقّى بعد أن | كانت هي الحِصن المنيع المُسعد
عَـذْراء تخطبها الملوك ولم تزل | بكراً إليها قبل لم تُمْدَدْ يدُ
حتى أتى وافتضَّ منعة غرها | بحُسامه أسدٌ أبوه مُحمَّدُ
مولى تعوّد فتح كل مُحصَّنٍ | والمَرءُ مشغُوفٌ بما يتعوّدُ
سَلْ أهل نجدٍ والحجاز وسَل | بني قَحطان عنه والفَوارس تشهدُ
يوم أقام الحَرب دائرة على | الدّرعية الدَّرعاء وهي تعربدُ
وأذاقها الطّعن الشّديد فأخرَجت | أيدي الرماح فُؤادها يتنهدُ
وسقى عُبيد الله بعد سعُوده | كأس الهوان ولم يُغنه المُنجد

وأغـــار فـــي تلــك الــدُّعار خيلَــه — حتى أراعهم الظّبا السـددد
/١٠٧ظ ولوى أعنّتهم تكر على بني حَـام — فسل عما لقتهُ الأعبـدُ
هلكـت بنُـو الـسُّودان فـوراً — وانثنت يوم الوَغى وسَوادها يتبـدّدُ
وإلـى قتـال المَـورة المَـوراء مُـذ — رُفع الشّراع غدت تمُور وتخمـدُ
ولقـد أتاهـا والعَرمـرَم مُزبـد — بعَرمَرمٍ من أسد لا يزبـدُ
وطـئ المعاقـل والحـصُون وقادهـا — بمواقع تذكارهُنّ مُخلَّـد
سعدت بـه هـذي الـديار وأخْـضبَت — وبأهلها تشقّى الدِّيار وتـسعـدُ
شهمٌ لـو اسْـم أبيـه يُتلـى بالوغَـا[1] — لتفرّقت أعـداؤه وتبـدّدوا
وإذا تَعاظمـت الأمُـور فلحظـة منـه — تحل بهـا الأمُـور وتُعقـد
لـولاه مـا سـار الحَجـيج ولـم — يفُز بزيارة البيت الحَـرام مُوحّـدُ
أمـر الزّمـان بـأن يُـسالم أهلَـه — فأطاعه فيما يـروُم ويقـصِـدُ
فاضـت يـداه بـالنّوال سَـحائباً — هتانها صَـافي اللجـين وعَـسجَد
ملـك تتـوّج بالمَحامـد والثّنـا — وبصَارم النّـصر المَديـد مُقلـد
/١٠٨و ولقد غدا بـين الملُـوك مُحمَّـداً — وعلـيّ شـأن فَـضلهُ لا يُجْـحد
ولمـا أراد الله مـن شـرف بـه — باسْمَين سُميّ وهو نِعـم المُفـرد
ذو همـة لا مُنتهـى لمَرامهـا — وعزائم ترقّى الـسِّماك[2] وتـصعدُ
ويجـل قـدراً أن يقـال غَـضنَفرُ — عنهُ فكـم ليـث لديـه مُخمـد

---

[1] كذا بالأصل.

[2] السماك، إحدى المجوعات النجمية في التقسيم الفلكي العربي الكلاسيكي، ابـن طاووس : فرج المهمُوم بتاريخ علماء النجوم، النجف (د.ت) ص ١١٤.

أضحى به الملك السعيد مُشيَّداً والمَجد من فرح يقُوم ويقعُد

وأنارت الأمْصار شَمسَ علائه فغَدت تُسبِّح عَدله وتُوحد

لاتجزعى يا عكَّة من ذا البَلا وتصبَّرى فاليوم يعقبهُ غد

وخُذي لك البُشرى فكفُّ نَواله ستُعيد حيك للحياة وترفد

ويفيض من مصر عليك جماله فيجود ربعك بالسُرور ويُعضد

أقسمت بالشرف الرَّفيع ومجده وبجُود كفَّيه ولست أفنِّدُ

لو أن تُقام الزَّاخِرات مدائحاً منظُومها بالزَّاهرات مُنضَد

لم تُحْص مدح أبي الخليل وإنَّما بمَديحه حُلي النِّظام المُنشد

/١٠٨ظ لا زال مسعُوداً يُصاحب جيشه نصرٌ من الله عليه مُؤيد

وبفتح عكَّة سيفُ إبراهيم قد قال المُؤرّخ ظافر ومُؤيدُ

فأجزل جوائزهم وأحسن إليهم، وأفرغ خِلع اللطف والإحْسَان عليهم.

قُلت وقد تقدَّم البيْتان اللذان اقترحهما الأمير بشير على الشَّيخ ناصيف ليقدمهما إلى مقامه السَّامي المَنيف، فلما بلغاه تحرَّكت منه العواطِف الأدبيَّة، وأخذت بعطفيه هزة الأريحيَّة، لما كان مُنطبعاً عليه من حُبِّ الفَصَاحة والأدب، وذلك على جَمْعه بين السَّيف والقلم شاهد عجب.

فأرسل يطلب من الشيخ المذكور قصيدة على نسق قصيدة السيد شاكر النحلاوي التي مدح بها الشيخ عبد الغني النابلسي[1]،/١٠٩و فنظم القصيدة الآتية وقد أودع كل بيت منها تاريخين، وافتتح صدورها بحروف إذا جمعت أعربت عن هذين البيتين :-

أنت الخليل وفي الأطلال بردُ لظى	أطلالُ عكًا ورفض الرُعب والحذرِ
١٢٤٨ ١٢٤٨	١٢٤٨ ١٢٤٨
كُن بالغاً أوج سَعد ما به ضررٌ	أو غالباً لم يزل في أوّل الظفرِ
١٢٤٨ ١٢٤٨	١٢٤٨ ١٢٤٨

وهما يتضمّنان ثمانية تواريخ في كل شطر تاريخان كأنهما فرقدانان[2] نيّران، وأما القصيدة فهي قوله :-

الزهر تَبسُم نُورا عن أقَاحيها	إذا بَكى من سَحاب الفَجر باكيها
نور الأقَاحي الذي ما بالحيَاء به	من صحّة وصفاء عزٌ مُنشيها
تلك الرُبوع لليلَى أين مربعُها ؟	عن قَصده وسيُوف العَرب تحميها
أنماء تَجني على الأكبَاد قاسطةً	تبَارك الله ما أحلَى تجنّيها

---

[1] عبد الغني النابلسي (١٠٥٠ - ١١٤٣هـ/١٦٤١ - ١٧٣١م) أصله عائلته من نابلس بالشام وإليها نسبته، شاعر وفقيه وأديب متصوف مكثر من التصنيف، ولد ونشأ في دمشق ورحل إلى بغداد ثم سافر إلى مصر والحجاز، ثم عاد واستقر في دمشق وتوفي بها، انظر الزركلي : الأعلام، بيروت (١٩٧٩) ٤ : ٣٢.

[2] كذا بالأصل.

/١٠٩ﻫ ليْلى، ولي شوقُ قيس في محبَّتـ ـها فشعْره فجنون شابةُ فيـــــــها

خالٌ لها عمَّـــة ورد بـــدا حَرَمـــاً في وجْنة حُميت عمـــن يُدانيــــــها

لله مُقلتها السَّوداء صـــائدةً قلُـــوب عُشَّاقها والقِـــرط راعيهـــــــــــا

يقول قَوْمي رويداً قد سقِمتَ هوىً فقُلت مهلاً شفائي فـــي نَواحيـــــــها

لعلَّ صَافي نَسيم مـــن خَمائلهـــا أتَى يهبُّ علـــى روحـــي فيـــشْفيها

وبي رفاق ليَالٍ في النقاء وفـــت[1] بيض اللقاء فمـــا أهنـــى لياليـــها

في جنَّة حُورها تزهُو بنـــا وبهـــا لوكان يصفُو خلُـــودٌ فـــي روابيهـــا

يهزُني ذكرها وجداً فأعلمه جُرحـــاً ورُوحـــي تـــراه مـــن مَجانيهـــــا

أسَأتُ كتم الهوى والـــصَّب كيـــف له ستر وأدمعـــه قـــد هـــلّ واشـــيها

ليس الهَوى بخفـــيٍّ عنـــد رادعـــةُ فكيف ناشِرةُ يَطويـــه تَمْويهـــــا ؟!

استودع الله صـــبراً مـــا أُمارســـه ومُهجة عن جِـــسانٍ لـــست أحميهـــا

طاب الهَوى والضَّنى واللوم لـــي فدمي أسر في بذله في حـــي أهْلِيهـــا

/١١٠د لبَيك يا لحظها الجَاني على كبدٍ سَالت أسىً في الهوى لـــولا تأسَّـــيها

أن تعْفُ طوعاً فإن العفو لي أربٌ أو لا فريْحَان روحي في تفانيـــــــــها

ليت الصِّبا عاد لي بعـــد المَـــشيبُ على شرط الوفا وهو أدْنى من تجلّيهـــا

[1] كذا بالأصل، وبصدر البيت اضطراب واضح.

بكرٌ مُحجَّبــةٌ لا تتجلــي لَحيــاً[١]   حتى من النُّجم حتى ما يُلاقيهـــــا

راق الدَّلال لها والــذُّل لــي أبــداً   ولم يُرق كأس وردي من تَدانيهـــا

دمعي ومبسمها الدُر الثُّمين صــدىً   لمُهجتي فبصبر القلب أرْويهــــــا

لما رأت جدُّ وجْدي فــي محبَّتهــا   قامت بسِيماء هــزلٍ عينهــا تيهــا

ظنٌ الجهُول الهَوى سَــهلاً لواجــدٍ   مَهلاً فقد تاه جهــلاً أو عَمــي تيهــا

يُهيجه غزلُ عــينٍ جــاء حائِكــه   يُحيك برد الــضُّنى حُلــواً لهاويهــا

إن العيُون التــي بانَــت لطائفهــا   لها خَفاءٌ ومعانٍ ليْسَ ندريهـــــا

طلاسِم سحرها المرمُــوز طالعــةٌ   أشكالُه في سطُور حَار قَاريهـــــا

لــواحظ لحــن فــي زي الحِــداد   لكي يبرُزن حُزناً على قَتلى رواميها

/١١٠ظ النَّاهبات البَواكي المُبكيات فقد   كُفَّت عقُول البرايــا عــن مَعانيهــا

لولا سَواد لها ما ابْيَّضَ فُوديَّ عن   شَيبي ولا احْمُر دمعي مــن تَهاديهــا

عَسي الذي بصدودٍ جــاء يأمُرهــا   يجيه غَلطاً هُــدىً فيُنْهيـــــــا

كل الجُرحات مُشفيها الدُّواء سوى   جِراحها أين حلَّت فهــي مُــشفيــها

إلى العيُون التي في طَرْفها حــورٌ   عهد الرِّعاية رقــاً مــن مُحبِّيــها

ويْلاه من زيفهــا داءٌ تطيــب بــه   فلا شَــفينا بعتَــق مــن دياجيــها

---

[١] كذا بالأصل، ولعله أراد "لحيٍ" أو "لحياء".

رُوحي وعيني فدى عيْن مُطهَّـرة ... ومُهجــة للتــي بــالنفس أفْــديها
فهي الجَميلة لكــن بــين عَاشـقها ... والصَّبر جُودٌ قبــيحٌ مــن تجَافيهـا
ضاع الزمــانُ وطــال الوَجــد وا ... أسَفي ولم يقصُر سباقي في تَصابيها
أشَــابني عتبهــا قُربــاً فأزْهَــدها ... وعيَّرتني بــشيءٍ جَــاء مــن فيهـا
للشَّيب أنفع طِبٌّ فــي الفَتــى نبــأ ... بمـــا يُــوافي وترهيبــاً وتَنْبيهـــا
رأسٌ يصفده نامي الــصِّبا عبثــاً ... بــأدهم الــشَّعرة النــذَّاب نَاميهــا
/[١١] عيشٌ قصير طويل الرُّعب أعدُّ ... له ما يقصر النَّفس قُرباً نَحو باريهــا
بـــرق المُنـــى خُلَّـــب إلا أقــلُّ ... حَسْبي تقرُّ عين به رصــداً يُــسلِّيها
والنَّاس من يَــشْتهي مــا المَطــل ... حاصلةٌ ومن تفيه عِداة نــام داعيهــا
أعُوذ بالله مــن علــمٍ بــلا عَمــل ... ومن تَــدارك نفــسٍ كُــلُّ راعيهــا
لوَّامـــة أوقفتنـــي لا أُطاوعهــــا ... ولا يُحبــب ضَــعفي أن أعاصــيها
حلَّت لها النَّار دُون العَار في دول ... من حَاسديها بــأرض ســالَ واديهــا
ذرْني وما بي، هل لومٌ يلُــمُّ بهــا ... وقد مُلئت وملَّــت مــن أعاديهــا ؟!
رماحكم يــاكِرَام الحــيِّ لا تقفُــوا ... ولا تَــرُعكُم بُلــىً جــدَّت دَواهيهــا
كُل البَلايا من الدُّنيا متى نزلت بنا ... فنيـــــران إبــــرهيم[١] تُفنيهـــــا
نارٌ ونور مَتى قــال النّــزال لــه ... والجُود هات يــداً لــم يُلْــق ثانيهــا

---

[١] كذا بالأصل.

بَنى من العـز بيتـا دون أعمـدةٍ سِـوى قنـاةٍ لـه عـزّت مبانيهـا

اللوذَعيُّ العزيـز البَاسـل المَلـك الغَازي المَلا بيـدٍ حَـسنبي أياديهـا

/ ١١١ظ للسيفِ والرُمح والأقْلام قد ولـدت رَاحاتـه ولـسُؤال تفاجيهـا

غازٍ مَهيب حَسيب ماجـدٍ نَجِـبٌ صافي الصّفات نفيس النُفس زاكيها

أقوالـه خُطـبٌ، أفعالـه شُـهبٌ آراؤه قُـضبٌ بـالله حَاميهـا

أحيى[1] المَحامـد مفـداةً مُـسلَمةً ألـيس أموالـه تفنـى وتُبقيهـا ؟

ورد ما مرٌ من عَدل الـصّحابة لا يلهُـو بزهـر ولا خَمـر يُعاطيهـا

جِرار خيَل يحل البَـأسُ جانبهـا والفتحُ والحَتف عـدلاً بـين أيـديها

سَل قوم عكّاء حين أربد مَـشرقها والشّام والتُرك لمـا اسْـودٌ ناديهـا

عبد الخَليل لعبـد الله صَـار بهـا اسماً، وشبه اسمه راحـت أسَـاميها

داس الـبلاد بـإذن الله يكْـسِرها وتكسر[2] السّيف نزعاً من نَواصيها

ماجت سَراياه أمجـاداً بـساحتها تُبقـي وفيـاً وتُبلـي مـن يُعاديهـا

أحِيب بأصـيدٍ تحكـي[3] الـدٌهر همّته لكن متى ناب شرٌ من يُحاكيها؟

بعيدُ قدر عن الأمثال ليس له شـبه فمـا مَدحـه مـا جَـاء تـشبيها

---

(1) كذا بالأصل.

(2) كذا بالأصل، والصواب "يكسر".

(3) كذا بالأصل، والصواب "يحكي".

/١١٢و هوالذي حجُّ آل البيت[١] جاء ‏ ‏ ‏ ‏ به بعد الذِّهاب جلّى الطرق جاليها

ضل السُّعودي وهاب السُّواد فما ‏ ‏ ‏ ‏ أهداه إلا ببرق البيض واليها

رسُول حق نزال الحَرب سُنَّته ‏ ‏ ‏ ‏ وفرض الجدّ بالجَدوى يُواليها

دام الحِجاز وسُود الزّنج ثم وفي ‏ ‏ ‏ ‏ فيها القتال وأمُّ الرُّوم يرميها

الله أكبر، هذا حالُ من جلس ‏ ‏ ‏ ‏ الأيّام فوق سُروج الخيل يُدميها

والحَمد لله لم تقصُر بواكره ‏ ‏ ‏ ‏ في ما يقُوم ولم تحصر مساعيها

غلاب ناد، وأجناد يعاهدُ ‏ ‏ ‏ ‏ نصرٌ قريب على لُطفٍ يُماشيها

أخصىَ المُنى والثّنا والحَزم والكَرم ‏ ‏ ‏ ‏ الأسنَى وآيات عدلٍ لست أحصيها

لا أعقب الويل مُصراً وهو تاركها ‏ ‏ ‏ ‏ همّا فجود يديه جاء يُغنيها

بحرٌ وبدرٌ وليثٌ لايُرد له أمر ‏ ‏ ‏ ‏ وصِمصامة سُبحان باريها

أبو الفتُوحات، أم الحَرب طاهيها ؟ ‏ ‏ ‏ ‏ سُلطان ساحات بر العَرب واقيها

له البلاد بأشخاصِ العباد بما ‏ ‏ ‏ ‏ أبقَى التّلاد بما خاطت أقاصيها

/١١٢ظ مُحمديٌّ عليٌّ شانه كَسرت ‏ ‏ ‏ ‏ طوارقَ الرَّوع باسمٍ منهُ يأتيها

يا يوم عُثمان لم يقظ بباكره ‏ ‏ ‏ ‏ إلا حنايا ظُعون وهو حاديها

زلّت به قدمٌ جاءت به مرحاً ‏ ‏ ‏ ‏ فولت القَهقَرى والجسم يُنعيها

---

[١] كذا بالأصل، وبصدر البيت اضطراب واضح.

لسيف سُلطان مصر هيبــةٌ لقــى البلاد حي بها يــا سـيف غَازيهــا

فاق الثنا أنّــك الــدُّنيا وقاهرهــا سَــعداً وحاكمهــا حقّــاً وقاضيــيها

يا فاتح المنصب الطاري ندىً وردىً على الصَّدى والعِدى يُخلي طَواريها

أتيت نحوك أحيِّي الليل عن عجــلٍ واقتُــل الخيــل جوابــاً أزجيهــا

والله يشهدُ كم ليــل سَــهرتُ بكُــم أجلُــو رقيمــة دُرٌ رد جَاليهــا

لم يأتهــا قبــل إلا شــاكر عجبــاً وجئــتُ بعــد فأهْــدتني قَوافيهــا

أبقَت صُداعاً بــراس راح يــسلُبه وحبَّــذا سَــلب أدواء تــداويها

لم ألق كُفــواً لهــا ممَّــن رفعــت يدي قبلاً إليــه فلــم أهــتم تنزيهــا

ظلَّ البديع لهــا عبــداً يلــم بهــا وكل خَطــبٍ ســليم عنــد رَاقيهــا

/١١٣د فأنعم بها، وهي فلتنعم بمُكرمها جُــوداً ومُعظهمــا جاهــاً ومعليهــا

رَاقت كــأدنى مَعانيــك الحِــسان فما آيات حقٍّ كــشطر مــن مَبانيهــا

سنة ١٢٤٨

فلما وقف على هذه القَصيدة الأنيقة، وتأمّل مــا فيهــا مــن الألفاظ الرّقيقة، والمعاني النفيسة الدّقيقة، مع ما انْطوت عليــه مــن سلامة التركيب وحسن الانْسِجام وعذُوبة الأساليب، وعلى ما فيها من الصناعة التاريخية، والالتزامات البديعية أُعجب بها غاية الإعْجَــاب، ووقعت عندهُ موقع الاستِحسان والاستِعذاب، فأنفذ إليه عــشرة آلاف ٥

غِرش، وخَاتماً من الياقوت الفاخِر على ما اعتاده من جميل المكَارم، وبديع المآثر.

/١١٣ظ واستقرَّت لإبراهيم باشا ولاية عَربستان فنادى بالعدل والأمان، وعامل الناس باللطف والإحسَان، وضبط الأمُور والأحكام على أحسن ترتيب وأكمل نظام، وأقام سَعادة شَريف باشا حِكمداراً على مدينة دمشق الشَّام بأمر الحضرة الخديوية - ذات المآثر السنيَّة - فعلا في البلاد شأنه، وارتفع مكانهُ، وساعدته الأقدار ودانت له الأقطَار، واستنار عمُوم الأهالي بصبح عدلهِ المتلالي في ظلُمات الليالي.

ومن أعماله المرضية التفاته إلى أخبار الرَّعية، والبَحث عن أحوال الأحكَام، وتصرُفات الولاة والحكَّام، بحيث لا يراعُون في الحق أميراً، ولا كَبيراً ولا /١١٤و صَغيراً.

وكان إذا سافر إلى بلدٍ لا يُحب أن يدخلها بالاحتِفال وكثرة العَدد، بل مُتخفيّاً حتى لايعلم به أحد، ولم يكن يُفرّق في التَّأديب بين القويّ والضَّعيف، والحقير والشَّريف، ولا يُراعي جانب أحد في القِصَاص ولو كان من أحبَّائه الخَواص، ولذلك لم يكن أحد من أجناده وأكابر ضُبَّاطه وقوَّاده يتجاسر أن يَحيد عن طريق الصَّواب بشيء من أنواع الظُلم والارتِكاب.

وكان النَّاس يهابُونه ويحترمُونه ويخافُونه لشدَّة بطشه وصَرامة أحكَامه، ولذلك انتشر العدل والأمان في أيَّامه فإن بعض

التجّار – من أهل المَناصف والشحار – ذهبُوا /١١٤ظ يشترُون غَنماً من نواحي حِمص وحَما[1] فسَطا عليهم قوم من العرب وسلبُوا ماكان معهم من الفضّة والذّهب، فحضروا إليه وتمثّلوا بين يديه وشكُوا أمرهم لدولته، فأمر لهم بدفع المَال من خزينته، وأرسل واحداً منهم من ذلك اليوم دليلاً على أولئك القوم، فحصل منهم ما سلبُوه من الدّراهم، وأدّبهم بالقَصاص الصّارم، فتأمّنت الطّرقات وتمهّدت السُّبل في سائر الجهات، وانْقطعت أسباب الفتن والحَركات حتى لم يعُد أحد يتعدّى على أحد، فكانت النّعجة ترعى مع الذّئب، والخرُوف يبيتُ في حُضن الأسَد.

حادثة عجيبة ونادرة غريبة

/١١٥و وكان إبراهيم باشا مع شَجاعته وحُسن تدرُّبه في أبواب الحرب وبراعته ذا سياسةٍ ونباهة وفراسة، وله في ذلك نوادر كثيرة وحكايات شَهيرة، منها أن رجلاً من أهل رأس بيْرُوت مرَّ ذات يوم على الرّمل[2]، وأوغل في ذلك السّهل فرأى في طريقه رجُلاً مقتولاً في تلك القِفار، فارتاع لمنظره، وأخذته الرّعدة والاقْشِعرار، فرجع على الأثر، وحدّث المُتسلّم بذلك الخَبر.

(1) كذا بالأصل، ولعله أراد "وحماة".

(2) كذا بالأصل.

وكان مُتسلِّم المدينة يومئذ رجلاً عليَّ الهِمم، موصُوفاً بمكارم الأخلاق وحُسن الشِّيم، ممدُوحاً عند الغائب والشَّاهد يقال له حُسين افندي راشد، فبادر بإحْضَاره واستكشَاف أخباره، /١١٥ظ وإذا هو رجل غريب، ليس له في المدينة خليل ولا قريب، فتألَّم المُتسلِّم قلقاً وكدراً، وقبض من أهل رأس بيرُوت على نحو عشرين نفراً، وسألهم عن ذلك المقتُول فقالوا ليس عندنا علمٌ بشيء مما تقول، فتهددهم بالضرب الأليم، وألقاهم في السجن تحت التَّرسيم، وكان كثيراً ما يستحضرهم ويتهدَّدهم ويسألهم ويتوعدهُم.

واتفق حضُور إبراهيم باشا في تلك الأيام من مدينة دمشق الشَّام، فأوقفه المُتسلِّمُ على واقعة الحال، وأخبره بما فعل من حَبس أولئك الرِّجال، فقال له :- "إنك بما فعلت قد أخطات الغَرض، وركبت الشَّطط ؛ لأنه من المُستحيل أن يكون القاتل أكثر من /١١٦و رجل أو رجُلين فقط، وها أنت قد سجنت نحو عِشْرين رجلاً من أهل البلد من حيث لم يقع لك شُبهة منهم على أحد"، ثم أمر بإخراجهم من السجن وإحضارهم إلى ما بين يديه، فأخرجُوهم وأحضروهم إليه ؛ فتأمَّل فيهم واستَنطقهُم، وبعد ذلك أطلقهم واستدعى بأحد الجَاويشية وأصحبه بخَمْسة أنفار من البَلطجية، وقال له أريد منك أن تذهب إلى رأس بيرُوت في الحال من غير إهمال ولا إمْهَال، وتأتيني بأصحاب الدَّكاكين والخمَّارات الذين يبيعُون المُسكرات، فامتثل ما أُمر، وفعل كما ذكر.

ولم تكن إلا سَاعة حتى جاءهُ برجُلين من تلك الجماعة، فاختَلى بأحدهما وقال له اصْدِقني /١١٦ظ بالكلام وإلا انتقمت منك أشد

الانتقام، هل مرَّ عليك منذ يومين أو ثلاثة أيّام بعض أنفـــار ومعهُـــم رجل غريب الدّيار؟، فقال لا والواحد الأحد إنه لم يمر علي أحد، ثـــم طلب الآخر وسأله ذلك السُّؤال وتهدده بالمقَال فقال نعم يا ولي النّعم، قد حضر إلى دُكّاني منذ يومين عند المساء ثلاثة أشـــخاص غربـــاء،
٥ فطلبوا منِّي طعاماً وفاكهة ومُداماً، فأتيتهم بالمطلُوب مـــن المـــأكول والمشرُوب، وأقامُوا عندي ولعبوا بالقمار طول ذلـــك النهـــار، ثـــم انصرفُوا بالسلامة والأمان، وفي الصَّباح رجع منهم اثْنَان، فقال لـــه إبراهيم باشا لقد قُلت الحـــق ونطقـــت بالـــصِّدق، وأنـــا أريـــد الآن إحْضَارهما /١١٧و منك حتى أطلق سبيلك وأصفح عنـــك، ثـــم أمـــر
١٠ الجاويش أن يذهب معه ويعاونه في التّفتيش، فذهبا جميعا ولم تكـــن إلا ساعة حتى أتيا بهما إلى حضرته سريعاً، فقـــال لهمـــا "ويلكُمـــا أصدقاني أين رفيقكما الذي كان معكما في اليوم الفُلاني ؟، فلما سمعا كلامه وعرفا مَرامه رجف قلبهما، وازداد رعبهُما، ولم يـــسعهما إلا الإنكار خوفاً من الهَلاك والبَوار ونزول الدَّمار.

١٥ فألقاهما تحتَ الضَّرب والعقاب، ولما طال عليهما العَـــذاب أقرَّا بأنهما قَتلاه وأخذا ماله ودفناه، فالتفت إبراهيم باشا إلى المُتـــسلِّم وأرباب الدِّيوان ومن حضَر في ذلك المكان من الأكـــابر والأعيَـــان وقال لهم هذان هما المُجرمَان، ليس كما ظَننتُم أنـــتم، /١١٧ظ فتعجَّـــب الحاضرُون من فطنته وقوة ذكائه ومعرفتـــه، فـــأمر بقتلهمـــا أمـــام
٢٠ الجمهُور، وأن يلقُوهما في ذلك المكان الذي قتلا فيـــه ذلـــك الرجـــل المذكُور، وكان ذلك الدُّكان الذي سكروا به، وقتل ذلك الرجل بـــسببه

يُقال له دكان الزَّيْدانيَّة، فأمر بهدمه وتعطيله بالكُلِّيَّة، وبقـي مهـدُوماً معطلاً إلى أن خرجت الدولة المصريَّة من بلاد سُوريَّة[1].

وفي تلك الأيَّام اعتزَّ الأمير بشير بإمداد إبراهيم باشا وتأيَّـد، وطالت يدهُ في ولايته وتشيَّد[2] حتى كان يُحسب أن ذلك الزَّمان كان أول حاكمٍ على جبل لبنان مع أنه كان والياً في الجبل المـذكُور منـذ خمس وأربعين سنة وكسُور، ولكن كانت /١١٨و يـده مغلُولـة مـن مناصب البلاد، فلم يكن يستطيع أن ينفذ أحكامه على حسب المُـراد، لأن مُشير الأحكام في تلك الأيام كان تارة لا يقدر أن يُعطيـه قـوَّة ليتقوَّى عليهم، وتارة [كانوا][3] يستميلونه بالرِّشوة فينعطف إليهم.

فلما تولى إبراهيم باشا التي[4] كانت ترجـف الجبـال مـن سَطوته، وترتعد فرائصُ الرجال من هيبته ؛ انبسطت يد الأمير بهيبة هذا الوزير، حتى صارت المناصب وأهل الجبل تخاف مـن خادمـه أكثر ممَّا كانت تخاف من شخصه في الأيام الأُول.

---

[1] يقول المؤلف المجهول أن إبراهيم باشا هو الذي أمر بإنشاء الخمارات في بلاد الشام، ولم تكن تلك المواخير معروفة آنذاك بالشام وهذا واضح من اسـتياء المؤلف المجهول الذي قال ما نصه "وتشوّف الاسلام بأسوأ حال لأنه شـيء مثل هذا عمره ما صار ببلاد الشام" كما أن إبراهيم باشـا طلـب أن يكـون ضمان الخمارات بالشام سبعمائة كيس سـنويا، انظـر مـذكرات تاريخيـة، ص٦٦.

[2] كذا بالأصل، ولعله أراد "وتسيَّد".

[3] زيادة اقتضاها السياق.

[4] كذا بالأصل.

في تمرّد دروز حَوران مع شِبل العريان وانقيادهم إلى الطّاعة بعد العصيــان

فلما استَخلص إبراهيم باشا قُطر الشّام وصـــفت لـــه الليـــالي /١١٨ظ والأيَّام كما تقدم الكلام أرسل الأوامر والمَناشير إلـــى الأميـــر بشير يطلب منه أن يجمع من الدُّروز ألفاً ومائتي نفر ليـــدخلهم فـــي سلك العَسكر، فامتثل أمره وبادر بالعَجل، واستدعى إليـــه مناصـــب درُوز الجبل، وأخبرهم بما كان، وعيَّن على كل مُقاطعة كميَّـــة مـــن الشبان، وأمر المَناصب وأرباب الوظائف والمَراتب أن لا يأخذُوا من ليس له عوض، ولا من يكُون به علَّة أو مرض، وأن ينتخبُوهم مـــن ابن خمسة عَشرة إلى ابن خمس وعشرين سنة، وحدَّد لهم في ذلـــك مدة مُعيَّنة.

فلما شَاع هذا الخبر ونما بين الدُّروز وانتشر أثر ذلك فـــي قلبهم أعظم أثر فهاجَت منهم الشُّبان، وأظهروا الخلاف والعِـــصيان، فغضب /١١٩و الأمير من أعمال الدرُوز وقال لهم إنكـــم تريـــدون أن تعصُوا الحكومة وذلك لا يجُوز، فيلـــزم أن تطيعـــوا الأوامـــر وإلا أذهَمكُم بالعساكر، وأنهب أموالكم وأقتل أطفالكم، ثم جمع إلـــى بيـــت الدين جميع المطلُوبين وأرسلهم إلى عكَّـــا بـــالقوة الجبريـــة امتثـــالاً للأوامر السنيَّة، وهناك أدخلوهم في وجَاق العسكريَّة.

واتَّفق بعد ذلك بأيام أن إبراهيم باشا كتب إلى شَريف باشـــا والي دمشق الشّام يأمره بأخذ نظام من دروز حَـــوران ووادي التّـــيم وإقليم البلان، فأجاب بالسَّمع والطاعة، وشرع في ذلك الأمر من تلك

الساعة، فلما بلغ الدُّروز هذا الخبر زاد عنـدهم القلـق والـضَّجر، فأظهروا له التمرُّد والعناد، وعدم الطَّاعة والانقِيـاد، فـازداد /١١٩ظ شَريف باشا عليهم حنقاً وكدراً، وأرسل لمُحاربتهم عَسكراً فلم يظفـر منهم بمُراد لأنَّهم كانوا قد اتَّحدُوا مع عرب تلك الـبلاد، وانْـضَاف إليهم جماعة من درُوز لبنان وسـكان وداي التـيم وإقلـيم الـبلان، وغيرهم من أهل البَغي والفَساد تحت راية الـشَّيخ حـسن جُنـبلاط، والشيخ ناصر الدِّين العماد حتى صاروا في عشرة آلاف مُقاتل بـين فارس وراجل، فكانُوا يربطون مسالك الطُّرق وينهبون القَوافل بـين بيروت ودمشق ويقتلُون من استفردوه من عسكر النِّظام، ولم يحسبُوا في كل ذلك لعواقب الأيَّام.

فلما رأى شَريف باشا ما فعلوه أرسل إليهم عـسكراً آخـر فحاربوه وهزمُوه، وكانت دُروز /١٢٠و وادي التـيم وإقلـيم الـبلان ينجدُونهم بالرِّجال والفُرسان، ولما بلغ إبراهيم باشا هذا الخبر استولى عليه الغيظُ والكَدر، وكتب إلى أبيه بمصر يُعلمه بهذا الأمر، ويلتمس منه إرسال عسكر من الأرناؤُط بالعجل لأن عَسكر النِّظـام يتعـسَّر عليه الحَرب في الجَبل، فجهَّز له أربعة آلاف مُقاتـل تحـت لـواء مُصطفى باشا كامل – وكان بطلاً هُماماً، وشُجاعاً مِقداماً – فوصـل في أقرب زمان إلى عربستان، وحارب الدُّروز في الوَعرة سنة ألف ومائتين وإحدى وخمسين من الهِجرة، وجرت بينه وبينهم عدة وقـائع مُنكرة في تلك الأمَاكن المُوعرة.

وكانت دُروز البلاد ومن اشترك معهم في هذا الفساد تنجدهم أولا /١٢٠ظ سرّاً ثم علناً وجهراً تحت راية شبل العريان، وكان مـن

فحُول الفُرسان، موصُوفاً بالشُجاعة وقوة الجِنَان، فغضب إبراهيم باشا بهذا السَّبب، وكتب إلى الامير بشير من حلب يذكر له ذلك الخَلل الواقع من درُوز الجبل، ويأمره أن يُبادر في الحال بإرسال حفيده الأمير مجيد[1] قاسم في جماعة من الأبْطَال إلى وادي التّيم وإقليم البلان لإرهاب درُوز لبنان لئلاً ينجدُوا دروز حُوران، وأن يُرسل حفيده الأمير محمُود خليل إلى حاصبيا على الأثر في ألف وخُمسمائة نفر ليُقيم في دار سَرايا الأحكَام مع عسكر النِّظام ؛ فأجاب وامتَثل، وأرسلهما على عجل.

ولما بلغ الأمير مَجيد إقليم البلان أطلق /١٢١و الغارة على العُصاة المُتجمعين في ذلك المكان، فهزمهم[2] على أعقابهم، واستولى على أسلابهم بعدما قتل منهم مائة وخمسين رجلاً، وملأ قلوب من بقي خوفاً ووجلاً، وأما الأمير محمُود فنزل في دار السَّرايا بمن معه من الجنود، وفي أثناء ذلك قدم إبراهيم باشا إلى حاصبيا[3] للانتقام من الدروز، وكان وصوله إليها في اليوم الخامس من شهر تمُّوز، وكان قد بلغ الدروز في بعض الأيام أنّه قادم ذخائر إلى عسكر النِّظام من مدينة دمشق الشّام فطمع الشيخ حسن جُنبلاط بنهبها وأرسل خُمسمائة نفر لأخذها وسلبها، فالتقوا بها في بعض الطِّريق، وكانت عدة صناديق من البَارود والدُّقيق، /١٢١ظ فلمَّا أبصروها انقضُّوا عليها واستخلصُوها.

---

[1] كلمة "مجيد" استدراك أثبته المؤلف أعلى السطر بين كلمتي الأمير – قاسم.

[2] كذا بالأصل، ولعله أراد "فردُهم".

[3] حاصبيا مدينة صغيرة تقع على نهر الحاصباني إلى الشرق من مرج عيون.

واتّفق في ذلك الوقت قدوم مُصطفى باشا من الوَعرة بالعَساكر فالتقاهم في الطّريق واستخلص منهم المؤن والذّخائر، فلما بلغ الشّيخين هذا الخبر بادر الشيخ حُسين على الأثر وقصد ذلك المكان بسُبعمائة نَفر، وتبعه الشيخ ناصر الدين بستمائة وخَمسين، ولما أشرفُوا على المكان المعهُود أطلقوا على مُصطفى باشا نيران البَارود، وعلا ضجيجهم كأصوات الرعُود، فاستقبلتهم الأرنَاؤُط بقلوبٍ كالجبال، واشتبك بينهم القتال، وأخذت نيران الحرب في الاشتِعال حتى تزلزلت من ضجيجهم أرض وادي التّيم.

وكان الرّصاص يتناثر كالبرد، ودُخان /١٢٢و البَارود غطّى الآفاق كالغَيم، واستمر القتال بين الفريقين نحواً من ساعتين، وكان إبراهيم باشا يومئذ في حاصبيا بالقُرب من ذلك المكان، فلما بلغه الخبر نهض مسرعاً بأربعمائة مقاتل من الفُرسان، ولما وصل إلى ساحة المَعْمَعة ورأى تلك الأحزاب المُتجمّعة أطلق عليهم نار الدّائمة[1]، وأمر العَساكر أن تُبادرهم بالمُهاجمة، فأطبقُوا عليهم من كل جانب، وحملوا عليهم كالسّلاهب[2]، وضيقوا بهم المَسالك والمذاهب، وأخذوا يذبحُونهم كالغَنم، ويقطعونهم تقطيع لحم على وضَم، فقتلوا منهم ستّمائة وعشرين، وكان من جملة المقتُولين الشيخ ناصر الدّين، ولم ينج من أصحابه سوى خمسين.

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) كذا بالأصل.

وأما الشّيخ /١٢٢ظ حسن جُنبلاط ومن بقي معه من مشايخ الأرهَاط فلما أيقنوا بالعَطب، وعلمُوا أن لا نجاة لهم إلا بالهرب، ولوا بكل خفّة وسُرعة، وقصدوا قرية شبعة، فدهمهم إبراهيم باشا في ثاني الأيّام بجمُوع الأرناؤط وعسكر النِّظام، فانقلبُوا على أعقابهم يطلبون الفرار، وقتل منهم جُملة أنفَار، وفر شبل العريان بمائة فارس إلى حُوارن، ودخل المصريُّون إلى القرية فنهبُوها، وقتلوا من وجدوا بها من العُصاة وأحرقُوها، ولم يبق من أهلها إلا من كان طفلاً أو نائحة تصرخ صراخ الثّكلى، ثم أحرقُوا بعدها أكثر القُرى، وتركوها عِبْرَةً لمن يرى، فندمت الدُّروز على ذلك الرأي الوخيم، ولم يعد يمكنها إلا الانقِياد والتّسليم، /١٢٣و والامتثال لأوامر إبراهيم.

ولما يئس شبل العريان من بلوغ الوَطر، ورأى نفسه عُرضةً للخطر؛ ندم على سوء عمله، وأيقن بحلول أجَله، فحضر في جماعة من الأبطَال إلى إبراهيم باشا – صاحب السّعادة والإقبال – فاعتذر إليه ووقع على قدميه مُلتمساً منه الرِّضى والعفو عمّا مضى، فتعطف عليه بمَراحمه، وصفح عن جَرائمه، وغمره في بحر كَرمه، ونظمَهُ في سلك خدمه، وجعله قائداً على ألف فارس من الهوَّارا[1]، فاكتسبَ فخراً واعتباراً وتحسَّنت أحواله بهذه الخدمة وصار له بين الناس منزلة وحُرمة.

حرب نزب على وجهٍ مُختصر

وفي سنة ١٢٥٥ هجريَّة الموافقة لسنة ١٨٣٩ مسيحيَّة /١٢٣ظ صدرت الأوامر السُّلطانية إلى حافظ باشا أن يتجهّز في الحال ويسير

(١) كذا بالأصل.

بالرِّجال والأبْطَال لاستخلاص بلاد سُوريَّة من يد الدُّولة المصريَّة، فامتثل الأمر المُطاع، وسَار على قدم الإسْراع في تسعين ألف مُقاتل بين فارس وراجل، قاصداً عربستان من غير تأخير ولا توان، وما زال سائراً بذلك الموكب حتى انتهى إلى نُزب[1]، وهو سهل فسيح الرحاب بين بَراجيك[2] وعَيْنتَاب، فزحف إليه إبراهيم باشا بالعساكر المنصُورة، وصَدمه يوم الجُمعة الواقع في [3] من السنة المذكُورة، وبعد المُصادمة من العسكرين والمُكافحة من الطَّرفين تزعزعت جيُوش الأتراك ووقعت في /١٢٤و سُوء الارتباك من تواتر الحَملات والهجمات، وضرب السُّيُوف وطعن السُّنكات، فتأخر إلى الوَرا، وتقهقَرت في تلك الصَّحرا طالبة مَرعش وتلك الأطْرَاف، بعد أن قتل منهما نحو ثلاثة آلاف، وأسر حَافظ باشا وزيرها ومدبِّر أمُورها ومُشيرها، واستحْوذ المصريُّون على مُهمَّاتها وأثقَالها، واستولُوا على ذخائرها وأموالها.

ورجع إبراهيم باشا ظافراً منصُوراً، وعدوه مُدبِراً مقهُوراً، وانتهى إلى الأستَانة خبر هذا النَّصر بعد ثمانية أيام من وفاة السُّلطان محمُود، وجلوس ولده السُّلطَان عبد المَجيد.

في خروج الدولة المصرية من بلاد سورية

وكان بعد أن فاز إبراهيم باشا وانتصر في حرب نُزب /١٢٤ظ - كما تقدم الخَبر - ورفعت جيوشه رايات النَّصر والاستِظهار،

---

(1) نزب أو نزيب مدينة تقع على التخوم بين الشام والأناضول وهي اليوم على مقربة من خط الحدود السورية التركية، تقع بين عينتاب وبراجيك.

(2) براجيك مدينة تقع بين سروج إلى الشرق ونزيب إلى الغرب.

(3) بياض بالأصل.

وحلَّ ما حلَّ بأعدائه من السُّقوط والانْكِسار، حاذرت الدول الإفْرنجية أن يفتتح القُسْطَنطينية، ويجلس على تخت السلطنة العُثمانية، ولـــذلك اتَّحدت الدولة الإنكليزية مع الدولة الرُّوسية والنمساوية البُروســيانية على ترجيعه من تلك الدِّيار، إما بـــالطَّوع والاختيـــار، أو بطريـــق ٥ الإكْرَاه والإجْبَـــار.

وفي ١٥ تمُّوز سنة ١٨٤٠ مسيحيَّة عقدوا في مدينة لوندرا جمعيَّة للبحث والمُفاوضة بهذه القضيَّة، وبعد عقد جلـــسات مُتَعـــدِّدة فرضُوا عليه شُروطاً وأحكاماً مُقيَّدة، وبنـــوا علـــى ذلـــك التَّحـــالُف والمُعاهدات على مـــا أرادُوا مـــن المَقاصـــد والغَايـــات، وأمْـــضَى ١٠ بالمصَادقة /١٢٥و كل من تلك الدُّول المُشار إليهـــا، فكـــان جُـــلَّ مـــا سطَّروه وفَحوى ما استحسنُوه وحرَّروه هو تقرير ذاك الهُمام الأعْظَم والخديوى الأكْرم الأفخم مُحمَّد علي باشا - ذي الأخْلاق الرَّضـــية - على ولاية الأقْطَار المصريَّة مع قسم صغير مـــن الـــدِّيار الـــشَّامية، ويكون ذلك من بعده لذُريته وأولياء عهده، وشدَّدوا عليه في الكـــلام ١٥ أنه من بعد وقُوفه عليها بعشرة أيام يسحب عَسكره من أطْراف بـــر الشَّام بلا نزاع ولا خصام.

فعند وقوف ذلك البطل الهُمام، والليث الباسل الضِّرغام على هذا الطَّلب - الذي يستحقُّ العَجب - عظُم الأمر لديه، ولم يُـــصادق عليه لكونه /١٢٥ظ خارجاً عن دائرة العدل والإنْـــصَاف، وكـــأنَّ مـــا ٢٠ حملهُم عليه [هُو][1] الميلُ والانْحِراف، فما كان من الملوك المُتَحـــدة

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

والدول المُحتشدة إلا أنها اتفقت مع الدولة العليَّة بإشهار الحَرب على الدولة المِصريَّة، وأرسلت الدولة الإنكليزية سنة ١٨٤٠ مسيحيَّة عمارة بحرية مشحُونةً بالعَساكر والمُهمَّات الحربية إلى أسَاكل سُوريَّة تحت قيادة اللورد شَارلس ستابغُورد، فضرب بيروت الضَّرب المهُول، فسلَّمت في الحَادي عشر من شهر أيلُول، وأما باقي الثُّغور كطرابلس وصيدا وصُور فحيث لم يكن فيها من القلاع ما يقوم بحقِّ الدِّفاع اضطرَّت أيضاً إلى التَّسليم بعد جهاد عظيم.

/١٢٦و ولما استولوا على هذه الأسَاكل شحنُوها بالعساكر والجَحافل، وقصدوا قلعة عكَّا الشَّهيرة بتلك المَراكب والقوَّات الكثيرة، وأطلقُوا عليها مدافعهم وقنابلهم، وكانت المدينة تُحاربهم وتُناضلهم، وجنُودها تجد في نيل مراكز المجد والظَّفر، غير مُبالية بالأهوال والخَطر، واستمر القتال على هذا المنوَال ثلاث ساعات بلا انقطاع ولا انفصال حتى أوشك أن يكلَّ كلا الفريقين سويَّة، وكادت تقع الكَسرة على القوَّات الأجنبيَّة، فاتَّفق بأمر الواحد الأحد، والفرد الصَّمد وقُوع كلَّة على جبْخَانة البلد فاحترقت في الحال، وقتلت عدداً كثيرا من الرجال، وبهذه الوسيلة ضعُفت قُواها /١٢٦ظ وسُلِّمت إلى عداها.

وكان حدوث هذا الأمر الربَّاني في اليوم الثالث من شهر تشرين الثَّاني، وحينئذ استَولى عليها المُتعاهدون وهم ببطش العساكر المصرية وبسالتهم يتحدَّثُون، ولما رأت الحضرة الخديوية أنها أمسَت تُحارب أقوَى الدُّول الأوربَّاوية ؛ سحبت عَساكرها من الدِّيار الشَّامية بعد حرُوب عديدة، ووقائع هائلة شَديدة.

وما زال مُحمَّد علي باشا في عزّه وفخره، ونهيه وأمره إلى أن بلغ الثّمانين من عُمره، فاعتراه مرضٌ سَوْدَاوي أحدث خللاً في فكره - الذي كانت تضرب بصحتِه الأمثال، وتستمد به فحُول الرِّجال - وبعد ذلك بسنة انتقل إلى /١٢٧و جوار الملك العلاّم، وكانت مُدة حُكمه خمساً وأربعين سنةً وعَشرة أيّام، وكانت وفَاته في اليوم الثّامن من شهر آب سنة ألف وثمانمائة وتسع وأربعين مسيحية، الموافقة لسنة ألف ومائتين وخمس وستّين هجرية، فتقطّعت عليه القُلوب حسَرات، وانسكبت لفقده العَبَرات، وعظُم ذلك على جميع أهل مِصر، وناحُوا عليه نُواح الخَنساء على صَخر.

فسُبحَان الحيّ الدّائم صاحب الملك والجبرُوت والصّمد الذي لا يتغير ولا يمُوت، وكان يُلقب بالخديوي نسبة إلى "خُداي"[(١)] بالفارسية وهو اسم الله، وجرى هذا اللقب من بعده على أولياء عَهده وخُلفاه الذين سَمت بهم المَراتب، وعلا مَجدهم هام الكَواكب، /١٢٧ظ وسارت بذكرهم الرُّكبان، وهامت الشُّعراء بمدحهم في كل مكان.

ولاية الهُمام الأعظم إبراهيم باشا الأفخم

تولّى بعد تنازل أبيه، وكان في الأحكَام يقتضيه، وقد ذكرنا فيما تقدّم مَناقب هذا الأسَد الغَشَمْشَم، والخديوي الأعظَم، وما أجْرى الله على يده من الوقائع المشهُورة، والفتوحات المأثُورة، فلما استبدَّ

(١) خداي بالفارسية هي اسم الله المركب تركيبا مزجياً من خود بمعنى الذات ومن آي بمعنى أتى والمعنى "واجد الوجود"، والخديو تعني المالك، آدي شير : الألفاظ الفارسية المعربة، القاهرة ١٩٨٨، ص ٥٢.

بزمام الأحكام قام بتدبيرها أتمَّ قيام، وتحلّت بحُلـيٍّ بمـآثره الليـالي والأيّام، فعامل النّاس بالمعرُوف والكَرم، وأصلَح بين الذّئب والغَـنم، واقتَفى أثر والده في العدل، وعُلو الهِمـم، /١٢٨و ومكـارم الأخـلاق وحُسن الشّيم، ومن شابه أباه فما ظَلَم.

٥ وكان حضرة مولانا السلطان عبد المجيـد خـان(١) [قـد](٢) استدعاه إلى سدَّته المَنيفة، وزيارة حضرته الـشّريفة، فـدخل إلـى القُسطَنطينية عام ثلاث وستّين ومائتين وألف هجريّة، فقابله بالتّبجيـل والإكرَام، واحترمه غاية الاحتِرام، وفـوّض إليـه أحكَـام الـديار المِصريّة، وخلع عليه الخِلع السّنية، ورجع بالعزّ والإقبَال على أحسَن ١٠ حال وأنعم بال.

---

(١) السلطان عبد المجيد (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م : ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م) تـولى السلطنة ولم يكمل بعد عامه الثامن عشر وأقام خسرو باشا – والي مـصر الأسبق – صدرا أعظم ثم لم يلبث أن أقاله وعين محمد رشيد باشا صـدراً أعظم، ثم لم يلبث أن استحدث منصب رئيس مجلس الوزراء الذي أصـبح يتولى مقاليد السلطة ويقاسمه نفوذه في حكم الدولة، كما عمل في الوقت ذاته على الحد من نفوذ هيئة مشيخة الإسلام التي أصبحت في عـصره مجـرد هيئة شورية، وهو والد السلطان عبد الحميد الثاني آخر سلاطين آل عثمان، كما أنه كان هو السلطان الذي قدر له أن ينهي النزاع مع مصر عقب تسوية لندن فيما عرف بفرمان ١٨٤١ المتعلق بحدود مصر ونظام الولايـة بهـا، الذي أقر فيه بحقوق أسرة محمد علي في حكمها وراثيا للأرشد من أبنائـه، عن عصره انظر :-

يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ص ١٤٩ – ١٥١ ؛

Creasy : op cit, pp 451, 478

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

واستقرَّ في ولايته الزَّاهرة، ولوائح السُّعود في غــرة جَبينــه ظاهرة، وما زال السَّعدُ خادمه والعز مُــصاحبه وملازمــه إلــى أن أدركَهُ الأجل المحتُوم، واستوفى عمره المعلُوم، وكانت /١٢٨ظ وفاتــه في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ألف ومــائتين وأربــع
٥ وستين هجرية، ودفن باحتفال عظيم بالأسكندرية، وهو ابــن اثنــين وستّين سنــة، رضي الله عن مساعيه الحســنة، وكانت مُدّة ولايتــه اثني عشر شهراً، ورثاه شعراء العصر بكل قصيدة غرّاء، فمن ذلــك قول الفاضل الأديب والشاعر اللبيب، فخر الأدباء البــارعين مُحمَّــد أفندي شِهابُ الدِّين :-

صــبراً علــى مــا قــد مَــضى	إذ لا مُخلِّــص مــن قَــضى
كيــف التــصبُّر والمَنايــا	ذات عــضب مُنتَــضى
أودَت بــإبراهيم مُــذ	بلــغ المَقــام المُرتــضى
وإليــه آل الأمــر فــي	حُكــم الأيالــة وانقــضى
/١٢٩و فمــضى وقلــت مُؤرِّخــاً	الله يَــرحمُ مــن مَــضى

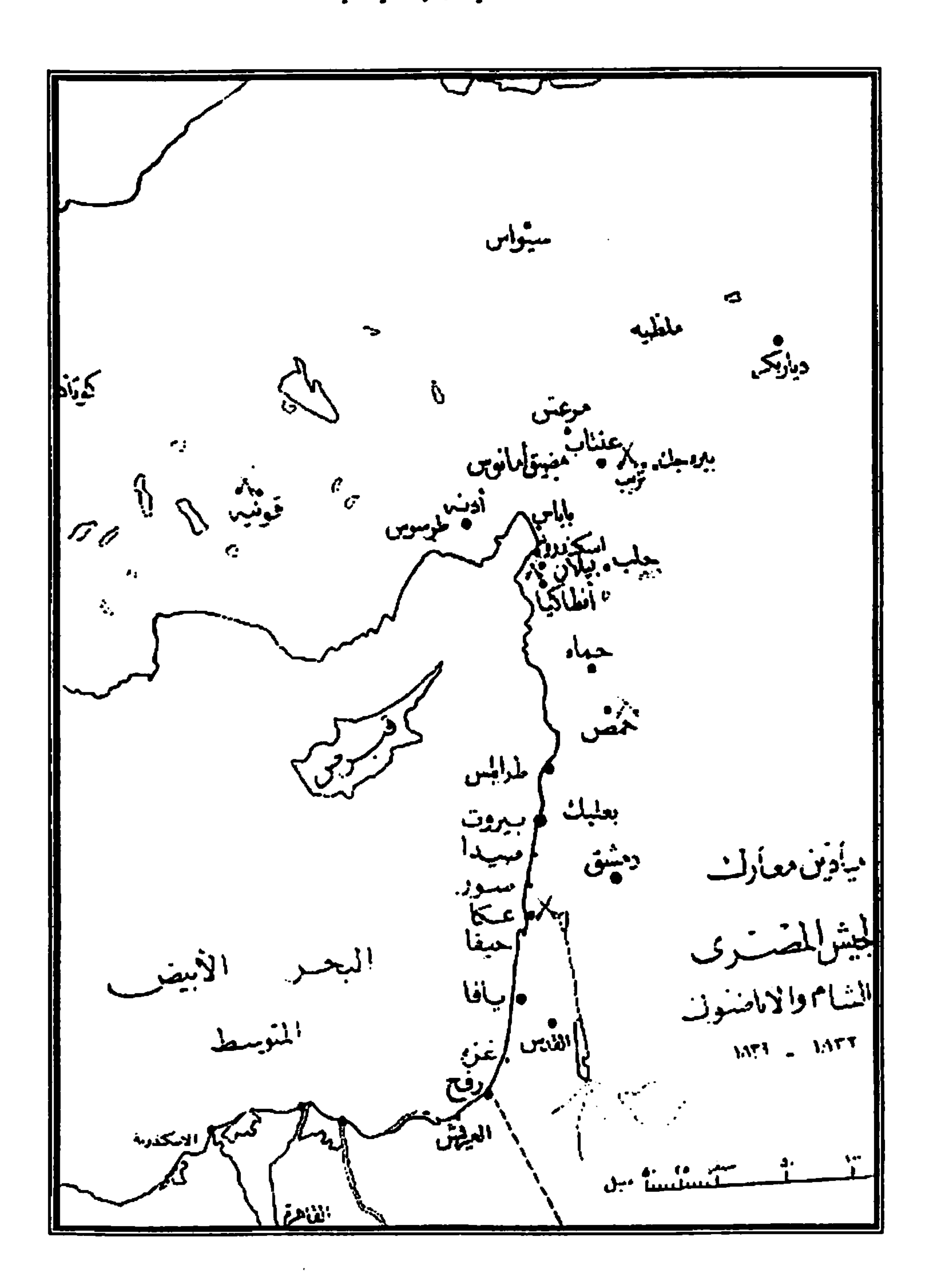
١٠ على أنه لم يمُت من بقيت مآثره، ونُشرت في الكون بعد موتِه مفاخِرُه، فكيف من أبقَى أنجَالاً كراماً، ووزراءَ عظامــاً كمُــصْطَفى فاضل باشا وإسمَاعيل الذين أضحت مآثرهُما غرَّة في جَبين الجيل، لا سيَّما مولاي مُصطفى، من راق به ورد الزَّمن وصفا، وحاز غــايتيْ الشَّرف والمفخر، وشاع ذكره في كل أرضٍ وقُطر.

وقد ذكرت في مقدمة الكتاب ما شاهدته من مكارم هذا الوزير المُهاب وما أولاني به من جزيل الإنعام، التي تَعْجَز عن وصفه ألسنة الأقلام، فهو أحقُ من تُهدى له غُرر المدائح والرّسائل؛ لأنّه /١٢٩ظ معدن الجُود ومصدر الفضائل، وفخرُ الأواخر والأوائل، والله المسئول في حفظ دولته الزّاهرة، وسطوته القاهرة بيده القادرة، ورعايته على توالي الليالي والأيّام بعينه التي لا تغفّل ولا تنام[1].

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه

---

(١) جاء في آخره "قد تم نسخ هذا الكتاب بقلم مؤلفه الفقير إليه تعالى اسكندر بن يعقوب أبكاريوس عُفي عنه" وإلى الأسفل ختم بيضاوي برتقالي اللون لاسكندر أبكاريوس تتصدره كلمة "اسكندر"، إلى الأسفل منه إلى اليمين قليلاً ختم الكُتبخانة الأزهرية، وأمام الختم إلى اليمين سطرين سطّرهُما فيما يبدو أحد موظفي الكتبخانة الأزهرية بالمداد الأزرق الجاف (الكُوبيا) يُحصي فيه عدد أوراق المخطوط وعدد مسطراته " ١٢٩ ورقة، ١٢ سطراً".



سيواس
ملطيه
دياربكر
مرعش
عنتاب
بيروجك
نزيب
مضيق امانوس
قونيه
أدنه
طرسوس
باياس
اسكندرونه
حلب
بيلان
انطاكيا
حماه
حمص
قبرص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
دمشق
يافا
القدس
غزة
رفح
العريش
الاسكندرية
القاهرة
البحر الأبيض المتوسط
ميادين معارك
الجيش المصري
الشام والاناضول
١٨٣٢ - ١٨٣٩
ميل

الفهارس

فهرست قوافي الأشعار الواردة بالنص

فهرست أسماء الكتب

فهرست الأعلام

فهرست الأمَم والشعوب والقبائل والجمَاعات

فهرست الأماكن والبلدان والبقاع

فهرست الألفاظ الاصطلاحية

مصادر ومراجع التحقيق

المصادر والمراجع العربيّة والمعرّبة

أثير الدّين الأندلسيّ (أثير الدين مُحمد بن يُوسف كان حيّاً سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م) .

الإدْراك للسَان الأتراك ، نشرة جعفر أُوغلي أغا ، استانبول ١٩٣٠ .

احمد السّعيد سُليمان

تأصيل ما ورد في تاريخ الجَبرتي من الدَّخيل ، القاهرة ١٩٧٩ .

احمد فهيم بيُّومي

حَرب كِريت والمورة ، بحث منشور ضمن الكتاب التَّذكاري لإبراهيم باشا بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته ، منشورات الجمعية الملكيَّة للدِّراسات التَّاريخية ، القاهرة ١٩٤٨ .

ادْوَارد فنديك

اكْتفَاء القنُوع بما هو مطبُوع ، بيروت ١٩٨٧ .

آدي شير

الألْفَاظ الفارسيَّة المُعرَّبة ، القاهرة ١٩٨٨ .

اسماعيل البغدادي

هديَّة العارفين بأسماء الكُتب والمصنِّفين ، بيروت ١٩٨٢ .

إيضاح المكنُون في الذّيل على كشْف الظُنُون ، بيروت (د.ت) .

إلياس الأيُّوبي

مُحمَّد علي ، سيرته وأعمَاله ، مطْبعة الهلال ، القاهرة ١٩٢٣ .

الجَبرْتيّ (عبد الرَّحمن بن حَسن المتوفَّى في حدود عام ١٢٣٧هـ/١٨٢٢)
عجائب الآثار في التَّراجم والأخبَار ، نشرة عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨ .
جُورجي زيدَان
تاريخ آداب اللُّغة العربيَّة ، القاهرة (١٩٥٧) .
خَالد فهْمي
كُل رجال البَاشا ، نقله إلى العربية شريف يونس ، القاهرة ٢٠٠١ .
الخشَّاب (اسماعيل بن سَعد المتوفَّى ١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م)
خُلاصة ما يُراد من أخبار الأمير مُراد ، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر ، دانيال كريسليوس ، القاهرة ١٩٩٢ .
الخُوَارزميّ (أبو عبد الله محمَّد بن احمد بن يُوسُف الكاتب المتوفَّى ٣٨٧هـ/٩٩٧م)
مفاتيح العلُوم ، نشرة جوْدَت فخر الدِّين ، بيروت (د.ت)
خيْر الدِّين الزركلي
موسُوعة الأعْلام ، بيروت ١٩٧٩ .
الدَّمردَاش (احمد الدَّمرداش كتخُدا عَزَبَان ، كان حيّاً عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م)
الدُّرة المُصانة في أخبار الكِنَانة ، نشرة دانيال كريسليوس وعبد الوهاب بكر ، القاهرة ١٩٩٢ .
الرَّجبي (خليل بن أحمد الرجبي المتوفى تقريباً في حدود عام ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م)
تاريخ الوزير محمَّد علي ، باعتناء دانيال كريسليوس ، حمزَة عبد العزيز بدر ، حُسام الدين اسماعيل ، القاهرة ١٩٩٧ .

السيِّد فرج

حرُوب محمَّد علي ، القاهرة ١٩٤٢ .

شيْخ الرّبوة (محمد بن أبي طالب الأنصَاري الدِّمشقي المتوفَّى ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)

نُخبة الدَّهر في عجائب البر والبحر ، بيروت ١٩٩٨ .

ابن طَاووس البغدادي (رَضيٌّ الدين عَلى بن مُوسى المتوفى٦٦٤هـ/١٢٦٦م)

فرج المهمُوم بتاريخ علماء النجُوم ، النجف (د.ت)

الطَّبري (محمَّد بن جرير بن يزيد المتوفى ٣١٠هـ/٩٢٢م)

تاريخ الرُّسل والملوك ، نشرة محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٩ .

العبَّاسي (عبد الرَّحيم بن عبد الرَّحمن المتوفى ٩٦٣هـ/١٥٥٦م)

مِنَح ربِّ البريَّة في فتح رُودس الأبيَّة ، تحقيق فيصل الكندري ، حوليات كلية الآداب جامعة الكُويت ، الحوليَّة الثامنة عشرة ، الكُويت ١٩٩٨ .

عبد الرَّحمن زكي

حملة الشَّام الأولى والثَّانية ، بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري لابراهيم باشا بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته ، منشورات الجمعية الملكيَّة للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٤٨ .

عرَاقي يُوسف

الوجُود العُثماني في مصر في القرنين السَّادس عشر والسَّابع عشر دراسة وثائقية ، القاهرة ١٩٩٦ .

عُمر طوسون

الجيش المصري في عهد محمد علي ، القاهرة ١٩٩٦ .

ابن كثير (أبو الفدا إسمَاعيل القُرشى الدمشقى ت٧٧٤هـ ـ ١٣٧٢م)

البداية والنهاية ، بيروت ١٩٩٦ .

لويس شيخُو

تاريخ الآداب العربية ، بيروت ١٩٢٤ .

محمَّد صبري

مصر من محمد علي إلى اليوم ، القاهرة ١٩٢٧ .

محمَّد قنديل البقْلي

التعريف بمصطلحات صُبْح الاعْشَى ، القاهرة ١٩٨٣ .

مجهُول

تاريخ مجهول العنوان نُشر تحت اسم مُذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية ، باعتناء احمد غسان سبانُو ، دمشق (د.ت) .

يوحنَّا ابكاريُوس

قطف الزهور في تاريخ الدُّهور ، بيروت ١٨٧٣ .

يوسف آصاف

تاريخ سَلاطين آل عُثمان ، تحقيق بسَّام عبد الوهاب الجابي ، دمشق ١٩٨٥.

يوسُف إليَان سركيس

مُعجم المطبُوعات العربيَّة ، مكتبة آية الله العظمى ، النجف (د.ت) .

المراجع الأجنبية

Asad Rustum: *Notes on Akka and its defences under Ibrahim Pasha, Beirut 1926.*

-----------------: *The royal archives of Egypt and the origins of the Egyption Expedition to Syria (1830-1841), Beirut 1936.*

Asad Rustum; F. Boustani: *Libnan al'epoque des emirs Chihab, Beirut 1933.*

Creasy, Edward Shepherd: *History of the Ottoman Turks from the beginning of their empire, London 1856.*

Goldschmidt, Arther: *Biographical dictionary of modern Egypt, Pennsylvania, 2000.*

Mengin, Félix: *Histoire de l' Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly ou récit des événements politiques et militaires qui ont eu lien dipuis le départ des français jusqu' en 1823, paris 1823.*

-----------------: *Histoire sommaire de l' Egypte sous la gouvernement de Mohammed Aly, Paris 1839.*

Narzakian, Sarkis: *Memoirs of Sarkis Narzakian, translated by Garine Narzakian, bublishrd by Gomidas istitute, U.S.A 1995.*

Shaw, Stanford Jay: *Btween old and new, The Ottoman Empire under Sultan Selim III, Harvard university press, 1971.*

Zürcher, Erik J: *Turkey, A modern history, third edition, London 2004.*

الفِهرسْت

